

« هولے العالم فی کتبے »
بإشراف الدكتور عزالدین حرید

(۷)

إبائیا
شعبها وأرضها

نشر هذا الكتاب بالاشتراك
مع
مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر
القاهرة - نيويورك
ديسمبر سنة ١٩٦٥

إسبانيا

شعبها وأرضها

تأليف
دوروثي لودر

مراجعة وتقديم
الدكتور عز الدين فريد

ترجمة
طارق فودة

كتب عربي
BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
(شراء) مكتبة الاسكندرية

رقم التسجيل ٦٠٨١٣

ملتزمة الطبع والنشر

مكتبة النخبة المصرية
لأصحابها حسن محمد وأولاده
٩ شارع عبد الباقى بالقاهرة

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية

هذه الترجمة مرخص بها ، وقد قامت مؤسسة فرانكلين
للطباعة والنشر بشراء حق الترجمة من صاحب هذا الحق .

This is an authorized translation of THE LAND
AND PEOPLE OF SPAIN by Dorothy Loder. Copyright
© 1955 by Dorothy Loder . Published by J.B. Lippincott
Company, Philadelphia and New York.

المشتركون في هذا الكتاب

المؤلفة :

دوروثى لودر : ولدت بمدينة سان انطونيو بتكساس .
تخرجت في جامعة تكساس وقامت بعدة دراسات أخرى في جامعات
كولومبيا وبراون والسوربون . تعلمت اللغة الإسبانية ثم سافرت
الى اسبانيا حيث اكتسبت معلومات وخبرات جمة استطاعت ان
تضمها لهذا الكتاب .

الترجم :

طارق فوده : رئيس قسم الأخبار بمجلة آخر ساعة . تخرج
في كلية الآداب جامعة عين شمس ١٩٥٥ ، قام بترجمة مسرحية
« شاي وحنان » لروبرت أندرسون ، و « الجحيم » لجان پول
سارتر ، و « التعليم ومعنى الحياة » للفيلسوف الهندي كريشنا
مورنى ، وكتاب « الحرب والسلام » من سلسلة حول مائدة
المعرفة التى تصدرها مؤسسة فرانكلين .

المراجع وصاحب المقدمة :

الدكتور عز الدين فريد : رئيس مجلس ادارة الدار القومية
للطباعة والنشر . تخرج في مدرسة المعلمين العليا بالقاهرة
سنة ١٩٢٨ . حصل على درجة الليسانس من جامعة ليقربول
سنة ١٩٣٢ ، وعلى الدكتوراه من جامعة لندن سنة ١٩٣٧ .

عمل أستاذا بكلية التجارة جامعة القاهرة من سنة ١٩٣٧ الى سنة ١٩٥٥ ، ثم عميدا لكلية الآداب بجامعة القاهرة منذ سنة ١٩٥٥ الى سنة ١٩٦١ ، ثم مديرا لمعهد الدراسات الافريقية بكلية آداب القاهرة من سنة ١٩٥٥ الى سنة ١٩٦٤ .

مصمم الفلاف :

طلعت المصرى : محلل كيمارى بشركة الحديد والصلب ، صمم عدة أغلفة للمؤسسة .

محتويات الكتاب

صفحة

هذه السلسلة بقلم حسن جلال العروسي	٩
تقديم بقلم الدكتور عز الدين فريد	١١
الفصل الأول	:	عالم في حد ذاته	٢١
الفصل الثاني	:	ظلال من الماضي	٣١
الفصل الثالث	:	العرب	٤٥
الفصل الرابع	:	الاسترداد	٥٩
الفصل الخامس	:	المنتصرون	٧١
الفصل السادس	:	تألق حكم آل هابسبورج في اسبانيا	٨٥
الفصل السابع	:	العصر الذهبي	٩٩
الفصل الثامن	:	الوصمة : محاكم التفتيش	١١٧
الفصل التاسع	:	الطلاء الفرنسي - البوربون	١٢٣
الفصل العاشر	:	الطلاء المخدوش - مزيد من البوربون	١٣٧
الفصل الحادي عشر	:	فوق الهضاب	١٤٧
الفصل الثاني عشر	:	مدريد	١٥٩
الفصل الثالث عشر	:	الاندلس	١٧١
الفصل الرابع عشر	:	في الشمال	١٨٩
الفصل الخامس عشر	:	الاسباني القح	٢٠٣
الفصل السادس عشر	:	الاسبانيون	٢١٩

هذه السلسلة

بقلم

حسن جلال العروسي

هذا الكتاب هو الكتاب السابع من سلسلة نقدمها - بسم الله الرحمن الرحيم - الى القارئ العربى عامة ، والى شبابه المتوثب خاصة ، تلك هى سلسلة « حول العالم فى كتب » ، وهى تستهدف أن تمحو الحدود بين الثقافات وتفتح النوافذ بين أقطار العالم ، فتصل ما بيننا وبين جميع اخواننا فى البشرية بنور هو أقدس ما أشعه الله سبحانه على الأرض .. نور العلم والمعرفة ، وعلى ضياء هذا النور المقدس تلتقى الآراء الشتى ، ويجتمع الرأى المختلف ، فيسود التعاون بدلا من التباغض ، ويزدهر التفاهم ، ليمحو الفرقة والتنابد .

لقد حاولنا فيما نشرناه من كتب علم النفس أن نساعد القارئ على أن يكشف أدغال الفلسفة الاغريقية الخالدة ، وهى التى تدعو الى أن « اعرف نفسك » على أساس أن معرفة الذات والتمعن فى داخل النفس مفتاح يؤدى بنا الى معرفة الكون . ومن أجدر منى بالبحث فى نفسى ، تلك النفس التى أعرفها كل المعرفة وأجهلها كل الجهل ، فى وقت واحد . فلو أنى كشفت خوافيها ، وتبينت حقائقها ، اذن لكشفت الكون كله ، وعرفت الناس أجمعين . فما هم الا أنا ، وما أنا الا هم ... مثل يتكرر ويختلف ، وخلية واحدة تجمعها البشرية وتفرقها أغوار فى النفس متضاربة .

أما هذه السلسلة فهي تدعوك - الى جانب معرفتك لنفسك - الى أن تعرف جارك وزميلك وأخاك في الانسانية . وهل نحن في عالم اليوم ، عالم الذرة والفضاء والصواريخ ، الا اخوة تجمعنا وحدة الأمل ، ووحدة الخطر ، ووحدة الخوف من المصير المشترك؟

ان رفاهة العالم أو نهايته لم تعد اليوم شأن فرد واحد ، ولا دولة واحدة ، بل شأن دول العالم جميعا ، وأفراد العالم مجتمعين . ولم تعد الشؤون الخارجية والدبلوماسية أسراراً كهنوتية تتخفى وراء أستار محجبة بمعزل عن الراى العام فى الدولة ذاتها ، وانما صار للفرد كلمة ينبغى لها أن تسمع ، وينبغى له أن يكون قد أحسن اعداد نفسه ليقولها وليفهمها ، وليكون فى النهاية لبنة قوية فى بناء قوى متماسك هو الراى العام القومى والراى العام العالمى .

من أجل ذلك شاعت فى العالم هذه الكتب التى تعالج التعريف بالبلاد المختلفة ، وشعوبها وأهلها ، واقتصادياتها ، وجغرافيتها ، والسياحة اليها ، وما الى ذلك مما يرسم صورة أقرب ما تكون الى الوضوح عن هذه البلاد . واتجهت الأغلبية العظمى من هذه الكتب الى التبسيط والبعد عن التعمق بحيث يتناول كل كتاب منها المعالم الهامة عن البلد الذى يتحدث عنه .

تقديم

بقلم

الدكتور عز الدين فريد

إسبانيا أقرب الدول الأوروبية إلى قلوب العرب ، وأكثرها تذكيراً لهم بأمجادهم . ولا ينكر الإسبانيون ما أثر العرب عليهم ، بل إنهم يفخرون بما خلفه العرب في بلادهم من روائع فنية مازالت تبهّر الناظرين بعد مئات السنين من رحيلهم عنها . ولو أن الإسبانيين طوروا ما ورثوه من حضارتهم وساروا على نهجهم في السباحة وعدم التعصب لما أفل نجم بلادهم كدولة عظمى قبل انقضاء قرن على مغادرة العرب لإسبانيا .

ولقد كان لموقع إسبانيا ومعالمها الجغرافية أثر كبير في تاريخها ؛ ففي العصور القديمة كانت شبه جزيرة « أيبيريا » على حافة العالم المعروف من جهة الغرب ، تطل غرباً على المحيط الأطلنطي الذي كان يعتبر بحراً لانهائياً ، وشرقاً على البحر المتوسط الذي كان مركز الحضارة في تلك الأزمنة ، ولا يفصلها عن أفريقيا سوى مضيق ضيق لا يعوق الانتقال بينهما

وقد عرف الإغريق شبه جزيرة «أيبيريا» منذ أكثر من ألفي سنة وأسسوا عدة مراكز لهم على ساحل إسبانيا الشرقي ، وكان هدف الإغريق التجارة والبحث عن القصدير الذي كان مطلوباً لصناعة البرونز — معدن الحضارة السابقة لعصر الحديد . ومع ذلك فلم تقم في إسبانيا في العصور التاريخية القديمة حضارة تذكر ، وإن كانت كهوفها وما تحتويه من نقوش ورسوم لحيوانات منقرضة تم عن قيام حضارة متناهية في القدم . وهكذا ظلت شبه جزيرة «أيبيريا» أرضاً منعزلة تسكنها جماعات بدائية لا تستطيع الوقوف أمام الغزاة ، وإن كانت طبيعة أرض بلادهم لا تجعل مهمة غزوها والسيطرة عليها مهمة سهلة .

ومع ذلك ففي القرن الرابع قبل الميلاد استطاعت قرطاجة أن تخضع معظم شبه الجزيرة ، وأن تتخذ منها قاعدة في حربها مع روما ، وفي كل مرة كانت تحل الهزيمة بالقرطاجيين كانوا يعودون إلى إسبانيا لتنظيم صفوفهم وتعبئة جيوش جديدة لإعادة الكرة على روما . فلما انتهت الحروب «البونية» بهزيمة قرطاجة أصبحت إسبانيا مفتوحة أمام الرومان ، الذين بسطوا نفوذهم عليها وضموها إلى إمبراطوريتهم الشاسعة .

حكم الرومان إسبانيا زهاء خمسة قرون ، أفادت البلاد خلالها انتشار اللغة اللاتينية والقانون الروماني ، كما أن الرومان — كعاداتهم — أنشأوا شبكة من الطرق البرية الممتازة التي ربطت أنحاء شبه الجزيرة بعضها ببعض ، كما أن الديانة المسيحية دخلت إسبانيا في أواخر أيامهم .

ولما حل الضعف بروما كانت قبائل « الوندال » المتبربرة قد عبرت نهر الرين وأغارت على فرنسا وإسبانيا ، بل وعبر أحد ملوكهم إلى أفريقيا وكون مملكة في قرطاجة . كان « الوندال » غير متحضرين ، فأعموا السلب والنهب في كل مكان هبطوا به ، وعمت الفوضى البلاد ، وقتل الكثير من أبنائها ، مما اضطر الأهالي إلى الاستنجاد بالقوط الغربيين الذين كانوا قد وصلوا إلى جنوب فرنسا . وهكذا بدأ حكم القوط لإسبانيا واستمر حتى الفتح العربي .

وليس هناك من شك في أن فترة الحكم العربي في إسبانيا كانت من أروع صفحات تاريخها ؛ إذ أصبحت إسبانيا لأول مرة مركز إشعاع ثقافي وحضاري للقارة الأوروبية ، يفد الدارسون إلى جامعاتها لتلقى العلم على كبار أساتذتها ، وتنقل مؤلفات العرب ومترجماتهم عن اليونانية إلى اللغات الأوروبية الأخرى ، مما كان عاملاً من عوامل قيام النهضة الأوروبية فيما بعد . وقد عنى العرب بالزراعة والري وجعلوا من الأندلس جنة فيحاء . أما ما خلفوه من الآثار المعمارية فقد أذهل الغربيين في العصور السابقة ، وما زال يجلب إلى إسبانيا مئات الآلاف من السياح سنوياً لمشاهدة روائعه في غرناطة وأشبيلية وطليطلة وغيرها .

ومن الطبيعي أن تتأثر اللغة الإسبانية باللغة العربية . ويقرر المتخصصون أن هناك نحو ثلاثة آلاف لفظ إسباني مأخوذ من العربية أو محرف عنها تحريفاً بسيطاً . والأمثلة على ذلك كثيرة ، يشمل

بعضها أسماء الأعلام ، وبعضها الآخر أسماء أشياء شائعة الاستعمال .
فمن أسماء الأعلام Guadalquivir (الوادى الكبير) و Alcala
(القلعة) و Alcazar (القصر) و Alhambra (الحمراء) . ومن
الكلمات العادية aceite (الزيت) و aceituna (الزيتون)
و almacan (المخزن أو المتجر) و almohada (الوسادة أو « المحدة ») .

جاهد الإسبانيون لاسترداد بلادهم من العرب ، وعبأوا أنفسهم
بالتعصب الدينى . ولكن نجاحهم لم يكن نتيجة لتفوق المحارب
الإسباني على المحارب العربى بقدر ما كان مرجعه تفرق كلمة العرب
وما كان بين إماراتهم وممالكهم من تنافس وغيرة . وهكذا سقطت
غرناطة — آخر ممالك العرب فى الأندلس — عام ١٤٩٢ ، قبل تمام
ثمانية قرون على الفتح العربى بتسعة عشر عاماً .

وفى نفس السنة التى غادر العرب فيها إسبانيا تبنت الملكة إيزابلا
مشروع « كولمبس » للوصول إلى الهند بالإبحار غرباً . ومع أن
كولمبس لم يصل إلى الهند إلا أنه كشف عالماً جديداً أتاح للإسبان
أن ينشئوا إمبراطورية ضخمة أثارت حسد غيرها من دول أوروبا .
ويؤخذ على المستعمرين الإسبان قسوتهم فى الإجهاز على حضارات
« الازتك » فى المكسيك و « الانكا » فى بيرو ؛ إذ لم يكن هناك
تكافؤ بين الأسلحة النارية التى كانت فى أيدي الإسبان وبين السهام
البدائية التى كانت سلاح الهنود الحمر . واستطاع الإسبان أن يستغلوا
أسبقيتهم فى الكشف بأن سيطروا على أمريكا الوسطى وتوغلوا

في أمريكا الجنوبية حتى وضعوا أيديهم على جميع النصف الغربي من القارة ، على حين كان البرتغاليون قد تقدموا من الساحل الشرقي واستولوا على بلاد البرازيل الحالية . على أن السياسة الاستعمارية التي اتبعتها إسبانيا في العالم الجديد لم تكن قائمة على أسس اقتصادية سليمة . فقد وجه الإسبانيون معظم اهتمامهم إلى البحث عن المعادن النفيسة كالذهب والفضة التي امتلأت بها سفنهم العائدة إلى إسبانيا وكانت تغرى قراصنة الدول الأخرى - وبخاصة بريطانيا - بأن تهاجمها في عرض المحيط وتستولي على حمولتها النفيسة .

كان التعصب الديني - كما ذكرنا - عاملاً من عوامل التعبئة الروحية للإسبانيين عندما كانوا يحاربون العرب . غير أن المغالاة في هذا الاتجاه أضرت بإسبانيا ضرراً بليغاً ، فقد ظن رجال الدين أن من واجبهم أن يفرضوا مذهبهم بالقوة على سكان البلاد ، ولم تقتصر نعمتهم على غير المسيحيين ، بل كانت تشمل كل من ليس على مذهبهم الكاثوليكي . وهكذا ظهر في إسبانيا ذلك الجهاز الرهيب الذي أطلق عليه « محاكم التفتيش » ، فمخنت حرية العقيدة والفكر ، وتدهور شأن الجامعات الإسبانية على يد أهل البلاد ، بعد أن كانت إسبانيا قبلة علماء أوروبا أيام العرب . وقد تضافر هذا الاعتبار مع اعتبارات أخرى للهبوط بإسبانيا من دولة عظمى إلى دولة منطوية على نفسها ترفض الأخذ بأسباب التقدم ، وتنزل أقسى العقوبات بكل من خرج برأى يخالف رأى الكنيسة .

ويمكن تأريخ بدء أفول نجم إسبانيا بعام ١٥٨٨ الذى أصيب فيه الأسطول الإسباني - « الأرمادا » - بكارثة عندما أرسله فيليب الثانى لتأديب بريطانيا وغزوها . فبالرغم من أن « الأرمادا » كان أضخم أسطول شهده العالم حتى ذلك الوقت ، فقد كانت به عدة عناصر ضعف . فقد عين فيليب قائداً للأسطول لم تكن له خبرة فى الحرب البحرية ، كما أن الأسطول نفسه كان يتألف من وحدات غير متجانسة جمعت من شتى أنحاء الإمبراطورية ، حتى إن عدداً كبيراً من الجنود والبحارة كانوا لا يتكلمون اللغة الإسبانية . وكانت خطة فيليب تعتمد على معاونة جيش إسباني كان معسكراً فى هولندا بقيادة « دوق بارما » ، ولكن الهولنديين الوطنيين حاصروا الساحل ومنعوا خروج هذا الجيش من بلادهم . وانتهت قصة « الأرمادا » بفقد أكثر من نصف السفن التى بدأت بها الحملة ، ولقى عدد كبير من الجنود والبحارة حتفهم ، إما غرقاً فى البحر ، وإما على يد الإيرلنديين عندما اضطرت بعض السفن الإسبانية إلى الرسو فى موانئ إيرلندا . وقد ترتب على هزيمة « الأرمادا » نتائج تاريخية هامة ، إذ ظهرت بريطانيا على أثرها كأقوى دولة بحرية ، وتحكمت فى بحار العالم حتى أوائل القرن العشرين ، كما أن هزيمة إسبانيا ساعدت الهولنديين على استعادة استقلالهم .

وبخروج إسبانيا من ميدان التنافس البحرى خلا الجو لدول غرب أوروبا مثل بريطانيا وفرنسا وهولندا لتقسيم أراضي القارات

الأخرى فيما بينها ، وظهرت إمبراطوريات ضخمة في عهد الاستعمار الحديث . فاصطبغ معظم أمريكا الشمالية بالصبغة البريطانية إلى أن استقلت الولايات المتحدة في أواخر القرن الثامن عشر . واقتسمت الدول الثلاث معظم جنوب وجنوب شرق آسيا ، ثم جاء دور التكالب على أفريقيا في القرن التاسع عشر . وبلغ من ضعف إسبانيا في أوائل ذلك القرن أن جيوش نابليون غزتها واحتلتها بالرغم من وجود أعظم حاجز طبيعي يفصل بين دولتين في أوروبا ؛ وهو جبال البرانس . وقد ساعد الإنجليز - أعداء الإسبانين فيما مضى - على إجلاء الجيوش الفرنسية عن إسبانيا ، لاعتن حب للإسبانين ، بل لكسر شوكة غريمهم نابليون ومنعه من استخدام تلك البلاد كقاعدة له في حروبه ضد الإنجليز وحلفائهم . وفي الوقت الذي كانت بريطانيا تحارب فيه نابليون وتستنكر احتلاله لإسبانيا ، كانت تشجع مستعمرات إسبانيا في أمريكا الجنوبية على الاستقلال وبالفعل نهضت شعوب تلك المستعمرات ضد الحكم الإسباني واستقلت الواحدة تلو الأخرى ، ولم يبق لإسبانيا من أثر في أمريكا الوسطى إلا أن معظم جمهورياتها تتكلم باللغة الإسبانية . ولا شك أن انفصام الصلات القديمة بين إسبانيا ومستعمراتها الأمريكية فتح أبواب تلك الدول الجديدة للتجارة مع بريطانيا وغيرها من الدول الرأسمالية ، بعد أن كانت إسبانيا تكاد تحتكر كل تعامل تجارى معها . وهكذا شهد القرن التاسع عشر تفكك الإمبراطورية الإسبانية التي قامت قبل ذلك بثلاثة قرون ، وكان آخر ما فقدته إسبانيا من مستعمراتها الثمينة جزر الفلبين في شرق آسيا ،

وجزيرة كوبا في جزر الهند الغربية بعد هزيمتها في الحرب الإسبانية الأمريكية عام ١٨٩٨ .

وإذا كانت إسبانيا قد أخذت في الاضمحلال مادياً من قرون مضت فإن ذلك لم يحل دون إسهام العبقرية الإسبانية في مجالات الآداب والفنون . ففي ميدان الأدب يعتبر بعض النقاد قصة « دون كيهوته » (Don Quixote) أروع قصة إنسانية عالمية — يستمتع بقراءتها الصغار لما فيها من مغامرات مثيرة ومضحكة ، كما يستخرج الكبار من دراستها العبر لأن واقع حياة الإنسان لا يكاد يختلف في كثير عما يبدو في القصة من تصرفات جنونية . وفي عصرنا الحديث فاز المؤلف المسرحي الإسباني «خاسنتو بينافنته» (Jacinto Benavente) بجائزة نوبل للأدب عام ١٩٢٢ ، وظهر الشاعر العظيم « فيديريكو لوركا » (Federico Lorca) الذي ترجم كثير من أشعاره إلى لغات شتى . وفي ميدان الفن أنجبت إسبانيا بعض العمالقة ، أمثال «بلاسكث» (Velasquez) و «موريللو» (Murillo) و «جويا» (Goya) و «الجريكو» (El Greco) ، وإن كان الأخير يوناني المولد ، ولكنه قضى معظم حياته في إسبانيا . ثم في العصر الحديث قدمت لنا إسبانيا «بيكاسو» (Picasso) ذلك الفنان الذي أثارت أعماله أكبر جدل في القرن العشرين . وفي الموسيقى يعتبر «دى فايا» (de Falla) من المؤلفين العالميين ، كما أن «بابلو كاسالس» (Pablo Casals) معترف به كأعظم عازف «تشيللو» (Cello) عرفه العالم .

فالشعب الإسباني الذي تغذى بحضارة العرب شعب حى يفخر
بأيام مجد نخلت ، ولكنه لا يقف عند حد البكاء على الماضى ،
بل يعمل على إقامة صرح مجد جديد مبنى على استغلال طاقات البلاد
المادية والبشرية إلى أبعد الحدود ، والإسهام فى مجالات الفكر
الإنسانى الذى لا يتوقف على حجم الدولة أو عدد سكانها ، بل ينبع
من تراث الشعب ومعدن أفراده وعزيمتهم على الماضى فى نواحي
النشاط التى تعود على البشرية بالرخاء والرفاهية .

وهذا الكتاب الذى تقدمه مؤسسة فرانكلين إلى قراء العربية
يصور لنا إسبانيا - ماضيها وحاضرها - بصور غنية فى ألوانها ،
دقيقة فى واقعيتها ، ويصف لنا شعباً صديقاً يجمع بين الحد والمرح ،
بين الكسل (أحياناً) والنشاط الجنونى ، يمزج الفن بدماء أفراده
الذين تتسع قلوبهم لمصادقة كل غريب ، والحفاوة بكل زائر .

الفصل الأول عالم في حد ذاته

إذا نظرت إلى خريطة لإسبانيا لانضح لك بعض ما كان يعنيه تابليون عندما قال إن أوروبا تنتهى عند جبال البرانس. فشبه جزيرة أيبيريا التى تشغل إسبانيا أربعة أخماسها والبرتغال الخمس الآخر ، لا تكون جزءاً من جسم القارة الأوروبية ، بل هى ناتئة منها نحو الجنوب الغربى من جبال البرانس - التى ترتفع كحصون منيعة بينها وبين فرنسا - فتبدو شبه الجزيرة وكأنها سفينة ضخمة تطفو على سطح الماء .

وإسبانيا عالم فى حد ذاته ، عالم منفصم الشخصية ، يجمع بين المتناقضات : بين المرح والكآبة ، والقسوة والكرم ، والجذب والخصب ، والتجمد والحرارة المحرقة . ولسوف تشعر فور وصولك إلى إسبانيا بطبيعتها غير العادية، الغنية بما فيها من تنوع ، سواء أكان وصولك براً من فرنسا إلى إيرون (Irun) على الحدود الفرنسية الإسبانية، أو إلى برشلونة - ملتقى المواصلات الهامة فى الشمال الشرقى ، أو إذا كنت تلقى أول نظرة على البلاد. وأنت تغادر عابرة محيط فى ميناء لاكورونا (La Coruna) فى الشمال الغربى أو ميناء قادس فى الجنوب .

ويقع ميناء أيرون في مقاطعات الباسك - موطن شعب أوروبا الغامض . فإذا سافرت منها بالقطار وأطللت من نافذته فسترى صوراً متحركة لطبيعة تلك البلاد الحميلة الوفيرة بالمياه ، ذات الأودية الضيقة العميقة التي تنحدر على سفوحها الجداول السريعة ، والمساكن القديمة التي شيدتها أصحابها من الحجارة والأخشاب ، ستقطع في سفرتك طرقاً تظللها أشجار الحور والحميز ، وسيقع نظرك على رجال تغطي رؤوسهم « البيرية » (Beret) وهم يفلحون الحقول الشديدة الانحدار . وفي كل قرية أنيقة تمر بها ملعب للعبة البيلوتا (Pelota) - وهي لعبة مثيرة ابتدعها الباسك - تشاهد فيها اللاعبين وكأنهم يتسلقون جدران الملعب سعياً وراء الكرة .

أما إذا غادرت الباخرة في ميناء لاكورونيا فإن الأرض التي تنزل بها جزء من مقاطعة جليقية (Galicia) ، أقصى مقاطعات إسبانيا نحو الشمال الغربي ، وهي أرض الجبال والضباب والأمطار وتذكر الإنسان بأرلندة أو اسكتلنده . وفيها ينمو القمح على ارتفاع كبير على سفوح الجبال ، في حين ينضج نبات الذرة وشجر التفاح في الأودية . وتتفتح أزهار شجيرات ائعضة على التلال بين أشجار الحوز والبلوط والزان ، في حين تمتد مساحات أخرى تغطيها شجيرات الخلنج بأزهارها الأرجوانية .

أما برشلونة فتقع في مقاطعة قطلونية (Catalonia) ، وهي أهم موانئ إسبانيا وأكبر مراكزها التجارية - شوارعها فسيحة ومناظرها

رائعة ، تشاهد بها لافتات الإعلانات الضخمة ، والفنادق الفاخرة ،
والمصانع العديدة ، كآية مدينة أوروبية ناهضة . ولا يوافق القطلالونيون
على ما قاله نابليون من أن أوروبا تنتهى بجبال البرانس ، ويعتقدون
أن الأصوب هو أن يقال إن أوروبا تنتهى إلى الجنوب مباشرة من
قطالونيه . وهم يذكرنا بعلاقتهم الوثيقة بسكان بروفنس (Provence)
فى جنوب فرنسا ، وبالتشابه بين لغتهم القطلالونية ولغة البروفنسال .
فحتى تسمية مقاطعتهم بقطلالونية تسمية أعطاهما لها الفرنسيون فى
العصور الوسطى ومعناها : « أرض القلاع » .

فى للعصور الوسطى كانت قمة كل تل متوجة بقلعة . أما الآن
فقد تحول معظم تلك الحصون القديمة إلى خرائب ما زالت تحتفظ
برونقها . ونراها أحياناً تكون جزءاً من مزرعة ، ولكنها فى الغالب
مهجورة . وتشاهد الماعز وهى ترعى فى صحن تلك القلاع التى كان
الفرسان يخرجون منها فى الأزمنة الحالية ، فى حين تنمو أشجار التين
فى أرض المصليات التى لم تعد لها سقوف تغطيها . وكثيراً ما تحتل
مدن قطلالونية مواقع أقام بها الإغريق أو الرومان أو القوط الغربيون
فىما مضى . وهى مدن تتكون من مجموعات بهيجة من المساكن البيض
التى صبغت نوافذها وأبوابها بألوان خضراء أو زرقاء زاهية .
وتكشف أعمال التنقيب فى قطلالونية وعلى طول ساحل البحر المتوسط
فى إسبانيا عن آثار الماضى — كالزهرىات الإيبيرية ، والمقابر
الفينيقية ، والنقود الإغريقية الرومانية والقوطية ، والآنية الإغريقية
والفسيفساء الرومانى . وتكسو سفوح التلال أشجار الصبار ، وكروم

العنب ، والزيتون ، وبلوط الفلين . أما سكان قطالونية فيتميزون بوسامة وجوهرهم ، ووفرة نشاطهم ، وتذمرهم الدائم من الحكومة .

وفي الجنوب تواجه إسبانيا أفريقيا ، فلا يفصل بينهما سوى مضيق جبل طارق الذى تبلغ سعته ثمانية أميال ، والذى أطلق عليه الإغريق : « أعمدة هر كول السبعة » . وإذا رميت ببصرك ناحية الجنوب من الشاطئ الإسباني فستلوح لك تلال البربر على الأفق .

أما إذا كان دخولك إسبانيا عن طريق ميناء لالينيا (La Linea) أوقادس أو بلنسية (Valencia) فسوف تجد نفسك فى إسبانيا أخرى ، إسبانيا مدارية ذات مناظر براقة تحت الشمس الأفريقية اللافتة ، ووسط قوم سمر الوجوه ذوى قوام أفريقى رشيق . وتذكرنا بلنسية بالعرب وحذقهم لأعمال الرى . فتقع هذه المدينة فى المقاطعة التى سميت باسمها وسط إحدى حدائق العالم اليانعة التى رويت أراضيها منذ آلاف السنين . وعندما تقود سيارتك خلال مزارع البرتقال والخضر وحقول الرز فستمر بقنوات الرى والسواقي التى استعملها العرب أنفسهم ، وسترى مباني عربية فى كل مكان ، كما ستقابل وجوهاً عربية وتسمع كلمات وموسيقى عربية .

ولا يسقط من الأمطار على مقاطعة بلنسية ومقاطعة مرسية (Murcia) المجاورة لها سوى نحو ربع الكمية التى تسقط على جالقية . ويحدثك أهالى مرسية أن الأمطار فى أراضيهم تسقط مرة كل سبع سنوات ، وعندئذ تتسبب عنها الفيضانات العارمة . وهم أيضاً

يقومون برى أراضيهم التي تغل غلة وفيرة ، وتشمل النباتات المدارية التي يزرعونها : القطن ، والموز ، والبرتقال ، والتين ، وقصب السكر ، والزيتون ، واللوز ، والعنب . وفي مدينة التشة (Elche) التي يرجع عهدها إلى الإيبيريين القدماء تنمو أشجار النخيل السامقة ، وهي الوحيدة التي تثمر التمر في أوروبا بكميات تذكر . وما زالت النساء في قرى التلال المنعزلة في تلك المقاطعة يتجمعن حول بئر القرية لملء جرارهن وقد حجبن وجوههن كما كانت تفعل أسلافهن المسلمات من نحو خمسمائة سنة .

وعلى طول الساحل الشرقي لإسبانيا تطل الجبال على البحر ، فيرتفع بعضها من الماء ارتفاعاً يكاد يكون رأسياً ، وبعضها محذب عارى السطح ، في حين تغطي بعضها الآخر أشجار الصنوبر والسرو الجبلي والخرنوب — وهو شجرة من أشجار البحر المتوسط دائمة الخضرة تعطي أزهاراً حمراء . وترتفع المدن فوق الأجوان أو تقبع عند سطح الماء بألوانها البيضاء أو النبيذية أو الوردية ، وقد سقف الكثير من منازلها بالقرميد ، على حين تلمع قباب كنائسها بألوانها الوردية أو الزرقاء الزاهية في السماء المضيئة . ويرجع الكثير من هذه المدن إلى قرون مضت ، مثل خيرونا (Gerona) وطرقونة (Tarragona) ومالقة (Malaga) وقادس وغيرها . وهي مدن شيدت ودمرت ثم أعيد بناؤها في الخمسة والعشرين قرناً الماضية على يد أناس غزوا إسبانيا وتملكوها ثم طردوا بدورهم منها . وما زالت هذه الدورة

— دورة التدمير والإنشاء — تجرى فى إسبانيا فى الوقت الحاضر . فقد تعرضت المدن فى هذه المقاطعة وفى أجزاء إسبانيا الأخرى إلى الحريق والضرب بالقنابل من الأطراف المتنازعة فى أثناء الحرب الأهلية الإسبانية التى استمرت من عام ١٩٣٦ إلى عام ١٩٣٩ ، وما زالت المدن التى دمرت فى سبيلها إلى إعادة البناء .

والأندلس من المقاطعات الحارة، مثلها فى ذلك مثل بلنسية ومرسية وهى تقع إلى الجنوب من جبال سيرا مورينا (Sierra Morena) — أو الجبال المظلمة — التى لا يخترقها سوى عدد قليل جداً من الممرات . وكان الأندلس أرض العرب المفضلة التى احتفظوا بها أطول مدة ممكنة . وترى فيها الكنائس التى كان المسلمون قد حولوها إلى مساجد ، ثم أعيدت إلى كنائس بعد نزوح المسلمين من إسبانيا . والأندلس بلاد مزارع الزيتون والكروم ، كما أنها بلاد الإقطاعيات الكبيرة التى يملكها أفراد قلائل على درجة فاحشة من الثراء ، فى حين يفلحها الجحيم الخفير من الزراع الذين يعيشون فى فقر مدقع . وبالقرب من أشبيلية (Seville) تربي ثيران انصارعة فى أراضي نهر الوادى الكبير المنخفضة . وهو النهر الوحيد فى إسبانيا الذى يصلح مجراه للملاحة لمسافة تتجاوز بضعة أميال . وكانت السفن فى القرن السادس عشر تصل إلى أشبيلية عن طريق نهر الوادى الكبير ودى محملة بنفائس الازتك والانكا من المكسيك وبيرو ، فتفرغ بضائعها على « أرصفة » أشبيلية لتخزن فى البرج الذهبى (Torre De Oro) الواقع

على شاطئ النهر . وما زال هذا البرج قائماً إلى اليوم ، ولكنه يستخدم الآن كمتحف يضم مجموعة من نماذج السفن .

وشراب الشيرى (Sherry) نوع من النبيذ الأندلسي الذي ينحمر من العنب في مزارع الكروم المحيطة بمدينة خيريس دي لا فرونتيرا (Jerez De La Frontera) التي تنبت فيها أشجار النخيل . ونفس كلمة « شيرى » محرفة من اسم المدينة . ويمتلك مزارعو الكروم مستودعات كبيرة ذات حوائط بيض وسقوف حمراء ، يعتقدون فيها الشيرى في براميل ضخمة . وكثير من هؤلاء من الإنجليز الذين كانوا دائماً يقدرون نبيذ الشيرى الإسباني . ويفخر الإسبانيون بهذا النبيذ الحلو المذاق ، ويعرفون السنوات التي كان نتاجها جيداً من السنوات الرديئة النتاج . ومن الوجبات المنعشة التي تمتاز بها إسبانيا تناول الشيرى (الذي قد يكون عمره ستين أو سبعين عاماً) قبيل الغروب مع شطائر من الخبز الأبيض والزبد .

وتزهى مدينة غرناطة (Granada) بقصر الحمراء (Alhambra) — تلك القلعة الحمراء الرائعة التي شيدها المسلمون في القرن الثالث عشر ، وحزنوا أشد الحزن على تركها بعد ذلك بقرنين . وتذكرنا أفنية القصر وغرفته الفسيحة وأبراجه بالعرب الذين كانوا يقيمون فيه ، كما تعيد إلى ذاكرتنا الكاتب الأمريكي واشنطن أرفنج (Washington Irving) الذي عاش فترة بين ربوعه ، وهو بناء مهمل ، وكتب « قصص قصر الحمراء » (Tales of The Alhambra) من واقع

مشاهداته وخیالاته التي جالت بخاطره وهو هناك . وتطل غرناطة على جبال سيرا نيفادا (Sierra Nevada) ، وهي السلاسل الجبلية الإسبانية نحو الجنوب ، وبها قمة مولاسين (Mulhacin) أعلى قمم إسبانيا ، وارتفاعها ١١٤١١ ر قدماً .

وإذا كان الأندلس يقترن في ذهن القارئ بالثيران ، وبالنبيل ، والفجر ، والرقص ، فستستقبل انطباعات إسبانية جديدة في الهضاب الوسطى التي تمتد إلى الشمال من جبال سيرا مورينا . فعندما يخرج بك القطار من الأنفاق والمنحنيات الجبلية ويقع بصرك على أراضى لا مانتشا (La Mancha) شبه القاحلة - التي يربو فيها عدد طواحين هواء دون كيخوته (Don Quixote) على عدد الأشجار - فلعلك تذكر أن إسبانيا ثمانية دول أوروبا من حيث ارتفاع السطح . ففي هذه المقاطعات الوسطى لا تؤثر الجبال في طبيعة الأرض فحسب ، بل في السكان أيضاً . وإذا استقل المرء طائرة فوق مقاطعات ليون (Leon) واكستريمادورا (Extremadura) وقشتالة القديمة والجديدة (Old and New Castile) وأرغون (Aragon) - فإنه سيشاهد شبكة من الهضاب والسلاسل الجبلية ومساحات بيضاء أو رمادية خضراء ، تفصل بينها وبين أراض أخرى في لون الصداً كتل من الجرانيت ذات لون بني أو أرجواني أو أسود . وترتفع قمم هذه الجبال أحياناً إلى عشرة آلاف قدم فتعزل إقليماً عن آخر . ويعيش سكان الهضاب منعزلين كل في إقليمهم ، وتنسم حياتهم بالشدة.

والحرمان والتقتير والهدوء — فلا يختلفون في ذلك عن أجدادهم وأسلافهم . وهم في عزلتهم هذه يحرصون على التمسك بتقاليدهم وطرق معيشتهم القديمة ، وينظرون إلى التقدم نظرة شك وريبة ، كما يستنكرون معظم الآراء الحديثة .

ورغم فقر وسط إسبانيا وقحله ، فهو غني بتقاليده في السيطرة والحكم ؛ فقد نشأ فيه معظم حكام إسبانيا ، وفرض سادة قشتالة إرادتهم على جميع أنحاء البلاد . وتذكرك المدن المضمحلة في كل مكان بماضيها المزدهر وحاضرها البائس ، وتدهشك عظمتها المتداعية وهي تطل على الأراضي المحيطة بها من قمة تل يرتفع عن سطح الهضبة بنحو ألف قدم . وقد احتفظت بعض هذه المدن — مثل مدينة آبله (Avila) بحوائطها السميكة ذات الأبراج العديدة حتى لتبدو من بعد كأنها أشباح مدن . ولبعض تلك المدن — مثل آبله أيضاً — كاتدرائيات محصنة استخدم القسس والجنود فتحات أبراجها لتصويب أسلحتهم النارية البدائية على محاصريهم من المسلمين في القرن الخامس عشر . ويكاد المرء يعيش مع التاريخ وهو يتجول في ظل المنازل الشامخة والحوائط المرتفعة التي تحف بالشوارع الضيقة في بعض المدن ذات الماضي المجيد مثل بورجوس (Burgos) وشقوبية (Segovia) وليون . ويعجب الإنسان للسبعة القرون التي قضتها إسبانيا في استعادة بلادهم من العرب ؛ حصناً حصناً ، ومدينة مدينة ، حتى اكتملت دولتهم مرة أخرى .

الفصل الثاني ظلال من الماضي

عندما تقوم برحلة عبر الطرق الإسبانية القديمة ، حيث يكتنفك الغبار الأسمر صيفاً ، أو الجليد البراق شتاءً ، وتنعم النظر من خلال الأصقاع الخلابية إن سلسلة الجبال الذهبية أو الأرجوانية أو السوداء ، فإنك لاشك سيحفزك الفضول بالنسبة إن الذين سلكوا قبلك هذا الطريق متجشمين عناء القيظ أو قارس البرودة مثلك على نفس المدى البعيد . . . وفجأة . . . سيتنبأك إحساس يق. بأذك محاط بجمع كبير من الأشباح .

والأشباح القديمة بلا وجوه وبلا ظلال واضحة ، لأننا لا نكاد ندري شيئاً عن أهائى شبه الجزيرة الأقدمين . . . فلم يبق من آثارهم بعد ١٥ أو ٢٠ ألف عام سوى النزر اليسير .

وهنا وهناك تقوم هياكل ضخمة يطلق عليها «دولمن» (Dolmen) وهي عبارة عن أحجار على هيئة غرف ربما كانت تستخدم كمدافن ، وتحتوى بعض الكهوف على رسوم ترجع إلى عصور ما قبل التاريخ . وأفضل ما احتفظ لنا به التاريخ كهوف التاميرا (Altamira) فى شمال إسبانيا . وكان مدخلها مغطى بصخور ضخمة لمدة ١٥ ألف عام .

ولعل اكتشافها وفتحها خلال الجزء الأخير من القرن السابق فقط هو السبب في عدم زوال ألوانها الحمراء ، والسوداء ، والرمادية ، التي رسمها الفنانون في عصر ما قبل التاريخ بمزج الشحم بالفحم الخشبي والفلين وخام الحديد . وما زال من الممكن رؤية الثيران القديمة والحيول والخنازير البرية والغزلان التي رسموها على سقف الكهف وجدرانها بوضوح وهي تركض ملوحة ببرائتها حتى إنها لتبدو أقرب ما تكون إلى الحياة . .

وبعد هؤلاء الفنانين القدامى جاء الأيبيريون (الذين أطلق اسمهم على شبه الجزيرة التي تضم البرتغال وإسبانيا فأصبحت تسمى شبه جزيرة أيبيريا) ونحن نعرف عنهم أكثر قليلا مما نعرف عن سابقينهم . فمن المحتمل أنهم كانوا من أهل البادية في صحارى شمال أفريقيا الذين جاءوا إلى إسبانيا عبر ممر برى كان يغطى مياه مضيق جبل طارق الذى يفصل أفريقيا عن إسبانيا . . وربما استقر الأيبيريون — نحو عام ٢٥٠٠ ق.م — على شاطئ البحر المتوسط بين جنوبي إسبانيا وجبال البرانس في الشمال . وتصورهم كتاباتهم ورسومهم على الأواني القديمة كرجال أشداء صغرى الأجسام ، مستطيلي الوجوه ، ذوى أنوف كبيرة وذقون غائرة إلى حد ما . وكثير من المناظر المرسومة على الأواني تعبر عنهم في صيدهم للحيوانات المفترسة . . وتصورهم مناظر أخرى وهم يتقاتلون فيما بينهم — على الأقدام ، أو على ظهور الخيل ، أو على ظهور السفن .

ومن هذه الوثائق نستنتج أنهم كانوا قوماً مستقلين ، سُرسَ الطباع ، يجيدون فنون الصيد والحرب .

ونحو عام ٦٠٠ ق.م انحدرت سلالة أخرى — هي جماعة السلت (Celts) من فرنسا على إسبانيا إلى أن منعهم جبال سيرا مورينا في الجزء الجنوبي من التقدم أبعد من ذلك .

وقد كانوا قوماً رعويين ذوى ثقافة محدودة ، فلم يبنوا أية مدن على الإطلاق على مر الأجيال ، أو يتركوا أية آثار في إسبانيا وقد علمنا من مصادر أخرى أنهم كانوا أقوياء البنية ، ذوى أنوف حادة ، وبشرة تميل إلى البياض ، وشعور شقراء أو حمراء في الغالب ، وقد احتفظ أهل جليقية الذين انحدروا منهم بهذه الخصائص العنصرية ، وإلى جانب هذه المميزات العنصرية فإن الشعب السلتي لم يترك لإسبانيا سوى كلمات قليلة تسالت بتواضع في اللغة الإسبانية . أسماء لأشياء بسيطة : مثل Watercress (الخرجير) و Kettle (غلاية) و Lard (شحم الخنزير) .

وعلى مر الأجيال عاش العنصران السلتي والأيبيري جنباً إلى جنب ، وغالباً ما كانا يتقاتلان مغيرين بين الفينة والفينة عبر ممرات الجبال . وأحياناً كانا يعيشان في سلام . وتدرجياً وخلال امتزاجهما وتزواجهما فيما بينهما أصبحا شعباً واحداً تقريباً — يطلق عليه اسم السلالة السلتيبيرية (Celtiberians) . وقد انتشر هؤلاء في شبه الجزيرة وكونوا العنصر الأساسى الذى ينحدر منه الشعب الإسباني .

مر — ٣ إسبانيا : شعبها وأرضها

وبمرور الزمن ظهرت شعوب أخرى كان أولها الفينيقيون والإغريق من شاطئ آسيا الصغرى . وقد كانوا تجاراً كثيرى التجوال فى البحار ، وقادوا سفنهم الخفيفة عبر الطريق المائى من موطنهم ، وانتشرت تجارتهم فى كثير من مناطق البحر المتوسط . وقد جاءوا إلى إسبانيا كما كانوا يذهبون فى كل مكان . . لا للإقامة والاستقرار ، بل لاستخراج كنوز الأرض فقط والحصول على الذهب والفضة والنحاس والرصاص من المناجم الإسبانية .

وبالرغم من ذلك فقد ترك كل من هذين الشعبين أثره واضحاً فى إسبانيا .

وقد كان الطابع الفينيقى أقل من الإغريق ، ولكن أمكن العثور على آثارهم . فهناك بعض الدماء الفينيقية تجرى فى عروق الإسبان اليوم . . فحاسة الفينيقين بالإيقاع تغلغت فى الرقص الإسباني . . وكان مما أحضروه معهم فن صياغة المعادن الذى تعلمه الأيبيريون منهم . وقد نثر ضمن مخلفاتهم أحياناً على سلسلة ذهبية ضخمة مرصعة بالكهرمان أو أساور على هيئة رأس الأفعى . . بالقرب من جدار متداع أو مقبرة خربة .

وقد أسس الفينيقيون مدينتى قادس ومالقة ، ولكنهم بعد أجيال قليلة غادروا البلاد نهائياً بحمولاتهم من الذهب الإسباني ومراسيمهم المصنوعة من الفضة الإسبانية .

أما الإغريق فقد تركوا من الآثار أكثر مما خلفه الفينيقيون .
وتدين إسبانيا وبقية العالم بالأساطير القديمة وبأول ما سطره الإنسان
عن « الأرض الخرافية الواقعة بعيداً إلى الغرب » .

وقد جاب البحارة الإغريق المضيق الذى تكشف عندما اختفى
الممر البرى بين إسبانيا وشمال أفريقيا . . . والذى أطلق عليه الإغريق
اسم بطلهم الأسطورى هركول ، والذى نسميه الآن مضيق جبل
طارق . وعندئذ أبحروا عائدين إلى موطنهم بأقاصيص أثارت
شعراءهم فنظموا الأغاني وكتبوا عن شواطئ المحيط الهائج الجبار
الذى يقع فيما وراء المضيق .

وقد حكوا لمستمعهم أيضاً عن طرطوسة (Tartessos) ، تلك
المدينة المسورة العجيبة التى يجرى بالقرب منها نهر فضى ، التى كان
سكانها الموسرون يستبدلون بمعادنها النفيسة ما يجلبه الإغريق من نبيذ
ونخوذات وأوان من الفخار .

وقد أمكن العثور على آثار الفن الإغريقى فى إسبانيا . ويبدو أثر
الفن الإغريقى واضحاً فى الأصص « الزهريات » الحميلة الصنع . .
والتماثيل البرونزية الصغيرة التى وجدت فى أضرحة أييرية ، أو فى
بعض التماثيل التى يعثر عليها أحياناً والتى نحتها مثالون أييريون .
وأجمل تماثيل عثر عليه حتى الآن هو ذلك الذى وجد بالقرب من التشة
— مدينة النخيل الواقعة على البحر المتوسط — وهو عبارة عن تماثيل

نصفي لامرأة شابة ، يظن أنها كاهنة أيبيرية ، ويعكس التمثال المذاهب والأفكار الفنية لمختلف الغزاة في إسبانيا . .

ويقول الخبراء إن غطاء رأسها الثقيل الغريب أيبيرى وحليها البدائية الصنع فينيقية ، ولكنهم يجمعون على أن صنع التمثال نفسه يتم عن تأثير إغريقى قوى .

وفي متحف برادو (Prado) بمدريد تستطيع أن تشاهد تمثال « سيدة التشة » كما يسمى هذا التمثال . وإذا أطلعك شخص على ورقة مالية إسبانية من فئة « البيزيتا » فستشاهد صورتها مطبوعة عليها .

وبعد الإغريق والفينيقيين جاء القرطاجنيون ، وكان محيئهم للإقامة والاستقرار . وقد وفد القرطاجنيون من شمال أفريقيا ، ويرجع أصلهم إلى نفس السلالة التى ينتمى إليها الأيبيريون ، وربما كان ذلك سبباً فى أن غزوهم كان على وجه العموم سلمياً فى حملته . ولكن لا بد أنهم التحموا بأهل طرطوسة ، ربما لصداقتها للإغريق الذين كانوا أعداء للقرطاجنيين . وعلى أية حال فقد دمروا طرطوسة تدميراً شاملاً بحيث زالت جميع معالمها ، كما أصبحت الشواطئ الجنوبية لإسبانيا — عقب انتصار القرطاجنيين — محرمة على الإغريق ، فأخذ القرطاجنيون فى استغلال مناجمها وحمل كنوزها ، وإنك ترى بقايا هذه المناجم حتى اليوم فى مقاطعة مرسية .

وقد كانت القوة البشرية الإسبانية أنفُس كثيراً من المعادن التى حصلوا عليها . فقد أصبحت أحلام القرطاجنيين حقيقة واقعة ،

لأن رجال القبائل الشرس من السكان الأقدمين من السلتيبيريين كانوا على أهبة الاستعداد لبيع خدماتهم في المهنة المفضلة لديهم وهي الحرب. وقد كان السكان الأقدمون يعيشون على قطع الطرق وحرب العصابات ، وقدمت لهم جيوش قرطاجنة طريقة مثلى لمشاهدة العالم . فعندما زحف هانيبال (٢١٨ - ٢١٦ ق.م) قائد القرطاجنيين مخترقاً إسبانيا وفرنسا ، ثم انحدر على إيطاليا من جبال الألب في محاولته الفاشلة للاستيلاء على روما ، كان مشاة الأيبيريين وفرسان الأندلس يؤلفون عماد جيشه العظيم .

وقد ساد الوئام بين القرطاجنيين والأيبيريين وتزاوجوا فيما بينهم وأصبحت لهم غاية مشتركة واحدة . ويجوز لنا أن نتحدث عن العنصر « القرطاسلتيبيري » (Cartha-Celtiberians) إذا أردنا أن نخترع اسماً ذا رنين علمي لنصف به سكان شبه الجزيرة عندما دهمها الرومان بعد نحو عشرة أعوام من حملة هانيبال المشثومة على إيطاليا . ولهذا السبب فقد كان طرد الرومان لقوات قرطاجنة من إسبانيا عام ٢٠٥ ق.م حادثاً مريباً لأهالي شبه الجزيرة الذين قاموا بالثورة عندما أراد الرومان فرض حكمهم عليهم .. وقد تكررت ثوراتهم واتسمت بالشراسة إلى درجة أن الجنود الرومانيين كانوا يخشون أداء الخدمة في إسبانيا ، وقد تمرد فيلق روماني في إحدى المرات عند سماعه بأنه قد تقرر إرساله إلى إسبانيا .

استمرت مقاومة الإسبان ١٥٠ عاماً ، ولم يحمده أوارها إلا قرب

اسبانيا : شعبها وارضها

نهاية القرن الأول قبل الميلاد ، عندما خضع رجال القبائل الهمج الذين جاءوا من الداخل لحكم القانون الروماني وأذعنوا للسلطات الرومانية . وأخيراً أصبحت فرنسا إقليماً متحداً وولاية رومانية شديدة الولاء لروما ، وجاء عليها وقت كانت فيه أكثر بلاد الإمبراطورية تشبعا بمظاهر الحياة الرومانية خارج إيطاليا نفسها . لقد غيرت روما مجرى التاريخ الإسباني . . فأزالت من حياة الإسبان ما كانوا قد اكتسبوه من معالم أفريقيا ، وجعلت من إسبانيا وحدة سياسية أوروبية . وقد قام الرومان بأعمال معمارية على نطاق واسع في شبه الجزيرة ، وما زالت هناك آثار كثيرة لهم تم عن إقامتهم الطويلة ، ويقال إنه كان هناك أكثر من ٨٠٠ مدينة رومانية في إسبانيا : مدن ذات شوارع بديعة . . ومنازل جميلة (ذات تدفئة مركزية) تستخدمها مجار عامة وتحميها من الخارج أسوار قوية . فمدينة طرغونة التي كانت حاضرة رومانية عظيمة على الساحل الشرقي كانت تحيط بها أسوار ضخمة طولها ٤٠ ميلا . وكانت شبه الجزيرة مغطاة بشبكة من الطرق الجيدة ، وإنك لتجد جسوراً (كبارى) رومانية في أماكن عديدة تعبر مجارى الأنهار ، وما زال الأهالي يستخدمونها إلى اليوم . وقد أسفرت أعمال التنقيب في المدينة الرومانية القديمة « إيطاليكا » (Italica) بالقرب من أشبيلية عن العثور على أرضيات مغطاة بالفسيفساء الرائعة في الفيلات الرومانية . وكذلك عثر على مسرح روماني يتسع لـ ٥٠٠٠ شخص ، بالإضافة إلى أطلال مدرج

كبير . . في مدينة ماردة (Merida) في مقاطعة « اكستريمادورا » بالقرب من الحدود البرتغالية . وفي ماردة أيضاً أسفرت أعمال التنقيب عن أنقاض جسر مائى (سد) بنى في عهد الرومان . أما مدينة شقوبية التى تقع على بعد ٦٠ ميلاً شمال غربى مدريد فإن بها أعظم آثار العمارة الرومانية على الإطلاق فى إسبانيا ، ممثلة فى سدودها المائية الهائلة التى شيدت من أحجار الجرانيت الصاعدة والتى تحتوى على ١٢٨ قوساً معمارية ضخمة . وما زال هذا السد بعد ١٨٠٠ سنة من تشييده يجلب المياه إلى المدينة من الجبال التى تبعد عنها عشرة أميال .

وقد أعطت روما للإسبان ثلاث لغات . . القطالونية والبرتغالية والإسبانية . . وقد بدأت هذه اللغات كلها كلهجات محرفة عن اللاتينية ، ثم تطورت على مدى الأجيال بتهذيبها وصقلها وكونت لغات مستقلة . أما اللغة القطالونية فبالرغم من ماضيها المجيد وما تثيره من المشاعر الوطنية فى نفوس الإسبان فقد أصبحت أثراً ثميناً من آثار الماضي .

أما اللغة البرتغالية (التى تتداول فى البرتغال بالطبع) فإنها توجد فى إسبانيا كلهجة محلية فقط — بين أهالى جليقية فى الشمال الغربى .

وأما اللغة الإسبانية أو لغة قشتالة ، وهى اللغة القومية فتتميز بموسيقاها ورقها وبالعديد من الألفاظ العربية التى دخلت فيها فزودتها ببروة لغوية عظيمة .

وقد ردت إسبانيا دينها الثقافى لروما فى صور شتى . . فقد استغل الرومان المناجم الإسبانية طيلة إقامتهم فى البلاد ، كما استغلوا موقع إسبانيا الاستراتيجى على البحر المتوسط وشجاعة المقاتلين الإسبان .

ولم يقف الأمر عند هذه الاعتبارات المادية ، بل إن روما استمدت من إسبانيا مجدداً أدبياً وسياسياً . فقد نظم الكتاب الإسبان عدداً من أفضل الأشعار اللاتينية والمسرحيات أو مؤلفات الفلسفة والتاريخ . كما أن سبعة من أباطرة الرومان كانوا من أصل إسباني . ومن الطبيعى أن مصير إسبانيا التاريخى كان مرتبطاً بمصير روما ذاتها ، فى القرن الخامس الميلادى كانت الجموع الجرمانية قد أخذت تهاجم أطراف الإمبراطورية الرومانية وتعيث فيها فساداً . وما لبثت هذه القبائل أن انقضت على إسبانيا التى خلت من المحاربين ، لأن المحاربين الإسبان كانوا يحرسون الممتلكات الرومانية المتداعية فى بريطانيا وشمال أفريقيا وإيطاليا .

وهكذا سقطت المدن الإسبانية المزدهرة مثل قرطبة وأشبيلية وطرقونة (التى كان عدد سكانها يفوق أية مدينة أخرى فى إيطاليا باستثناء روما نفسها) بدون أى مقاومة للغزاة .

وبمجيئ الجموع الجرمانية الهمجية — وكانوا قوماً شقراً طوال القامة — تدفقت قبائلهم فى البلاد متخذين من الطرق الرومانية المعبدة وسيلة سهلة للانتقال . وما لبثت أن ظهرت من بينهم قبيلة « القوط

الغربيين « التي سادت البلاد وحكمتها . وقد تعرضت إسبانيا في الفترة الأولى من حكمهم لأعمال القتل والنهب والسلب فانتشر المرض والبؤس . . ولكنهم تأثروا بعد ذلك بدمائة القوم المحكومين وثقافتهم فتحولوا إلى حكام ضعفاء لينى القناة . ثم إن الإسبان - وهم أنفسهم خليط من القرطاجنيين والسلتيبيين والرومان - تراوجوا مع القوط الغربيين ، وبمرور الوقت امثل الغزاة والمحكومون لنفس القوانين ، وتعبدوا في نفس الكنائس ، معترفين بالرياسة الروحية للبابا في روما . وكانوا يتحدثون باللاتينية التي أصبحت على مرور الأعوام إسبانية .

ومع ذلك فلم يكن باستطاعة القوط الغربيين أن يجيدوا حكم رعاياهم . بل إنهم عجزوا عن حل مشكلاتهم وتصفية ضغائنهم العائلية المستحكمة ، فأدى ذلك إلى فقر الشعب وتدمره ، وإلى انقسام الأسرة المالكة بما استحكم من العداء بين أفرادها ، بحيث أصبحت البلاد عاجزة عن مجابهة عاصفة الغزو الإسلامي الذي كان يهددها .

لم يكن قد مضى قرن على رسالة الإسلام ، ومع ذلك فقد استطاع المسلمون بقوة إيمانهم أن يفتحوا فلسطين وسوريا ومصر وشمال أفريقيا ناشرين الدعوة حيثما حلوا . . وهناك في شمال أفريقيا وقفوا يتطلعون إلى إسبانيا .

وفي عام ٧١١ م حين كان المسلمون في شمال أفريقيا يعدون عدتهم قبل الانقضاض على إسبانيا كان رودريك^(١) ملكاً على القوط

(١) أطلق عليه العرب اسم « لذريق » .

الغريبين ، وقد اغتصب العرش بعد عزله الملك السابق وتيزة (Witiza) أو « غيطشة » كما يسميه العرب ، وعاقب أبناءه الذين هربوا إلى شمال إفريقيا طالبين النجدة ضده . وكذلك جعل من الكونت جوليان حاكم ميناء سبتة حصناً قوياً . وتقع سبتة على الشاطئ الأفريقي عبر المضيق من إسبانيا . وبانضمامه إلى المكيدة التي دبرها أبناء الملك السابق غيطشة ضد لذريق سلم سبتة إلى المسلمين الذين استخدموها قاعدة لحملتهم ضد إسبانيا .

وقد قاد (الشيخ) طارق بن زياد الفرقة الأولى من الفاتحين التي رست على الصخرة الهائلة التي تحمي الطرف الجنوبي لإسبانيا هزم الحامية القوطية هناك ، وقد أطلق طارق اسمه على هذه الصخرة فأصبحت صخرة طارق ، أو جبل طارق ، الذي حرف إلى Gibraltar في اللغات الأوروبية .

وبالرغم من أن لذريق قام على رأس جيش قوامه ٨٠ ألفاً لرد الغزاة ، فإن معظم جنوده كانوا من العبيد ، يحاربون على الأقدام مسلحين بالمقاليع والأقواس والسهام .

أما جيش طارق فقد كان يتألف من ١٢ ألفاً من المحاربين معظمهم من الفرسان المسلمين جيئاً . وخلال أسبوع من المعارك المستمرة . . أخذ القوط الغربيون يتقهقرون إلى أن هزموا عند نهر « برباط » (Guadalete) جنوبي إسبانيا على بعد أميال قليلة من مصبه في المحيط الأطلنطي . أما مصير لذريق فما زال غير مؤكد :

فالأهازيج الإسبانية القديمة جعلته يختفى من ميدان المعركة (مخلفاً) خفيه (صندله) الذهبيين المرصعين بالزمرد على شاطئ النهر ، ثم يظهر ثانية لمواصلة القتال في معركة أخرى .

أما المؤرخون المسلمون فيذكرون أنه قد قتل ، وأن طارقاً أرسل رأسه محفوظاً في الكافور - كتذكار للانتصار - إلى مكة مدينة المسلمين المقدسة في الحجاز .

وانضم إلى الكونت جوليان وأبناء الملك غيطشة حلفاء آخرون في حملتهم ضد لذريق ، وهم اليهود الإسبان الذين تواطأوا ضد القوط الغربيين على أمل النخلص من طغيانهم . .

وقد أقام اليهود في إسبانيا منذ ١٤٠٠ عام على الأقل ، وتقول الروايات اليهودية القديمة إن اليهود أقاموا بإسبانيا التي يسمونها « سيفاردا » (Sepharda) في عصر ما قبل التاريخ .

ومع أن هذه الادعاءات ينتقصها الدليل إلا أنه من الجائز أن نفرأ من اليهود قدموا إلى إسبانيا مع الفينيقيين قبل ميلاد السيد المسيح بستائة أو سبعمائة سنة . ومن المعروف أن بعض الجاليات اليهودية ازدهرت في المدن التجارية الساحلية . وقد تساهل الرومان مع اليهود في إسبانيا وسمحوا بازدياد قوتهم ونمو ثرواتهم وتملكهم للعبيد والمنازل ومزارع الكروم والزيتون . وعلى أية حال فمع بداية حكم القوط الغربيين اختفى رخاء اليهود وتهددتهم الأخطار ؛ ففي القرن السابع أمر أحد ملوك القوط اليهود بالارتداد عن دينهم واعتناق

المسيحية ، مع استخدام القوة إذا لزم الأمر ، وقد جلبت عليهم
مقاومتهم أفظع أنواع الانتقام . فليس غريباً لذلك أنهم كانوا منلهفين
في القرن الثامن للانضمام إلى القوات الإسلامية ضد التموط الغربيين .
وقد بدا لهم طارق وقواته كأنما أرسلتهم السماء لتحريرهم من
الاستعباد .

الفصل الثالث العرب

فيما بين عامي ٧١١ و ٧١٨ ميلادية اكتسح المسلمون شبه الجزيرة وفتحوا جميع أجزائها ، باستثناء نطاق صغير في الشمال اتخذ منه الإسبان الذين لم يستسلموا مأوى لهم ، فكانوا يختبئون في الكهوف والأودية ، كما لو كانوا من المطاردين الخارجين على القانون .

ومع أن طارقاً هو الذي بدأ الفتح ، فإن أطيّب ثمار ذلك الفتح لم تكن من نصيبه هو وأتباعه لأن ، موسى بن نصير الذي كان يتولى القيادة العامة لشمال أفريقيا ، والذي كان طارق من مواليه ، ما لبث أن توجه في أعقابهم إلى إسبانيا ، فأمر طارقاً وقواته أن يتخذوا مقرهم في المناطق الجبلية والهضاب القاحلة في الوسط والشمال - حيث الحدود التي يهددها الأعداء - واحتفظ موسى لنفسه بالجزء الجنوبي من إسبانيا ، وهو الإقليم الذي كان مفضلاً عند المسلمين على الدوام ، والذي وصفه موسى بأنه مثل سوريا في روعة أرضه وسمائه ، وكاليمن في بديع طقسه ، وكالهند في عطورها وأزهارها ، وكمصر في فاكهتها وثمارها ، وكالصين في كنوزها المعدنية .

وتطلق كلمة المغاربة (Moors) بصفة عامة على جميع مسلمي إسبانيا

ولكن هذه التسمية ليست كاملة الدقة . فالمغربي (Moor) هو المسلم العربي الذي تمثله قبائل البربر في شمال أفريقيا ، في حين أن الفاتحين المسلمين كانوا يضمون في صفوفهم جماعات من عرب الشرق — من اليمن وبلاد العرب (الحجاز ونجد) وسوريا . وكان الفرنجة يطلقون على هؤلاء اسم (Saracens)، وكان طارق مغربياً ، وموسى من عرب الشرق . وكان بينهما تنافس أحياناً يصل إلى درجة العداء المرير . ويوضح لنا هذا الانقسام بين المغاربة وعرب الشرق بعض السبب في عدم استطاعة المسلمين بعد انتصاراتهم الحربية في إسبانيا أن يقيموا فيها دولة هادئة مستقرة على طول الزمن . ولم يقتصر الأمر على ما كان بين المغاربة وعرب الشرق من عداء ، بل إن كل طائفة كانت ممزقة في داخلها بما يوجد بين أفرادها من منافسات حادة وضغائن ثأرية ، وبذلك لم يكن هناك مجال لقيام حكومة مركزية قوية ، لشدة تعصب كل من المغاربة وعرب الشرق لاستقلالهم ، ولأنهم كانوا لا يدينون بالولاء إلا للزعيم المحلي أو لرئيس القبيلة . فلم تكن دولة المسلمين في إسبانيا إلا نسيجاً واهياً من الولايات يعرضه أى لمس إلى التمزق .

ولعله من حسن حظ الإسبان ، ومما ساعدهم على الاحتفاظ بعاداتهم وتقاليدهم ، أن العرب الشرقيين كانوا أول من تحكم في ميزان القوى في شبه الجزيرة ، وظلت مقاليد الأمور في يدهم عدة قرون . ويختلف هؤلاء العرب المثقفون عن البربر بما حباهم الله به

من ملكة الشعر وحب الجمال وتقدير العلم والتسامح الديني ، مما حول إسبانيا في عهدهم إلى دولة على درجة رفيعة من الثقافة والرقى . وعمر السنين خضع البربر أنفسهم لسحر تلك الحياة الهادئة الجميلة ، وأخذوا ينافسون العرب في بناء المساجد والقصور وجمع الكتب وإحاطة أنفسهم بكل وسائل الترف ومظاهر الجمال .

ويبرز اسم عبد الرحمن الأول من القائمة الطويلة المعقدة لأسماء حكام إسبانيا من العرب .

كان عبد الرحمن حاكماً ذكياً ، أدخل كثيراً من الصناعات في البلاد وشجعها ، كصناعات الحرير ، والورق ، وتطعيم الصلب بالذهب والفضة — وهي صناعة دقيقة عرفت باسم « الفن الدمشقي » (Damascene) وما زالت تمارس في إسبانيا . كما ازدهرت صناعة الخلود التي نسبت إلى قرطبة . واهتم عبد الرحمن أيضاً بالزراعة ، فأدخل أشجار الموز ، وقصب السكر ، والقطن ، ونخيل التمر ، في الأندلس . ويقال إنه زرع أول نخلة تثمر تمراً في إسبانيا في حديقة قصره . وكان يعتبر فلاحه البساتين من الفنون الجميلة ، تشهد بذلك حدائقه التي كانت مثال الروعة في أزهارها ، وظلالها ، ومساقبها .

وأظهر عبد الرحمن اهتماماً بالغاً بأعمال البناء ، فقام بإصلاح الطرق ومساقب المياه الرومانية وصيانتها . وفي أثناء حكمه ارتفعت في سماء الأندلس قصور جديدة ومساجد عدة بما ذنها الرشيقة وجدرانها الضخمة السميكية . وفي عام ٧٨٦ — في أواخر أيامه —

شرع في بناء مسجد قرطبة الشهير الذي وضع تصميمه بنفسه ، وكان يشارك العمال في عملهم لمدة ساعة على الأقل كل يوم حتى وافته المنية . وما زال مسجد قرطبة قائماً حتى يومنا هذا ، وبالرغم من بناء كنيسة مسيحية بداخله فإن ما بقي من آثار المسجد يكفي لأن يثير في نفس المشاهد إحساساً بروعة الفن الشرقي وجماله . فهناك أكثر من ثمانمائة من الأعمدة التي نحتت من المرمر أو الجرانيت أو الحجر الرملي أو غيرها من أحجار الزينة (بل إن أحدها من حجر يعطى رائحة الفسفور) ، وانتشرت هذه الأعمدة في صفوف طويلة تحمل عقوداً تتدلى منها مصابيح من النحاس أو البرونز أو الفضة . وقد جمعت تلك الأعمدة من مبان رومانية في مختلف أنحاء إسبانيا وجنوبي فرنسا ، وحملها العرب الفاتحون إلى قرطبة .

وفي ساحة ذلك المسجد العظيم حيث يفوح شذا زهر أشجار البرتقال في الهواء الدافئ العليل ، يمكنك دون عناء أن تتخيل تلك الأيام الرائعة التي شهدتها إسبانيا تحت حكم المسلمين ، حين كان النبلاء يشيدون قصورهم ذات الجدران السميكّة وقد تحلّت أبوابها بالعقود المستديرة التي تحاكي « حدوة » الفرس . أما غرفها في الداخل فقد كانت أرضيتها وجدرانها تزدان ببلاط القرميد ، ويفصل كل حجرة عن الأخرى حائط رقيق من الحجر المثقوب بأشكال هندسية بدیعة . وكانت الأزهار تتفتح في صحن القصور المغطاة بفسيفساء من المرمر ، بينما يسمع الزائر هدير المياه الجارية . في هذا الجو كان النبلاء يستمعون إلى الموسيقى ويقرءون الشعر وينظمونه ، ويتناقشون

فى الفلسفة اليونانية ، ومحاولون التنبؤ بالمستقبل بما عرفوه من علم
الفلك وأوضاع النجوم ، كما كانوا يمارسون الكيمياء بغية التوصل
إلى حجر الفلاسفة — الذى كان يسود الاعتقاد أنه يحول أى معدن
نحاس إلى معدن الذهب . وهنا أيضاً جمع العرب المكتبات العظيمة
التي أثارت حسد الأوروبيين ، وكان عددها سبعين مكتبة فى
الأندلس ومقاطعة مرسية المجاورة لها ، من بينها مكتبة واحدة تمتلكها
إحدى كبار الأسر تضم خمسمائة ألف كتاب .

وقد يقال إن هؤلاء العلماء المسلمين قد انحرفوا بعلم الكيمياء إلى
شعوذة كيموية ، وبعلم الفلك إلى التنجيم ، غير أننا لا نستطيع أن
نصف جميع أعمالهم ودراساتهم العلمية بالتفاهة والعقم ؛ فقد تركوا
لنا كثيراً من البحوث العلمية القيمة فى موضوعات هامة مثل الرى ،
وتطعيم النبات ، وتربية الخيل والماشية . وما زالت بساتين الفاكهة
ومزارع الخضر المنتشرة فى جنوب إسبانيا وشرقها تحتفظ بهذه
الذكرى النضرة بعد مرور ألف عام . وجدير بنا — نحن المتكلمين
بالإنجليزية — أن نعرف بديننا للعرب عندما نستخدم بعض الكلمات
التي أتت من لغتهم مثل Zenith (السمت) و Nadir (النظير)
و Alchemy (الكيمياء) و Algebra (الجبر) و Alcohol (الكحول)
و Cotton (القطن) و Artichoke (الحرشوف) و Apricot
(المشمش) — وقد اشتقت أصلاً من البرقوق .

وفى يومنا هذا ، كثيراً ما يتصرف الإسبان بالفعل أو بالقول.

وهم لا يدرون أنهم إنما يتبعون عادات عربية قديمة . فعندما يحيلك إسباني ، تزوره في منزله للمرة الأولى ، بقوله (Esta en su Casa) (أنت في بيتك) ، أو عندما تبدى إعجابك بساعة صديقك أو بسيارته أو بحلته الحديدية فيرد عليك (Esta a su Disposicion) (إنها تحت تصرفك) ، فإن صديقك الإسباني إنما يردد عبارات المجاملة المهذبة التي كان استعمالها شائعاً من ألف سنة مضت . وعندما يسترعى سمعك صياح مواطن إسباني قد أخذه الإعجاب براقصة أو مغنية فصار يردد : "Ole, Ole" ، فتأكد أنه إنما يحرف ما كان يردده العرب في نفس الموقف من : « الله ، الله ، هذا شيء جميل » .

وفي خلال الأربعمئة السنة الأولى من حكم العرب لإسبانيا — أي ما يقرب من نصف مدة إقامتهم في البلاد — كانت معاملتهم للإسبان أرفق وأرحم معاملة لقيها شعب مهزوم على يد فاتحيه . فبالرغم من أنهم كانوا ينظرون إلى الإسبان باحتقار ويعتبرونهم سذجاً جهلاء قذرين ، فقد كان العرب متسامحين مع رعاياهم ، (وسرعان ما أنشأوا الحمامات العامة في جميع المدن حتى الصغير منها كي تعم فائدتها جميع الشعب) . فمن النادر أن نجدهم يحثون المسيحيين أو اليهود على اعتناق الإسلام . وقد فسر بعض الكتاب هذا التسامح تفسيراً يفقده الباعث الإنساني ، فقالوا إن الحكام كانوا يفكرون في الضرائب العالية التي تجبى من المسيحيين واليهود والتي لم يكن المسلمون يؤدونها ، فكان هؤلاء الحكام يفضلون الضرائب الدسمة على أن يعتنق الإسلام قلة من أهل الكتاب .

وفي القرون الأربعة الأولى من حكم العرب لإسبانيا تمتع اليهود بالحياة الرغدة التي كانوا ينعمون بها من قبل في تلك البلاد ؛ فقد شاركوا المسلمين في اهتمامهم بالعلوم والحياة الفكرية ، واشتهر من بين اليهود عدد من المؤرخين والأطباء والفلاسفة والصيارفة الذين كانوا موضع تكريم في المدن العربية ، كما بلغ بعض الساسة اليهود مناصب مرموقة في أكثر من ولاية عربية .

أما المسيحيون فظلوا خاضعين لقوانينهم تحت الحكم العربي : يحاكمهم قضاة من بينهم ، ويتولى قسمهم النواحي الروحية من حياتهم . وكانوا يتعبدون في كنائسهم الخاصة ، فإذا لم تكن لهم كنيسة كان يسمح لهم بإقامة محراب في النصف الغربي من مسجد قريب منهم ، لأن المسلمين كانوا يحتفظون دائماً بالقسم الشرقي من المسجد لإقامة شعائرهم الدينية . (لأن اتجاه القبلة نحو الشرق) .

وقد سمي وعابا المسلمين من المسيحيين باسم « المستعربين » (Mozarabs) وبمرور السنين اتخذت عادات المستعربين ونظرتهم إلى الحياة صبغة شرقية ؛ لأن المؤثرات المسيحية التي استطاعت أن تخرق ذلك الجو الإسلامي الذي كانوا يعيشون فيه كانت قليلة جداً . وقد تحول بعض المستعربين عن ديانتهم المسيحية إلى الإسلام ، ولكن الأغلبية تمسكت بعقيدتها الكاثوليكية عبر القرون . ولما كانت اللغة العربية هي اللغة الوحيدة المستعملة في البلاد ، فقد نسي المستعربون لغتهم ذات الأصل اللاتيني ، وأصبح من الضروري أن يترجم الإنجيل من أجلهم إلى اللغة العربية .

وعندما استولى ألفونسو السادس (ملك قشتالة المسيحي) على مدينة طليطلة عام ١٠٨٥ صدمت زوجته الفرنسية عندما علمت أن القسس كانوا يقيمون القداس وفقاً للطقوس القوطية القديمة التي تخلت عنها الكنائس في جميع أنحاء أوروبا الأخرى ، وأنهم كانوا يقرءون الإنجيل ويعظون الرعية باللغة العربية . فألحت الملكة على أن تتبع الكنائس الطقوس التي كانت تسير عليها الكنائس الأوروبية ، ولكن القسس رفضوا الإذعان إلى هذا الأمر ، فأمرت الملكة بأن تخضع الكتب التي تحتوى على طقوس الصلاة بالطريقتين القوطية والرومانية لاختبار النار ، ووعدت بأن الكتب التي تتحمل الحريق أكثر من غيرها سيتم إقرارها . وقد أجرى اختبار النار ، وفازت فيه الكتب القوطية التي كانت مدونة على رقائق من جلود الأغنام والماعز ، على حين احترقت كتب الطقوس الرومانية ذات الورق العادى عن آخرها . ومع ذلك لم تبر الملكة بوعدها وتجعل الأمر يقف عند هذا الحد ، بل أعلنت أن حسم هذه المسألة لا بد وأن يتم بالسلاح . فاختارت فارساً للدفاع عن قضيتها ، واختار المستعربون من جانبهم فارساً آخر . وأجرى اختبار السلاح ، وهزم فارس الملكة . وعندئذ وافقت على مضمض على حل وسط : يقضى بالآثار تمارس الطقوس القديمة في أية كنيسة جديدة يتم تشييدها ، ويسمح

للكنائس القديمة بأن تستمر على ما كانت تسير عليه من طقوس . ومع ذلك تحولت جميع الكنائس بمرور الوقت إلى استخدام الطقوس الرومانية ، ولا يوجد اليوم في إسبانيا كلها مكان يقام فيه القداس كما كان يقام في عهد لذريق ونبلائه الشقر الطوال القائمة منذ ألف ومائتي سنة إلا في معبد المستعربين في كاتدرائية طليطلة .

اتخذ أمراء أسرة عبد الرحمن الأول الذين تعاقبوا على الملك بعده لقب « خليفة قرطبة » ، أو الرئيس الديني لمسلمي إسبانيا . ولكن رغم الأهمية التي أضفتها عليهم تلك الزعامة الروحية فإنهم لم يستطيعوا أن يوحّدوا البلاد ؛ إذ رفضت مدن عربية كبيرة مثل سرقسطة وطليطلة أن تعلن ولاءها لقرطبة . وقد أدى ذلك إلى أن الحكام المسيحيين في أطراف إسبانيا الشمالية التي لم يسيطر عليها المسلمون استطاعوا أن يوسعوا رقعة ممتلكاتهم ، مستغلين ما كان بين المسلمين من فرقة ، وذلك باسترجاعهم كل مساحة متنازع عليها في مكان ما ، أو كسب معاونة أحد الزعماء المسلمين في حملة ضد زعيم آخر في ولاية مجاورة . وعلى مر السنين أصبحت خريطة إسبانيا كالشوب المرقع ، تضم ولايات مستقلة . بعضها مسيحي وبعضها عربي . وكثيراً ما كانت تتغير تلك الصورة نتيجة لنشوب معركة واحدة أو سقوط حصن واحد .

وبالرغم من أن المسلمين لم يحتفظوا بجيوش كاملة كبيرة ، فإنهم كانوا يستطيعون حشد قوات لا تكاد تقهر ، إذ كانوا يعدون عدتهم

لحملة عامة . وكانت قوة المسلمين تركز في فرسانهم الذين كانوا يقضون معظم حياتهم تقريباً على ظهور الخيل . ولم يكن من المتصور أن يوجد عربي لا يجيد الفروسية . فعندما كانت تبدو نذر الحرب في الأفق كان رجال القبائل من سوريا ومصر وشمال أفريقيا ينضمون إلى إخوانهم في إسبانيا . وكان جميع المقاتلين يمتطون خيولاً رشيقة سريعة ، وبلغ من مهارتهم في ركوبها أنهم كانوا يبدوون للناظر وكأنهم هم وخيولهم آجهاز حربى واحد . كانت أسلحتهم خفيفة ولكنها مواض ، وكان كل فارس يرتدى خوذة من الحديد تحت عمامته ، وزرداً حديدياً تحت ملابسه ، ويحمل في يده درعاً خفيفة من الخشب المضفر ، ورمحاً طويلاً نحىلاً ، وسيفاً وخنجرًا من أجود أنواع الصلب . وفي ركاب الجيش العربى كان يسير المشاة من المستعربين واليهود ، وكانت أسلحتهم السهام والأقواس والمقاليع ، ولكن وظيفة هؤلاء المحاربين لم تتعد كونهم خدماً للفرسان ، وكان الفرد منهم يتقاضى نصف ما يتقاضاه الفارس من مخصصات .

استمرت الأمور على هذه الأوضاع إلى أن ظهر في القرن الثانى عشر الميلادى قائد عربى اسمه المنصور (بن أبى عامر) هدد كيان الدول المسيحية الصغيرة التى كانت آخذة فى النمو . واستطاع المنصور فى كل حملة قام بها أن يجمع بعض الثورات التى قام بها أمراء مسلمون ، وأن يقطع لنفسه أرضاً من أراضى المسيحيين الذين أخذ فى دفعهم نحو الجبال الشمالية التى كانوا قد اتخذوها قاعدة للتوغل البطئ نحو

الجنوب ، إلى أن وصل إلى أقدس أضرحتهم « سنتياجو دى كومبو ستيللا » (Santiago de Compostela) فى جبال جليقية فى أقصى الشمال . فما كان منه إلا أن جرد الكنيسة من مخلفاتها الأثرية النفيسة ، وحطم صلبانها وصورها المقدسة ، وحمل معه أجراسها الضخمة ليستخدمها فى وضع مقلوب كمصاييح فى مسجد قرطبة ، فكانت بذلك من أقدم وسائل الإضاءة غير المباشرة .

ظن المنصور بعد نهب كومبوستيللا أن قضية المسيحيين قد أصبحت قضية خاسرة ، وامتألت نفسه ثقة بأنه سيقضى على كل مقاومة لهم فى حملته التالية . ولكن الحكام المسيحيين خيبروا ظنه فى هذه المرة ؛ إذ أخذوا فى جمع شتات محاربهم الذين كانت روحهم المعنوية قد انهارت ، وكونوا منهم جيشاً ممتلئاً عزيمه ومشرباً بالتحمس الدينى ، استطاع أن يهزم المنصور هزيمة منكرة ويشنت شمل قواته . وقد رفض القائد العربى الذى انفطر قلبه أن تعالج جروحه التى أصيب بها فى المعركة ، ولم يلبث أن توفى بعد ذلك بقليل . وهكذا انهارت دولة المنصور التى كان يبدو عليها القوة انهياراً سريعاً ، حتى إنه فى السنوات السبع التى تلت وفاته استطاع « سانتشو جارسيا » (Sancho Garcia) — وهو أمير مسيحي من قشتالة — أن يصل على ظهر جواده إلى أبواب قرطبة كخليف لأحد الثائرين من الحكام المسلمين . ومع أن الثائر العربى لم يسمح لخليفه المسيحي بالدخول إلى المدينة المقدسة ، فقد حمّله عند عودته إلى بلاده بالكثير من النفائس التى كانت قد نهبت فى الطريق إلى قرطبة .

ولم تضر سنوات قليلة حتى قامت فتنة بين المسلمين أنفسهم ، أدت إلى نهب قرطبة على يد إحدى الشيع المعارضة لحكام المدينة ، فعمت الفوضى ، واشتعلت النيران في القصور والمساجد ، وقتل كثير من العلماء والنبلاء . وكان من نتيجة تلك الفوضى أن تقلص حكم الخليفة واستحال إلى ولايات صغيرة الحجم ، حتى أصبحت صورة الحكم الإسلامى شائبة إلى أبعد الحدود . كان المسيحيون أكثر تماسكاً وأقدر على تناسى خلافاتهم في سبيل قضيتهم المشتركة ، وكان في استطاعتهم أن يستعيدوا فتح إسبانيا في القرن الحادى عشر . غير أن جماعة من مسلمى شمال أفريقيا قاموا بغزوة جديدة أوقفت تقدم المسيحيين ، وبذلك اشتد ساعد المسلمين في إسبانيا ، وقويت قبضتهم على البلاد من جديد .

جاء هؤلاء الغزاة الجدد بفظاظتهم وأرادوا الانفراد بحكم البلاد ، وكانوا متطرفين في تعصبهم ، فأخذوا في حرق كنائس المسيحيين ومعابد اليهود ، بل إنهم أعمالوا القتل في المسلمين الذين انحرفوا عما اتخذ هؤلاء الغزاة لأنفسهم من معتقدات . وعندما أخذ تأثير الأندلس السحرى يعمل في تهذيبهم ، حتى أصبحوا مترفين ناعمين ونسوا تقاليدهم الحربية ، حل محلهم غزاة آخرون من عبر المضيق واستأنفوا أعمال الاضطهاد ، حتى إنه يعزى إلى تلك القبائل الشديدة التعصب أنها دمرت الكثير من مكتبات المسلمين الكبرى في إسبانيا .

ولكن على الرغم من هذه الانتفاضات المؤقتة ، كانت أيام المسلمين في إسبانيا معدودة . ففي منتصف القرن الثالث عشر انسلخت البرتغال عن الحكم الإسلامي مكونة دولة مسيحية مستقلة ، في حين كان معظم إسبانيا مقسماً إلى دويلات يحكمها ملوك أو أمراء مسيحيون فيما عدا مملكة غرناطة في جنوب الأندلس . وهناك - في غرناطة - كان من المقدر لشمس الشرق أن تأفل أفولاً بطيئاً جميلاً استغرق قرنين آخرين من الزمان .

الفصل الرابع الاسترداد

لم يستطع الغزاة المسلمون ، حتى في أوج انتصارهم ، اجتياح منطقة الجبال الوعرة الممتدة على طول الحدود الإسبانية الشمالية ؛ فقد بقي الإسبان المسيحيون الذين هربوا أمام الفاتحين أحراراً في الأودية والتلال في مقاطعات جليقية واشتورية والباسك ونبرة (Navarre).

وكان بين اللاجئين الذين فروا من المغاربة الأمير القوطي بلاي (Pelayo) الذي اعتصم في كهف عظيم بأشتورية يسمى كوفادونجا (Covadonga) بعد نجاته من موقعة وادي البرباط عام ٧١١ . ويقع هذا الكهف في نهاية خائق ضيق بين جبلين طوله خمسة أميال . وهناك حملة أتباعه القلائل فوق دروعهم كما كانت عادة القوط ، ونادوا به ملكاً عليهم . وعندما سمع العرب بالحاكم الجديد لهذه المملكة الهزيلة أرسلوا أحد شيوخهم على رأس سرية من الفرسان إلى كوفادونجا ليعرض على بلاي الأراضي والألقاب إذا استسلم . ولكن بدلاً من أن يقبل بلاي هذا العرض شن هو وفرسانه القلائل هجومهم على العرب ، على حين كان هؤلاء ينتظرون في مرج خارج الكهف . ولم يتمكن فرسان العرب من التمهق لأن جنودهم كانوا يتحركون ببطء

في الخائق . وبينما كان الفرسان المسيحيون مشتبكين مع أعدائهم كان الكهول والأطفال والنساء قد اتخذوا لأنفسهم مخبئاً وراء الصخور المطلة على الخائق ، وأخذوا يدفعون بالأحجار الضخمة وجذوع الأشجار على الجنود في أثناء عبورهم الخائق في صف مستطيل .

وقد أفنيت القوة العربية عن آخرها . وبالرغم من أن هذا النصر يبدو ضئيلاً من حيث عدد المقاتلين الذين اشتركوا في المعركة ، فإنه أثار حماسة المسيحيين لمواصلة الكفاح . ولذلك تعتبر موقعة كوفادونجا عام ٧١٨ بداية استرداد الإسبان لبلادهم ؛ إذ بدأت إسبانيا المسيحية في النمو من جديد — ببطء وعزم ومشقة ، وانتشرت الحركة التحررية في جليقية وأشتورية ومقاطعات الباسك ونبرة وأرغون وقطالونية في الشمال ، ثم تسربت جنوباً حتى بلغت نهر أبره (Ebro) في بادئ الأمر إلى أن امتدت إلى نهر دويره (Duero) ثم نهر تاجه (Tagus) .

ومن الصعب أن يصدق الإنسان أن تتغلب جماعات شبه همجية تفتقر إلى السلاح على قوات المسلمين المتفوقة . ولكن أحد الأسباب التي يعزى إليها نجاحهم هو إيمانهم بأن بطلاً من أصحاب المعجزات يناصرهم في حربهم من أجل المسيحية ، وهذا البطل هو القديس جيمس (Saint James) الذي يعرف في إسبانيا باسم سنتياجو دي كومبوستيلا ، والذي أصبح فيما بعد القديس الحامي للدولة الإسبانية ومصدر الكثير من شجاعة مواطنيها . وقد أقسم أكثر من ملك أو قائد مسيحي بأنهم رأوا سنتياجو رأى العين — قبل المعركة أو في معمرتها —

ممتطياً جواداً أبيض ملوحاً بسيف براق . وعندما يفكر الإسباني في سنتياجو فإن قلبه ينبض بالعزة الوطنية ويتملكه التحمس الدينى . فلم تكن حركة الاسترداد فى حقيقتها سوى حرب صليبية يقود فيها سنتياجو جيحافل الإسبان ضد أعدائهم على مر القرون .

وتحكى الروايات القديمة (التى يصعب تمييز جانبها التاريخى من جانبها الأسطورى) أن القديس جيمس هو أحد الحوارين الاثنى عشر ، وكان قد وفد إلى إسبانيا ليعظ قومها . فلما استشهد فى فلسطين بعد ذلك قام بعض أتباعه المخلصين بوضع جثمانه فى تابوت من المرمر فطفوا هذا التابوت بمعجزة على سطح البحر — وكان أحد الملائكة يوجه سيره — إلى أن قذفت به الأمواج على شاطئ جايقية حيث رقدت رفات القديس حتى القرن التاسع عندما شاهد أسقف تيودومير (Theodomir) أضواء غريبة تتلألأ ليلاً فى مكان معين على الشاطئ . فلما استقصى الأمر اكتشف المقبرة وبدخلها هيكل عظمى ، ثم علم مما شاهده من رؤيا وما نزل عليه من وحى — كما تروى الأسطورة — أن ما عثر عليه هو رفات سنتياجو — قديس إسبانيا الخاص .

وخوفاً من استيلاء قراصنة البحار — الذين كانوا ينهبون الشاطئ أحياناً — على تلك البقايا الثمينة ، فقد تم نقلها إلى مكان يسمى كومبوستيلا الذى يبعد عن الشاطئ ببضعة أميال ، وهناك شيد الأهالى ضريحاً بسيطاً ليضم رفات القديس التى ما إن انتشر خبر العثور عليه بين الأهالى حتى أقبلت جموع الإسبانين إلى كومبوستيلا لتتوجه

بالدعاء لعودة المسيحية إلى شبه الجزيرة بأكملها . وعندما كان الملوك والأمراء يشتبكون في معارك ضد المسلمين كانوا يعبرون عن شكرهم على ما يحققونه من انتصارات بأن يهبوا ضريح قديسهم بعض الذهب والمجوهرات . ولما جرد القائد العربي المنصور كومبوستيلا من كنوزها لم يجد أثراً لثمان سنتياجو ، الذي قيل إن قوة خفية نقلته إلى مكان آخر أمين . ويدعى الإسبانيون اليوم أن الصندوق الفضي الذي يشاهد في كاتدرائية كومبوستيلا يضم رفات ذلك القديس .

كان ضريح سنتياجو أشهر أضرحة أوروبا في العصور الوسطى ؛ يؤمه الحجاج من إنجلترا وفرنسا والأراضي المنخفضة وألمانيا وإيطاليا . وكان رمز ذلك القديس هو الصدف . ولذلك كنت تشاهد الأصداف وقد حاكها الأسقف الألماني على رداثة ، والملك الفرنسي على معطفه ، والفلاح الإنجليزي على سترته ، والتاجر الفلمنكي على عباءته . وانتشرت الأديرة على طول طريق الحج لإيواء المسافرين وإطعامهم ، كما ألف الرهبان أو الشعراء المتجولون كثيراً من قصص للمغامرات لتسلية هؤلاء المسافرين . ومن المعتقد أن أغنية رولان (Song of Roland) استمدت من الأقاويص التي كان هؤلاء الحجاج أول من استمع إليها وهم في طريقهم إلى كومبوستيلا .

ويدين رولان بشهرته إلى إسبانيا ؛ إذ أن تسجيل اسمه في التاريخ يرجع إلى قصة إسبانية . وتروى تلك القصة أن الإمبراطور شارلمان — وهو في طريق عودته إلى فرنسا من غارة على مدينة سرقسطة

العربية — قاد جيشه نحو الشمال مخترقاً ممراً ضيقاً في جبال البرانس يسمى ممر رنشفالة (Roncesvalles) . وحتى تلك اللحظة كان كل شيء قد جرى على نحو ما يريد شرلمان : فقد افتدت سرقسطة نفسها بكنوز نفيسة ، وعندما وصل شرلمان إلى ممر رنشفالة اعتقد أنه أصبح بمنأى عن الخطر ، لأن الممر كان في أيدي الباسك المسيحيين الذين كان بينهم وبينه معاهدة سلم وصداقة . فلما اجتاز شرلمان وطلّاع جيشه ذلك الممر الجبلي الضيق بسلام ، لم يستطع الباسك مقاومة إغراء ما شاهدوه من النفائس الثقيلة التي تحملها مؤخرة الجيش وهي تشق طريقها في الوادي الضيق : فما كان منهم إلا أن انقضوا عليهم ، كما انقض أتباع بلاى على المسلمين قبل ذلك بستين سنة ، ودفعوا بالحجارة وجذوع الأشجار على رؤوس الجنود الذين لم يكن لهم حول ولا قوة ، كما صوبوا نحوهم السهام والأحجار التي تقلدوها المقاليع . وهكذا فقد شرلمان نصف جيشه ، وسرقت كنوزه ، قبل أن يتمكن من نجده . ويسجل المخطوط القديم الذي يروى قصة هذه الهزيمة (Ruotland) — أو رولان — الذي قتل في تلك المعركة ، وكان حاكماً على مقاطعات الحدود في بريتانى . وذلك السطر الوحيد في التاريخ هو كل ما نعرفه عن رولان الحقيقي ، ولكن آلاف الصفحات من القصص التي نسجها الخيال كتبت عن تلك الشخصية ، وفيها حل العرب محل الباسك الخونة ، وفيها أيضاً نسمع عن البوق السحري ، وعن السيدة أود (Aude) التي تملكها الحزن

على وفاته . وقد نشأت جميع هذه القصص أول ما نشأت على طول طريق الحج إلى كومبوستيلا .

وكان لإسبانيا أبطال من أبنائها ، ولدوا على أرض إسبانية ، وحاربوا من أجل وطنهم . وقد ورد ذكر هؤلاء في المدونات التاريخية القديمة وفي عدد لا يحصى من الملاحم الشعرية ، فهناك ما يربو على مائتي ملحمة تشيد بالأعمال البطولية — الحقيقية والخيالية — التي تنسب إلى «السيد» (Cid) الذي يعتبر بطل إسبانيا القومي في العصور الوسطى ويحتل المكانة التي يحتلها رولان في فرنسا . « والسيد » هو اللقب العربي الذي أطلق على روى دياز (Ruy Diaz) الذي عاش في القرن الحادي عشر ، وكان محارباً معتداً بنفسه كثير المفاخرة ، صورته الملاحم على أنه فارس كريم كرس نفسه للدفاع عن المسيحية وأنه البطل الرهيب الذي كان يلتقي الذعر في نفوس المسلمين . فلاغرو أن تؤهله هذه الصفات ليكون بطلاً شعبياً . ومما يروى عنه أنه البطل الذي كانت لديه الجرأة على أن يجادل الملك ، وأنه أغار على فرنسا وتحدى إمبراطورها ، كما ذهب إلى إيطاليا وأهان البابا .

وبالإضافة إلى مائتي الملحمة فقد نظمت في سيرته قصيدة طويلة كتبت بعد وفاة البطل بنحو خمسين سنة . وتهز هذه القصيدة مشاعر قارئها بما فيها من حركة وحياة ، وفيها توصف مغامرات « السيد » على نحو معقول محتمل الحدوث ، كما ترد بها أسماء الأماكن الحقيقية ، وأشخاص حقيقيين ، وأوصاف لمعارك تاريخية .

تروى قصيدة « السيد » أنه عندما أمر الملك ألفونسو السادس
بمنفيه من مسقط رأسه بورجوس ، ودع البطل زوجته اكسيمينا
(Ximena) وابنتيه وداعاً حزيناً ، وانطلق على جواده في صحبة نفر
قليل من أصدقائه الأوفياء :

« كان يوم الفراق حزيناً ، مؤلماً كالم انتزاع ظفر من إصبع
اليد ، ولما حان الوقت قفز إلى سرجه وسار على رأس أعوانه ،
ولكنه كان كلما تقدم في سيره يدير رأسه إلى الوراء ليلقى نظرة أخيرة
على أعز ما يمتلك على وجه الأرض » :

ولا يخلد السيد في منفاه إل الهدوء ، بل نجده يقتحم القلاع
العربية الواحدة تلو الأخرى ، ويستولى عليها ، ويقتل عدداً من
المسلمين ، ويزداد ثراء بما يجمعه من أسلاب . ثم يهزم كونت
برشلونة المسيحي ، ويستولى أخيراً على مدينة بلنسية العربية . وبعد
أن يسترضى « السيد » الملك ألفونسو بالهدايا الثمينة ، يعرض عليه
أن يختار لابنتيه الفيرا (Elvira) وصنول (Sol) زوجين من النبلاء ،
وتروى القصيدة بعد ذلك ما اتصف به هذان الزوجان من جبن
وقسوة ، وكيف أنهما انتقما من « السيد » لإساءات صورهما لهما
خيالهما بضرب زوجتيهما وتركهما وحيدتين في إحدى الغابات .
فيتوجه « السيد » إلى طليطلة ليقابل الملك ، ويتهم الزوجين بما ارتكباه
من جرائم . فيأمر الملك بأن يحسم النزاع في ساحة المبارزة . ويلقى
الزوجان الجبانان هزيمتهما على أيدي الفرسان الذين يمثلون « السيد »

وتحصل كل من الفيزا وصول على ترضية ، وتزوج كل منهما بزواج
فاضل من الأسرة المالكة .

ويتفق قدامى المؤرخين من الإسبان والعرب مع ما ورد في
الملاحم وفي قصيدة « السيد » عن شجاعته وإقدامه ، ولكنهم
لا يجعلون منه رجلاً مثالياً ؛ إذ أنهم يصفونه — رغم ما أوتى من
شجاعة — بالقسوة والغدر . فهو على استعداد لبيع خدماته لأى حاكم
مسلم يجزل له العطاء ، ولا يتردد فى خيانة الملك المسلم الذى عهد
إليه بحصار بلنسية ؛ إذ ما إن تستسلم له المدينة الجائعة حتى يحتفظ
بها لنفسه . ولكن يجب علينا أن نتذكر — قبل أن نصدر حكماً على
هذا البطل وفقاً لمقاييسنا الحديثة للخير والشر — أن كلا من المسلمين
والمسيحيين فى ذلك الوقت كانوا يلجأون إلى الخداع ، وبخاصة
خداع أعدائهم . وقد اعترف المؤرخون العرب أنفسهم — وهم
الذين أطلقوا على روى دياز « سوط النعمة فى البلاد » — بأنه كان
من عجائب خلق الله فى حب المجد ، ومتانة الخلق ، والشجاعة .

استعاد العرب بلنسية بعد ثلاث سنوات من وفاة « السيد » ،
وظلت فى حوزتهم ثلاثة قرون أخرى . وإذا كانت مغامرات « السيد »
قد انتقصت من ثروة إسبانيا فى الأراضى والقلاع ، فإن هذا
الفارس الأنانى الطموح كان رمز البطولة ، ومصدر الإلهام للكثيرين
من بنى وطنه الذين بذلوا النفس من أجل بلادهم . فقد شجع ما كان
يحكى عن أفعاله نبلاء إسبانيا وقسمها وفلاحه ومواصليها على الكفاح —

حتى تحت الظروف التي كان المسلمون مهددون فيها بالقضاء على جميع ما حققوه من مكاسب .

وما إن حل القرن الحادي عشر حتى كانت مملكة قشتالة قد تمكنت من أن تصمم تحت لوائها مساحات كافية من الأراضي المتفرقة لتجعل من نفسها أقوى دولة مسيحية في إسبانيا . وكان ألفونسو السادس - مولى « السيد » ؛ قد استولى على طليطلة عام ١٠٨٥ ، ولعل القارئ يذكر الحملة التي شنتها ملكته ضد قداس كنائس المستعربين . كان ألفونسو غني الأفكار ، خصب الخيال ، وكان أكثر تسامحاً من أسلافه ومن معظم معاصريه الذين كانوا يؤمنون باستعباد المستوطنين المسلمين في الأراضي التي يفتحونها . فقد لاحظ ألفونسو كيف كان المستعربون راضين عن أحوالهم تحت تسمية الحكم الإسلامي ، ولذلك فإنه عامل مسلمي طليطلة بعد فتحها معاملة تتسم بالشرف والإنصاف . وأدرك بعض أمراء المسيحيين الآخرين أن رضا الرعية عن الحكم يقلل من احتمال انقلابها عليهم ، فأخذوا يحذون حذو ألفونسو .

وبالتدريج تسببت الحروب والمعاهدات والمصاهرات الملكية في اندماج دويلات مسيحية صغيرة بعضها في بعض ، حتى بدت صورة إسبانيا الموحدة أكثر وضوحاً . وفي بداية القرن الثالث عشر تحالف ألفونسو الثامن ملك قشتالة مع ملوك نبرة وأرغون ، وقاد جيوشهم المتحدة صوب الجنوب مختبرياً مبراً سرياً في جبال سيرا

مورينا لينقضوا على جيش عربي موحد كان يعسكر في سهل منحدر يعرف باسم « نافاس دى تولوزا » (Navas de Tolosa) فأفنواهم عن آخرهم . وتؤرخ هذه المعركة خاتمة تسلط العرب على شبه الجزيرة . وبعد مرور أقل من عشرين سنة عليها استولى ملك أرغون (الذى كان يفخر فى الوقت ذاته بأنه « كونت برشلونة ») على جزر ميورقة ومينورقة وأيبيسة التى تتكون منها جزر البليار الرائعة فى البحر المتوسط والى ما زالت تعتبر جزءاً من إسبانيا .

وكان أهم حادث مهد السبيل إلى وحدة إسبانيا هو الزواج الذى تم فى عام ١٤٦٩ بين فرديناند ولى عهد أرغون وإيزابيلا وريثة عرش قشتالة ، وقد أطلق عليهما اسم الملك والملكة الكاثوليكين . وكان كل منهما طموحاً ، وفرديناند يطمع فى سلطة سياسية لاحد لها ، وفى السيطرة على مزيد من الأراضى . أما إيزابيلا فقد كانت تحلم باليوم الذى تسود فيه الديانة الكاثوليكية جميع إسبانيا فلا يتذبذب هواء البلاد بصلوات مسلم أو عبادة يهودى . فعقد كلاهما العزم على أن يجعلوا من إسبانيا المتحدة تحت لوائهما دولة كاثوليكية عظيمة ، واتجهت أنظارهما إلى غرناطة - آخر مملكة إسلامية فى شبه الجزيرة . وقد كانت غرناطة فى الواقع دولة صغيرة ضعيفة دانت بالولاء لقشتالة زمناً طويلاً ، وكان ملكها العربى أحد الشهود الذين وقعوا وثيقة زواج فرديناند وإيزابيلا . كان حكام غرناطة ينعمون بالمعيشة فى قصر الحمراء البديع ، حياتهم مليئة بالمسرات والرغد ، ولا تتعدى واجباتهم تصريف الشؤون المحلية . كانوا يصيدون الحيوان باستخدام

الصقور في الجبال والمراعى التي تحيط بالمدينة ، وكانوا يرحبون بالعلماء الذين يفدون من أفريقيا والشرق الأدنى ، يجالسونهم إلى جانب بركة في ساحة القصر ، أو في حديقة بالقرب من نافورة ، ويطارحونهم الشعر ، أو يتناقشون معهم في مسائل فلسفية . فكانت حياتهم تبدو آمنة ساحرة . ولكن القصر والمدينة كانا حافلين بالخونة والمتآمرين ، وكانت فسيفساء القصر تلتطخ أحياناً بدماء الاغتيالات السياسية . وفي أحيان أخرى كان بعض أمراء غرناطة الحائقين يخالفون العهود التي أخذوها على أنفسهم تجاه قشتالة ويهاجمون الأراضي المسيحية . وبين الفينة والفينة كانت المدينة تضم داخل أسوارها جماعات من مغامري شمال أفريقيا الذين يعدون العدة لحملات أوسع نطاقاً ضد المسيحيين .

لاحظ فرديناند وإيزابلا أن هذا الإسفين الإسلامي يحول دون توحيد إسبانيا ، فصمما على إزالته وأخذوا في الاستعداد للحرب . فجعل القسس والأساقفة يحثون الناس في عظاتهم على فتح غرناطة ، وأخذ الأهالي يتحدثون عن الحملة القادمة على أنها حرب مقدسة . وبعد إعداد دام عدة سنوات خرج فرديناند عام ١٤٩١ على رأس خمسين ألفاً من رجاله لمحاصرة المدينة . وتبعت الملكة وأطفالها الجيش وأقاموا في منازل واطئة شيدت من الحجارة خصيصاً لهم في إحدى القرى التي لا تبعد كثيراً عن أسوار غرناطة والتي أطلقت الملكة عليها اسم « الإيمان المقدس » (Santa Fe) . عاشت الملكة مع أطفالها في تلك القرية عدة شهور ، على حين كان فرديناند ورجاله

يتصدون لقوات المسلمين التي تجازف بالخروج من المدينة ، ويتلفون الأراضي المحيطة بها ، ويقطعون جميع الإمدادات الغذائية عن سكان غرناطة المحاصرين . وقد تعرضت الملكة نفسها لأخطار الحرب ، بل إنها اكتست درعاً يمكن مشاهدتها اليوم في متحف السلاح الملكي بمدريد . وحدث ذات مرة أن نجت الملكة بأعجوبة من طعنة وجهها إليها أحد المسلمين المتعصبين ، وفي مرة أخرى كاد فضولها بالنسبة إلى قصر الحمراء يوقعها في الأسر ، إذ كانت قد صعدت إلى سطح أحد المنازل في قرية قريبة لتلقى نظرة على ذلك القصر الخرافي عندما أحاطت شرذمة من الفرسان العرب بالقرية وأوشكت أن تدخلها لولا أن فرسان حرس الملكة الخاص وصلوا في الوقت المناسب للتصدي لهم وردهم .

سلمت غرناطة الحائقة بعد شهور من الحصار . وفي يناير من عام ١٤٩٢ ارتفع صليب فضي فوق قصر الحمراء ، حين كان فرديناند وإيزابلا يدخلان المدينة في موكب مهيب . وهكذا انتهى في غرناطة ذلك الكفاح الذي بدأه بلاي في كوفادونجا عام ٧١٨ والذي استمر ٧٧٤ سنة .

الفصل الخامس المتصورات

بعد ثلاثة أشهر من فتح غرناطة طرد فرديناند وإيزابلا اليهود من إسبانيا بعد أن تبين أن الأمة ستكون أكثر أمناً ووحدة بدونهم . فقد خشي أن يتآمر اليهود — إذا تزايد سخطهم — مع العرب في شمال أفريقيا ، كما فعلوا من قبل سنة ٧١١ لتهيئ السبيل إلى غزو جديد لإسبانيا . وتشنت اليهود بعد أن جردوا من ثرواتهم في الدول الواقعة على طول الشواطئ الجنوبية للبحر المتوسط ، حيث يتفاخر أحفادهم إلى اليوم بأصلهم الإسباني .

وفي نفس العام ، وقع حدث ثالث في التاريخ الإسباني كان أكثر أهمية ومغزى للعالم من طرد اليهود أو غزو غرناطة ، وهو اكتشاف كريستوفر كولمبس للعالم الجديد في ١٤ من أكتوبر سنة ١٤٩٢ .

ورغم اهتمام الملكة إيزابلا عدة أعوام بنظرية كولمبس التي تقول بإمكان اكتشاف طريق بحري إلى الشرق الأقصى ، بأن يتجه الإنسان عن طريق البحر غرباً ، إلا أنها لم تستطع أن تقدم له يد المعونة ، فقد كانت محتاجة إلى كل إيراداتها وإمكاناتها لتمويل الحرب ضد

المسلمين في غرناطة . ولم يكن في استطاعتها التفكير في كولمبس أو في مغامرته حتى دان النصر للإسبان .

ولكن بعد ذلك بقليل ، وفي أبريل عام ١٤٩٢ ، وقعت الملكة عقداً مع كولمبس في بلدة سانتافي ، تحولته بمقتضاه القيام برحلته . ولم يكن لدى الملكة أموال معدة تكفي لتمويل المشروع ، ولكنها لم تتبع مجوهراتها — كما تقول الأسطورة — وإنما أصدرت أمراً إلى ميناء بالوس الصغير (Palos) بإعداد سفينتين مزودتين بالرجال ، وتسليمهما لكولمبس ، وذلك كغرامة لاقتراف بالوس مخالفات معينة . وتذمر أهالي البلدة محتجين على توقيع هذه العقوبة عليهم ، في حين قام أخوان من نفس البلدة ، هما : مارتين (Martin) وفسنت بنزون (Vicente Pinzon) بإعداد السفينة الثالثة .

وإذا ذهبت إلى « بالوس » اليوم (وهي تقع على بعد ٥٠ ميلاً جنوب غربى أشبيلية يربطها بها طريق جميل يمتد إلى المزارع والبساتين) فستجد أنها بلدة صغيرة مهمة تعيش على صيد السمك ، لم يطرأ عليها تغيير يذكر منذ عهد كولمبس . . . وبالرغم من تعرضها لفعل الزمن ، فإن كنيسة سان جورج القديمة ما زالت قائمة بها . . . ويلقى القس بعضاته من "نفس المنبر الحديدي الذي أعلن منه التفويض الملكي للرحلة (رحلة كولمبس) في الصباح الباكر من يوم ٣ من أغسطس عام ١٤٩٢ . وكان قداس ذلك اليوم هو آخر قداس يحضره كولمبس وقباطنته ورجاله لأشهر طويلة . وعقب القداس ، سار المغامرون

جماعة متجهين من البلدة البيضاء إلى الشاطئ حيث رست سفنهم الثلاث الخفيفة . ويمكنك أن تتصور كيف احتشد أهل البلدة على الشاطئ يرقبون إبحارهم .

ولقد سمعنا عن الصعوبات والشكوك التي صاحبت أول رحلة عبر الأطلنطي ، ويمكننا أن نتصور فرحة هؤلاء البحارة عند وصولهم إلى جزيرة صغيرة من جزر بهاما (Bahamas) في ١٢ من أكتوبر ، استولى كولمبس على هذه الجزيرة باسم إيزابلا وأطلق عليها اسم سان سلفادور (San Salvador) — ولم يدر بخلده أنه كان على أعتاب قارتين عظيمتين .

وفي الرحلة الثالثة من رحلاته الأربع التي قام بها إلى العالم الجديد رست سفنه فعلاً على شواطئ أمريكا الجنوبية . . ولكنه لم يدرك أنه قد اكتشف عالماً جديداً كاملاً . ومات معتقداً أنه قد وصل إلى الهند عن طريق البحر . ولهذا السبب كان الإسبان في القرون الخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر يطلقون على أمريكا الشمالية والجنوبية وجزر البحر الكاريبي اسم جزر الهند (Indies) .

كانت تلك الأراضي — من الناحية القانونية — ملكاً خاصاً لإيزابلا وتاج قشتالة ، لا يخص فرديناند شيء منه ، لأنها هي التي آمنت بكولمبس وساعدته ، لا زوجها .

وكان فرديناند قد مد الحملة الأولى ببعض المال . . ولكنه اشترط أن يرد المبلغ إليه بالكامل مهما تكن نتيجة المغامرة . وفي حالة

نجاح الحملة يرد إليه ماله أضعافاً مضاعفة . وبناء على ذلك فإن رحلات كولبس الأربع إلى نصف الكرة الغربي كانت في الواقع باسم قشتالة . ولم يكن يسمح لرعايا الملك فرديناند في مقاطعتي قطالونية وأرغون بالرحيل مع كولبس ، بالرغم من أن القطالونيين كانوا من أمهر البحارة المدربين في إسبانيا ، وكانوا حتى ذلك الوقت قد حققوا لأمتهم معظم أمجادها البحرية . وقد استمر احتكار قشتالة لهذه الاكتشافات حتى بعد وفاة الملكة إيزابلا ، لأنها اشترطت في وصيتها أن يكون لشعبها وحده الحق في الاستكشاف والإقامة والتجارة مع جزر الهند . ومن حين لآخر كان هذا الحظر يرفع في حالات خاصة ، ولكنه استمر ساري المفعول عموماً نحو ثلاثمائة سنة .

وعندما عاد كولبس ورجاله ثانية إلى أرض الوطن في مارس عام ١٤٩٣ هزت قصص مغامراتهم مشاعر كل إسباني . فبالنسبة إلى شعب جبل على المخاطرة والمغامرة بدت الحياة وقت السلم مملة لا طعم لها ولا رونق . ولذلك رحبوا بالتحدي الذي تمثل في مغامرات جديدة . فقد كانوا يحلمون بالثروات الخرافية الموجودة عبر المحيطات الغربية . ويتأجج حماسهم لنشر المذهب الكاثوليكي بين أهالي العالم الجديد . واحتشد رجال من كل سن وكل لون ليشاركوا في الحملات التي بدئ في تنظيمها إلى جزر الهند .

فأبحرت من إسبانيا جماعات تضم بحارة وجنوداً محترفين وتجاراً وفلاحين وعلماء وقسيساً وطغماً ، هدفهم الكشف والإقامة واستغلال

الثروات الطبيعية والتبشير بالمسيحية في تلك الأراضي التي تشمل حالياً جزر الهند الغربية والمكسيك والحدود الجنوبية لولايات المتحدة وأمريكا الوسطى وجزءاً كبيراً من أمريكا الجنوبية .

وقد اختلفت حظوظهم ومصائرهم ، فبعضهم ابقى حثفه من الحمى ، أو من السهام المسمومة في الغابات والمستنقعات ، وفاز بعضهم بهبات من الأراضي الحصينة ، وشيدوا القصور الحصينة كالقلاع في موطنهم الحديد ، في حين جمع فريق ثالث كنوزاً ضخمة من الذهب والمجوهرات ، وعادوا بها إلى إسبانيا ليعيشوا كالأسياد في القلاع التي شيّدوها .

وقد تركوا من بعدهم سجلات مشرقة يمكنك رؤيتها إذا زرت دار محفوظات جزر الهند في أشبيلية . ويرجع الفضل في إنشاء هذه المكتبة العظيمة التي تحوى الوثائق المتعلقة بالاستكشافات والفتح والاستعمار في العالم الجديد إلى فرناندو (Fernando) ابن كولمبس الذي تركها للدولة بعد وفاته . أى شجاعة تفصح عنها تلك الوثائق والخطابات التي بهت لونها ودب فيها الاصفرار ؟ وأى مشقات استتبعت كل ميل في هذه الخرائط القديمة الملونة . فلا عجب إذا كان هؤلاء الرجال — الذين كتبوا الرسائل من المراكز الأمامية في البرارى ورسموا الخرائط وهم يشقون طريقهم عبر الغابات الكثيفة التي يتعذر اختراقها ، وفوق ممرات الجبال — قد أطلق عليهم التاريخ لقب (Conquistadores) وهى كلمة إسبانية تعنى المنتصرين أو الفاتحين

(Conquerors) . ولكن هذا اللقب علق بهؤلاء المغامرين على أنه لقب مشرف . وبالرغم من قسوتهم وغدرهم وجشعهم للإثراء السريع فإن شجاعتهم الباهرة تجعلنا نغض الطرف عن أخطائهم .

وإن حقيقتهم تبدو جليلة في سجلات الهند الغربية ونشعر أنهم جد قريبين منا ، فهنا نجد ما كتبه « بالبويا » (Balboa) عن « البحر الآخر » الذى كان يأمل فى اكتشافه ، وكان ذلك قبل أن يعبر مضيق بنما مباشرة ليكشف المحيط الهادى . وهنا أيضاً مجموعة من الخطابات التى كتبها فرانسيسكو بيزارو (Francisco Pizarro) راعى الخنازير الإسباني الذى استولى على إمبراطورية هنود الانكا الخرافية فى بيرو وأبحر بفيض من ذهبها وجواهرها الثمينة إلى إسبانيا . وهنا أيضاً سجلات « بونسي دى ليون » (Ponce de Leon) الذى انطلق ل يبحث عن ينبوع الشباب ، وبدلاً من أن يجده اكتشف فلوريدا . تلك سجلات آلت إلينا من ماجلان (Magellan) البحار البرتغالى الذى أبحر على رأس خمس سفن إسبانية عام ١٥١٩ ، وبعد عامين أعلن اكتشاف جزر الفلبين . وقد قتل ماجلان فى تلك الجزر ، ولكن إحدى سفن أسطول الصغير أقبلت لتطوف حول العالم تحت قيادة بحار من الباسك هو سباستيان دل كانو (Sebastian Del Cano) .

وهذه الوثائق العتيقة تقص علينا حوادث أغرب فى حبيكتها من روايات الفروسية الخيالية ، أو قصص المغامرات التى كانت مألوفة فى عصر الفاتحين : قصص عن أسماء رنانة لفرسان مثل أماديس

(Amadis) وفلوريسمارتي (Florismarte) وبالميرين (Palmerin) أو دون بليانس (Don Belianis) الذين أتوا بأعمال خارقة في عهدهم وجالوا يقاتلون التينيات والمردة ، ويقتحمون القلاع المسحورة لينقذوا السيدات الفاتنات من الأخطار ، ويقومون بمآثر تبهرا الأنفاس .

وقد كان من المتوقع أن يتخذ الروائيون من القصص التي يرويها المستكشفون والمستعمرون مادة أساسية لرواياتهم ، ولكنهم كانوا يفضلون أن يتناولوا القصص الخرافية البالية ويعيدوا صياغة موضوعاتها مع شيء من التغيير في التفاصيل . ولكن لا يمكن لأية قصة من نسج الخيال أن تضارع القصة الواقعية لغزو كورتيز (Cortes) للمكسيك من حيث الإثارة ونواحي البطولة .

وهرنان كورتيز نبيل إسباني مغامر كان يعيش على إيراد أراضيها التي يملكها في كوبا . . . وإلى أن اختير لقيادة حملة لارتياح الأرض الجديدة التي كانت قد اكتشفت أخيراً في غربي خليج المكسيك . فغامر بكل ما يملكه في سبيل المستقبل ، ورهن كل ممتلكاته في كوبا للمساهمة في تمويل الرحلة . . . ومن ضمن استعداداته قام بصنع علمين نقش عليهما بنحيط الذهب نداء الحرب : « إخواني وزملائي . . . هيا بنا تتبع علامة الصليب المقدس بثقة وإيمان وبها ننتصر » . وكانت هذه الأعلام ترفرف عندما أبحر من كوبا بقوة تزيد قليلاً على خمسمائة من الجنود المشاة ، وعدد قليل من الفرسان ، وستة عشر حصاناً ، ومائة بحار ، وعدد قليل من المدافع ، ومائتي مواطن كوبي زنجي

كانوا بمثابة الخدم والعمال . وعند بلوغه المكسيك دمر كورتيز سفنه . حتى لا يكون ثمة نكوص عن مشروعه العظيم المقبل . وقد كتب تابعه برنال دياز (Bernal Diaz) الذى ترك لنا تاريخاً رائعاً لتلك الحملة « من المؤكد أن سنتياجو والسيدة العذراء قد ساعدانا وبثا قدراً كبيراً من الشجاعة فى قلوبنا » .

وحتى إذا نظرنا إلى غزو كورتيز للمكسيك اليوم فإن هذا الغزو يبدو عملاً مستحيلاً . لقد استطاع كورتيز أن يقنع آلافاً من رجال قبائل الهنود من رعايا الازتك الذين كانت لهم السلطة المطلقة فى أواسط المكسيك بأن يثوروا ضد حكامهم وينضموا إلى جماعته الأوروبية القليلة العدد . واتجه كورتيز إلى الشمال مع حلفائه من الهنود واعتقل إمبراطور الازتك المقدس مونتزوما (Montezuma) واحتفظ به كرهينة ، ووطد مركزه بجسارة فى عاصمة الازتك تنوتشتلان (Tenochtitlan) ، مدينة المكسيك الحالية ، التى كانت أهلة بالسكان . وبعد ذلك بقليل قتل الإمبراطور مونتزوما بيد شعبه رجماً بالحجارة ، لاعتقادهم أنه قد خانهم واستسلم للأجانب باختياره . وبعد قتله هدد الازتك الثائرون كورتيز ورجاله بالفناء . . . وأدرك القائد الإسبانى أنه يجب عليه أن يغادر المدينة بأى ثمن . وتحت ستار الليل انسحب بقواته من مراكزهم فى المدينة مؤملاً الوصول إلى منطقة مكشوفة قبل اكتشاف أمره ، ولكن العدو حمل عليهم وهم يعبرون ممراً طويلاً ضيقاً يصل بين العاصمة والأراضى المحيطة بها . . . وكان الهجوم وحشياً إلى درجة أن نصف الإسبان وآلافاً من الهنود

المتحالفين معهم قد ذبحوا . وتعرف هذه الليلة المشؤمة في حياة كورتيز ورجاله في التاريخ المكسيكى باسم « الليلة الحزينة » . وكان كورتيز بين الناجين . وبعد المعركة مباشرة جمع أشلاء قواته من الرجال الجرحى والنجائين إلى النوم والراحة والطعام ، وشن هجوماً مضاداً على حشود مطارديهم . ورغم ما يبدو من استحالة ذلك فقد أحرز الإسبان نصراً حاسماً وطد لهم فتح المكسيك .

ومن المسلم به أن تفكير معظم الفاتحين اتجه أول ما اتجه إلى سلب ذهب الأهالي وجواهرهم . ولكن الحكام الإسبان من ناحية أخرى لم يكونوا ينظرون إلى أراضي الهند الغربية على أنها مجرد مصدر للكنوز ، بل كانوا تواقين إلى تأسيس مستعمرات هناك . وبينما كانوا يحصلون على الثروة الخيالية التي تتدفق عليهم من العالم الجديد كانوا يبعثون إليه بامثون التي غلت ثروة أعظم على مر العصور . فالسفن الإسبانية التي كانت ترسو في موانئ أشبيلية وقادس وتفرغ حمولتها من الآلء والزمرد والحلى الذهبية وسبائك الذهب والفضة والأشياء النفيسة المصنوعة من الريش والمنسوجات الوطنية ، بل ومن حيوان اللاما من إقليم جبال الإنديز ، والطيور ذات الريش الزاهى الجميل من مضيق بنما . . كانت هذه السفن تبحر إلى الغرب مرة أخرى محملة بالحيول ، والأغنام ، والمواشى ، والخنازير ، والدواجن . والكلاب وكلها حيوانات لم تكن معروفة في العالم الجديد . وأرسلت النباتات والبذور لترعرع في الأرض الجديدة . . وانتقلت زراعات القصب السكر والقطن والبن من العالم العربى إلى العالم الغربى الجديد . وكذلك

انتقل غنب النبيذ البديع من مزارعه في إسبانيا لينضج تحت شمس العالم الجديد .

وكان المستعمرون الإسبان يرهقون الأهالي الذين يعيشون في إقطاعاتهم ويسيطرون معاملتهم . وقد قرأنا عن قسوتهم وكيف كانوا يرغمون الأهالي على العمل المرهق في المزارع والمناجم . وقد عومل الهنود في جزر البحر الكاريبي بالذات بقسوة بالغة ، حتى انقرضت سلالتهم وبدئ في استقدام الزنوج للقيام بالعمل الشاق .

وعلى أى حال فإن إيزابلا ومن خلفوها على العرش لم يكونوا يقرون أو يرضون عن مثل هذه المعاملة . . بل نراهم على العكس . قد أرسلوا تعليماتهم إلى السلطات الإسبانية في الهند الغربية يأمرهم بأن يعاملوا الهنود « بمودة ولطف حتى يهتدوا ويؤمنوا مختارين بتعاليم مذهبنا الكاثوليكي المقدس دون إرغام أو سوء معاملة » . ولم تكن هناك أية تفرقة عنصرية بين الإسبان والهنود ، وحرمت القوانين التي أصدرها الممثلون الملكيون الرق نهائياً . وقبل ذلك بأعوام كان كولمبس قد أحضر معه بعض الهنود الذين أزمع بيعهم كرقيق ، ولكن إيزابلا أرغمته على تحريرهم . وكان لهذا الأسلوب الرسمي من التسامح والعطف تجاه الوطنيين وقع أكبر بكثير مما نتصور . ويتفق المؤرخون الحديثون على أنه بالرغم من سوء المعاملة التي حدثت لإبان الفتح والاستعمار فإن إسبانيا كانت أكثر إنسانية من معظم الإمبراطوريات الاستعمارية الأخرى ؛ فهي لم تعمل على استئصال شأفة الهنود إبان

حكمها ، . مثلما فعلت بعض الدول الأوروبية الأخرى . ويشير المؤرخون إلى أنه لا يوجد مكان آخر في العالم استطاع فيه الأوروبيون أن يأخذوا بيد الجماعات الوطنية البدائية بمثل ما أظهره الإسبان من عطف وصبر ، أو أن يحتفظوا بمحدود على هذه الدرجة من الخطورة بأقل ما يمكن من سفك الدماء .

وكان نفوذ الكنيسة الكاثوليكية في المستعمرات في هذا الوقت يتصف بالرحمة والحكمة ، فلم يكن القساوسة والرهبان الذين ذهبوا ليعلموا الهنود وينشروا الهداية بينهم يقومون بحمايتهم من الاستغلال فقط ، ولكنهم أدركوا أيضاً حاجة الأهالي إلى التعليم في البلاد الجديدة فأنشأوا المدارس الابتدائية في كل مكان . وقد أسسوا عشر أو اثني عشرة جامعة أيضاً .. ومن بينها جامعة سان ماركوس (San Marcos) بمدينة ليما في بيرو عام ١٥٥١ ، وجامعة المكسيك عام ١٥٥٣ . وهي أقدم من جامعة هارفارد (أقدم جامعة في الولايات المتحدة) بحوالى مائة عام . وكان رجال الكنيسة يقومون بالتدريس ، ولكنهم كذلك اختلطوا بالهنود حتى يتعلموا اللهجات المحلية المختلفة ، فقد كانوا يعلمون أن عليهم أن يبشروا بديانتهم ويعلموا الأهالي بنفس لهجاتهم . وقد كتبوا وألفوا في قواعد الأجرومية الهندية والإسبانية ، وفي أصول الدين المسيحي ، كما وضعوا المعاجم « القواميس » وعلموا الهنود المتأخرين القراءة والكتابة والمبادئ الأولية للدين المسيحي ، وقاموا بتدريسهم على الحرف المفيدة ، وعلى الأساليب الحديثة في الزراعة .

وقد أظهر كثير من رجال الدين هؤلاء شجاعة وحمية نادرتين في نشر الديانة المسيحية والتعليم بين الأهالي ، بل إن كثيرين منهم كانوا يضاهون الفاتحين في شجاعتهم . وقد برز اثنان بالذات من بين هؤلاء كأمثلة للعبقريّة الإسبانية في القرن السادس عشر وهما : القديس اجناتىوس لويولا (Saint Ignatius Loyola) والقديس فرانسيس اكسفيار (Saint Francis Xavier) .

. وكان اجناتىوس لويولا أحد نبلاء الباسك ، وسيماً شجاعاً ، مرجاً وخيالياً . وفي شبابه عندما كان لا يقاتل أو يزور أصدقاءه من صفوف القوم ، كان يمضى وقته في قراءة قصص الفروسية الخيالية . وكان في الثلاثين من عمره عندما حطمت ساقيه طلقة مدفع في إحدى المبارك ، وكانت الإصابة جسيمة إلى درجة أنه كان يخشى أن يصبح كسبيجاً طيلة حياته . كان لويولا معتداً بنفسه ، ولم يرق له أن يصبح مقعداً ، فدعا الأطباء لكسر ساقيه وإعادة جبرهما ، مؤملاً بذلك أن تتحسن مشيته . وكان هذا يعنى عدة شهور من عدم الحركة ، ومزيداً من وقت الفراغ للقراءة . ولعل كثرة التفكير في هذه الفترة كانت سبباً في أنه أصبح أقل غروراً ونزقاً ، فترك روايات الفروسية الخيالية وانهمك في قراءة الكتب الدينية . . وكان قبل ذلك يحلم بالدفاع عن سيده جميلة ، أو شن هجوم على قلعة فوق التلال . . ولكنه الآن — ولم يغادره خياله — قطع على نفسه عهداً بأن يكون من جنود السيدة العذراء ، وأن يبث تعاليم المذهب الكاثوليكي في كل مكان ،

وقد واثته الرؤى التى كان يرى فيها الخير والشر كفارسين يتصارعان من أجل روحه .

وحينما استطاع السير مرة أخرى — ولو أن العرج لازمه بقية حياته — لم يعد إلى أصدقائه ، بل أخذ يصوم ويدرس وتواتيه الرؤى . وفى إحدى ليالى عيد الميلاد بينما كان يصلى فى كنيسة صغيرة فى أحد الأديرة داخله شعور حقيقى بأن السيدة العذراء قد نصبت منه فارساً فى الصباح بعد أن أمضى الليل ساهراً كأحد أتباعها . ومن تلك اللحظة أصبحت رسالته واضحة ، وهى النضال من أجل العقيدة الكاثوليكية فأنشأ جماعة دينية كان أعضاؤها يقطعون على أنفسهم عهداً بالطاعة العمياء — أشبه بالنظام العسكرى — وأن يحاربوا بكل خداجات قلوبهم وعقولهم من أجل نصره العقيدة الكاثوليكية . . وكان هذا النظام هو جمعية المسيح أو جماعة الجزويت (Jesuits) ، وقد انضم إلى هذه الجمعية رجال من كل إقليم فى أوروبا ، ومضوا للتبشير فى كل جزء من الأرض . وأخذت هذه الجمعية تزداد قوة ونفوذاً ، وبعد مدة أصبحت مكروهة وغير موثوق بها فى أماكن كثيرة . . ولكن بما أنها كانت عالمية أكثر منها إسبانية خالصة فى نظمها . . فلا يعنينا تتبع تاريخها . وكل ما يجدر بنا أن نتذكره هو أن الشجاعة وأحلام الغزو (غزو الأرواح فى هذه الحالة) التى خلقت جماعة الجزويت كانت من الصفات الإسبانية التى تميز بها العصر البطولى لتلك البلاد . وأما القديس فرانسيس — ثانى الشخصيات الدينية البارزة فى القرن السادس عشر — فقد كان هو أيضاً من نبلاء الباسك ومن جماعة

الجزويت . . وقد اختير لنشر الديانة المسيحية في الهند والشرق الأقصى . . وإننا لنسمع بما قام به في جنوب الهند حيث عمّد عشرة آلاف وثني ، وفي « جوا » على الشاطئ الغربي للهند كان يعالج المرضى وينشئ الإرساليات والمدارس ، ويعلم الأهالي ويقوم بتبشيرهم . . وفي خلال بضعة أعوام انتقل إلى جزر البهار في جنوب المحيط الهادي ، ومنها إلى اليابان بعد ثلاثة أعوام كأول مبشر مسيحي هناك . وبعد ثلاثة أعوام أخرى رحل إلى الصين . . ولكنه توفي قبل أن يصل إليها . . وأعيد جثمانه ليدفن في « جوا » بعيداً عن قلعة أجداده القديمة ومنسقط رأسه في شمال إسبانيا .

الفصل السادس

تألق حكم آل هابسبورج في إسبانيا

بينما كان الإسبان يستكشفون ويستعمرون أمريكا كانت رقعة إسبانيا في أوروبا تزداد اتساعاً . فقد أدت انتصارات الملك فرديناند الحربية إلى ضم مملكة نابولي في جنوب إيطاليا و جزيرتي صقلية وسردينيا من جزر البحر المتوسط إلى أراضيه . وعقب وفاة الملكة إيزابلا حصل على نبرة (Navarre) آخر إقليم مستقل في شبه الجزيرة باستثناء البرتغال طبعاً . وذلك بزواجه من وريثة هذه الملكة وهي سييدة تحمل الاسم الجميل : «جيرمين دى فوا» (Germaine de Foix) . وعندما توفي فرديناند عام ١٥١٦ آلت مملكتا قشتالة وأرغون بكل ممتلكاتهما إلى وريث شاب في السادسة عشرة من عمره هو شارل حفيد فرديناند وإيزابلا ، إذ كان ابنهما الوحيد قد توفي قبل ذلك بسنوات عديدة وهو في التاسعة عشرة فقط من عمره . وكان فقدته خسارة كبيرة لأنه كان ذكياً وطيباً ، ولأن شقيقته جوانا (Juana) - التي أصبحت وريثة للعرش بعد وفاته - كانت معتوهة . فعندما توفي زوجها الأرشدوق « فيليب » النمساوي الوسيم رفضت أن تقوم بدفنه وأصرت على الاحتفاظ بجثمانه بجوارها . ولما كانت لا تصلح للحكم فقد حجزها والدها في أحد الأديرة ونصب ابنها شارل وريثاً لمملكتي قشتالة وأرغون .

وكان استقبال الإسبان لملكهم الجديد أبعد ما يكون عن الترحيب والمحبة ، فقد كان بالنسبة إليهم أجنبياً لأن والده الأرشدوق فيليب كان نمسوياً ، وهو نجل مكسيميليان إمبراطور النمسا من أسرة هابسبورج . ورغم أن شارل أضاف إلى سلطان الملوك الكاثوليك تلك المساحات الواسعة التي كانت لحده مكسيميليان (وتشمل النمسا والأراضي المنخفضة وأجزاء من ألمانيا) فإن ذلك لم يكن له أثر في رعاياه الإسبان . فلم يكن شارل من مواليد بلادهم ، وكان ذلك في نظرهم مما ينقص من قدره .

ثم إنه لم ينشأ في إسبانيا ، وأكثر من ذلك فإنه لم يكن - حتى بداية حكمه - يجيد الكلام بالإسبانية . وكان الإسبان يشكون فيما إذا كان الملك الجديد سيستطيع التغلب على كل هذه العيوب .

وكان شارل من جانبه لا يشعر باهتمام كبير نحو ممتلكاته الإسبانية ؛ ففي البداية لم يظهر أى استعداد للإقامة في تلك الدولة . بل بقى في النمسا وفلاندرز (وهو إقليم ينطبق بالتقريب على بلجيكا الحديثة وشمال شرق فرنسا) واضعاً نصب عينيه انتخابه إمبراطوراً للإمبراطورية الرومانية المقدسة خلفاً لمكسيميليان . وكان أمراء أوروبا الدنيويون يختارون واحداً منهم ليحمل هذا اللقب ويتولى حكمهم كما ينتخب الكرادلة البابا ليكون رئيسهم الأعلى . وفي عام ١٥١٩ تم بالفعل انتخاب شارل إمبراطوراً للإمبراطورية الرومانية المقدسة . ومع أن لقبه كان « شارل الأول » بالنسبة إلى إسبانيا ، إلا أنه كان

يعتبر الخامس بنفس الاسم بالنسبة إلى الإمبراطورية الرومانية المقدسة .
ولذلك فقد غلب عليه لقب شارل الخامس حتى في إسبانيا ذاتها .

وفي أثناء انشغال شارل بمناوراته في الشمال للحصول على لقب
الإمبراطور المقدس أرسل نبلاء نمسويين وفلمنك لحكم إسبانيا .
وقد أثار هؤلاء الحكام الغرباء ثائرة الإسبان الذين استنكروا الضرائب
التي فرضها الملك الجديد لتغطية نفقاته في الخارج . كما أظهروا
اشمئزازهم من الجنود الفلمنك الذين قدموا إلى إسبانيا واحتلوا المنازل
الإسبانية . ويمكننا تصور مدى المعاملة السيئة التي سلكتها هذه القوات
عندما نتذكر أنه في عهد شارل تحولت كلمة فلامنكو (Flamenco)
الإسبانية (وتعني : من أهالي فلاندرز) إلى مرادف للسوقية والصفاقة ؛
وفي النهاية تحول هذا السخط من سوء معاملة الحكام إلى ثورة عارمة
اجتاحت شمال إسبانيا ووسطها ، وبخاصة في قشتالة . وقد سميت
هذه الثورة الخطيرة باسم (Comuneros) أو ثورة سكان المدن ؛ لأن
سكان المدن الكبيرة على وجه العموم هم الذين حملوا السلاح ضد
حكومة ملكهم وقاسوا هيب المعركة ؛ وهم الذين أعدم زعمائهم
عندما أخذت الثورة في النهاية . وقد قابل هؤلاء الزعماء الموت أبطالاً
وصاح واحد منهم - وهو چوان برافو (Juan Bravo) - قبيل
صعوده إلى المشنقة : « لسنا خونة ، وإنما نحن حماة الحرية في الدولة » .

وكان صغر سن شارل وعدم خبرته هما السبب في هذه الثورة
المشؤمة ، لأنه لم يدرك طبيعة المزاج الإسباني ، وما يتصف به

من كبرياء واستقلال ، وتجاهل الرغبة الوطنية القوية في الحكم المحلي .
 إن كل فرد في إسبانيا يفخر باستقلاله ، ولا يقتصر ذلك على النبلاء
 والأغنياء وحدهم ، بل يشمل كل فرد ؛ فالدوق ، والفلاح ،
 والأسقف ، والشحاذ ، يشتركون جميعاً في شدة الاعتزاز بالنفس .
 ويشعر كل شخص بأن كونه إسبانيا يحول له احترام الآخرين وتقديرهم
 وأن له الحق في الحكم على أى شخص آخر كائناً من كان . هل تذكر
 جرأة « السيد » على مواجهة الملك وإهانة البابا ومحبة الإسبان له
 لحسارته ؟ لقد كان مسموحاً لأعيان الإسبان أن يرتدوا قبعاتهم في
 حضرة الملك رمزاً لمساواتهم مع عاهلهم ؛ فكان أهالى قشتالة يرددون :
 « نحن متساوون مع الملك ، إلا أننا لسنا أغنياء مثله » . وقد كتب
 أهالى أرغون لملكهم : « كل فرد منا لا يقل شأنًا عنك ، ونحن في
 مجموعنا أفضل منك » .

وقد ذكر الملك فرديناند مرة عن جنوده أنهم بالرغم من بسالتهم
 فإن خروجهم الطبيعي على الطاعة يجعل من المتعذر على أى قائد
 أن يسيطر عليهم .

وعندما تقدم العمر بشارل بدأ يتعلم كيف يعامل رعاياه الإسبان
 بطريقة أفضل . وبمرور السنين ، يزول إعراض شارل عنهم . ونجده
 يفضل الإقامة في إسبانيا عندما لا ينشغل بالحروب ، فيتجول في ربوعها ،
 ويبني القصور الحديدية ، ويعيد تشييد القديم منها ، ويرأس مباريات
 الفرسان ، ويصارع الثيران ، ويجلس أمام الفنانين الذين يرسمون

لوحات له . وما زالت شخصيته الخدابة تظهر في ااهد الإسبانية :
 فيمكنك أن تشاهد أين كان يعيش ، والمباني التي شيدها في مدريد
 وطليلة وبلد الوليد وغرناطة وأشبيلية ، وستسمع ما قاله وفعله ،
 وستحس بسيرته العظيمة وتألق إمبراطوريته ؛

وستذكرك أشياء كثيرة بأعماله الحربية في الخارج ، لأن الحرب
 كانت مهنته المختارة التي كان يمارسها بإخلاص طوال حياته . فقد
 اشتبك مع فرنسا في أربع حروب بسبب إيطاليا التي جاهدت
 الدولتان في السيطرة عليها . وحارب القراصنة من مغاربة شمال
 أفريقيا الذين دأبوا على مهاجمة الشواطئ الإسبانية والاستيلاء على
 السفن الإسبانية . وأطلق سراح عشرين ألفاً من المسيحيين الذين كان
 المغاربة يحتفظون بهم عبيداً لهم . وفي بداية عهده تمرد جيشه الذي
 ينقصه النظام في إيطاليا ، واستولى على روما ونهبها كما لو كانت
 مدينة معادية ، في حين أنها لم تكن كذلك ؛

وفي أوائل عهد شارل اختلف المصلح البروتستانتي العظيم مارتن
 لوثر مع البابا ، وانفصل عن الكنيسة الكاثوليكية ، وانضم إلى مذهبه
 الجديد حكام وشعوب عدد كبير من الولايات الألمانية . وبعد نحو
 ربع قرن من هذا الحدث توجه شارل لمحاربة هذا الحلف من الأمراء
 اللوثرين (أو البروتستانت) . وهكذا بدأت سلسلة الحروب الدينية
 التي حلت في نفوس الإسبان محل صراعهم الطويل ضد العرب
 وكراميتهم الطويلة لليهود .

وكان لهذه الحياة الحافلة بالجهاد أثرها في شارل ، الذي دبت فيه الشيخوخة قبل أوانها . وعندما بلغ الخامسة والخمسين وأدرك أنه لم يبق له من الحياة إلا القليل تنازل عن العرش إلى نجله ووريثه فيليب الثاني ، واعتكف في دير يوست (Yuste) الذي يبعد مائة ميل عن مدريد . وهناك أمضى العامين الأخيرين من حياته في أمية ملكية محاطاً بحاشية ضخمة من رجال البلاط .

وكان فيليب الثاني يفتقر إلى جاذبية والده ونشاطه ، ومع هذا كان الشعب الإسباني يحبه أكثر من والده ، وربما يرجع ذلك إلى أنه إسباني المولد . ويقول الذين أعجبوا بهذا الرجل الصارم التقى الصريح إنه كان يتصرف وفق ما يمليه عليه ضميره . . ويهدف دائماً إلى مجد إسبانيا وعظمتها وجلال الكنيسة الكاثوليكية الإسبانية وفقاً لمفهومه عن الشرف والمجد والجلال . وإن زيارة واحدة لقصر الاسكوريال تعطيك لمحات عن شخصيته أكثر من أى كتاب . والاسكوريال هو ذلك البناء الفخم البارد الشبيه بالقلعة الذي بناه على سفح تل على بعد نحو ٣٠ ميلاً شمال غربي مدريد ليكون قصراً وديراً وضريراً ملكياً . ولربما كان يظن أن جلال إسبانيا يتطلب بناء في مثل ضخامة الاسكوريال (الذي يطلق عليه أحياناً الأعجوبة الثامنة في العالم) ففيه دهاليز ضيقة يزيد مجموع طولها على مائة ميل و ٨٦ سلماً ، وثلاث كنائس ، و ١٥ بهواً مكشوفاً إلى السماء الصافية ، وآلاف من النوافذ التي تطل على مرتفعات قشتالة الشهباء ذات السطح المتموج .

وإذا كان فيليب يحب العظمة والأبهة الرسمية فإن ميوله الشخصية كانت بسيطة . ويعكس جناحه الخاص في الاسكوريال مدى تقواه وصرامته . فالمكتبة التي مازالت تضم كتبه على رفوفها بسيطة كصومعة راهب ، وحجرة نومه صغيرة ومظلمة ، وبها محراب صغير في أحد أركانها ونافذة تشرف على الكنيسة الرئيسية بطريقة يظهر منها المحراب الرئيسى كله . وحتى عندما كان يرقد على فراش المرض ، فإن فيليب كان يستطيع النظر من النافذة ومتابعة القداس الذى يعقد في المحراب الرئيسى .

وقد ورث فيليب عن والده ممتلكاته الواسعة باستثناء بعض الأراضى الألمانية التابعة للتاج الإمبراطورى (إذ لم ينتخب فيليب إمبراطوراً للإمبراطورية الرومانية المقدسة كما كان والده) . وفى عهده حارب البرتغال وهزمها وضمها إلى إسبانيا ، وهكذا حكم شبه الجزيرة كلها . وبقيت البرتغال جزءاً من الإمبراطورية الإسبانية مدة ٦٠ عاماً ، ولكنها استعادت استقلالها فى عهد فيليب الرابع .

ولم يقتصر ما ورثه فيليب عن أبيه شارل على الأراضى فقط ، بل إنه ورث عنه الحروب وكرهية شعوب أوروبا الأخرى له واشتباهاها فى نواياها ؛ لأن تلك الشعوب كانت تحسد إسبانيا وتخشى قوتها العظيمة ، كما تخشى جشعها وتطلعها للاستيلاء على مزيد من الأراضى ، ولم تكن لدى فيليب ميول والده العسكرية ، ولذلك قلما كان يصحب جيوشه إلى ميدان القتال أو يقودهم فى المعركة ، بل كان الرجل الشاحب الضئيل يجلس إلى مكتبه ساعة بعد أخرى

يوقع الوثائق ويكتب بيده الأوامر المطولة ويدرس التقارير العسكرية وخطط الحرب التي لم يكن هناك ما هو أكثر منها في عصره : حروب مع البرتغال وضد الأتراك الذين كانوا يحكمون إمبراطورية عظيمة من القسطنطينية ، حروب ضد فرنسا وفلاندرز، وحملات حربية ضد المغاربة في غرناطة الذين دفعهم الجور والطغيان إلى الثورة بل حرب ضد البابا نفسه . وكانت تلك الحروب تستهدف القضا على كل ما ليس بإسباني أو مخالف للكاتوليكية الإسبانية :

وقد وقعت موقعتان من أشهر المواقع الحربية في التاريخ في عهد فيليب الثاني وكلتاها من المواقع البحرية، وهما موقعة ليبانتو (Lepanto) وهزيمة الأرمادا الإسبانية .

وفي الأولى تحالفت إسبانيا مع البندقية والبابا ضد الأتراك وتلاقوا معهم في مضيق ليبانتو على الساحل الغربي لليونان . وقاد دون جوان النمسوى البحسور (وهو أخ غير شقيق لفيليب) الأسطول المتحالف إلى نصر ساحق . هل تذكر قصيدة جلبرت تشسترتن عن معركة ليبانتو التي يتكرر فيها « دون جوان النمسوى ذاهب إلى الحرب » من منا يستطيع نسيان تصوير ذلك النصر :

« دون جوان النمسوى قد اقتحم خط المعركة

دون جوان يدب على مؤخر السفينة الذي اصطبغ بدماء المذبحة
لقد جعل لون المحيط أرجوانياً كسفينة قرصان ملطخة بالدماء
واللون القرمزى يغطي الفضة والذهب
محطماً نوافذ السفن ومفجراً عنابرها » .

أما حملة الأرمادا فقد كانت كارثة لإسبانيا . كان فيليب يرغب فى سحق قوة إنجلترا البحرية وبذلك يمنع المساعدات عن الثوار البروتستانت من رعايا هولندا (الأراضى المنخفضة) فأعد أعظم أسطول بحرى فى ذلك العصر وكان مكوناً من ١٣٢ سفينة و ٣٠٠٠ رجل .

ويشاء سوء الحظ أن أمير البحر الذى نظم الحملة وكان سيقودها ، مات قبل الإبحار مباشرة .

وكان رجل البلاط الذى اختاره فيليب ليخلفه فى قيادة الأسطول لا يفقه شيئاً عن البحار أو الحروب البحرية ، وقد عبر عن عجزه لفيليب . ولكن فيليب كان جد واثق بالنصر ، حتى إنه أصر على تولى هذا النبيل القيادة بأية كيفية ، قائلاً إن الله سيكون القائد الحقيقى لهذا الأسطول .

ولكن يبدو أن الله كان القائد الحقيقى للأسطول الإنجليزى لا الإسباني . فمنذ البداية لازم النحس الإسبان . فبينما كان الأسطول يدور حول الطرف الشمالى الغربى لإسبانيا شتت الأنواء السفن وعطلت بعضها وأغرقت بعضها الآخر . . وفى القناة « القنال » الإنجليزى أمام كل من بليموث وكاليه — أعملت السفن الإنجليزية السريعة بمدافعها ذات المدى الطويل يد الدمار فى السفن الإسبانية الثقيلة المتعددة الطبقات كما فتكت بالسفن الصغيرة . ولم يستطع الإسبان أن يلتحموا بالسفن الإنجليزية عن قرب حتى ينقض عليها

رجالهم ويشتبكوا مع الإنجليز في قتال يدوي كما كانت خطتهم . بل إن السفن الإنجليزية « الثور » و « الدب » و « الكلب الأسود » و « الانتقام » طاردت السفن الإسبانية وأغرقتها أو اضطرتها إلى الاتجاه شمالاً ، وكان من بينها سفن يفخر بها الأسطول الإسباني مثل « سانتا ماريا » و « سان ماركوس » و « سان لويس » و « سان ماتيو » وغيرها مما لا يحصى من السفن .

وهلل الإنجليز : « لقد نفخ « يهوه » (Jehovah) (الله بالعبرية) وشتتهم » ، على حين كانت الأنواء والأحوال الجوية السيئة مستمرة في ثورتها في بحر الشمال ، حيث غاصت ١٩ سفينة إسبانية أخرى . وأخيراً ، وبعد أسابيع طويلة من الجوع والحمى ووابل من العواصف والمشاق ، عاد نصف سفن الأسطول الإسباني يعرج إلى الموانئ الإسبانية . . وتحكى قصة أحد أمراء بحر الأرمادا الذى استطاع أن ينجو بضع سفن ويعود بها إلى ميناء سان سباستيان . أنه عندما رسا على البر لم ينظر إلى أحد ولم يتكلم مع أحد ، حتى زوجته وأولاده وذهب إلى منزله حيث أغلق حجرتة عليه واستلقى ووجهه إلى الحائط ومات . أما الملك فيليب فقد كان أكثر استسلاماً للقدر . فعند سماعه بالأخبار المهولة قال بهدوء : « لم أكن أتوقع أن علي أسطولي أن يحارب الجو أيضاً ! » .

. . وبهزيمة الأرمادا في ذلك الصيف العاصف من عام ١٥٨٨ هوى لقب إسبانيا كسيدة لأوروبا . فقبل وفاة فيليب بعد ذلك بعشرين

سنوات كانت الإمبراطورية قد بدأت فى التفكك والانقسام ، وقد استمرت فى تفككها بالتدريج فى عهد خلفائه .

مات فيليب الثانى عام ١٥٩٨ والقرن السادس عشر يقارب نهايته . وتتابع طوال القرن السابع عشر ثلاثة ملوك آخرين من أسرة هابسبورج ، هم : فيليب الثالث ابن فيليب الثانى ، وفيليب الرابع حفيده ، وشارل الثانى ابن حفيده ، وكان معتوهاً يظن أن الشياطين قد استولت على روحه وجسده .

وقد وقع فيليب الثالث « مرسوماً » يقضى بطرد المغاربة القلائل الذين بقوا فى إسبانيا بعد سقوط غرناطة ، والذين أرغمهم الإسبان على اعتناق الدين المسيحى .

وكان هؤلاء المغاربة يقومون بكل الأعمال الشاقة التى يحتقرها غالبية الإسبان : كانوا يقومون بأعمال البناء ، وصنع الأحذية ، والخياطة ، والنسيج ، إلى جانب أنهم كانوا من أمهر المزارعين ، ورغم أنهم كانوا شعباً صبوراً فقد ثاروا ضد إرغامهم على الارتداد عن دينهم ، وهدم ثقافتهم القديمة ، وحرقت كتبهم الثمينة ، وتخريب مبانيهم الجميلة . وكانت ثوراتهم متعددة وخطيرة حتى أمر فيليب الثالث عام ١٦٠٩ بطردهم من البلاد فى خلال ثلاثة أيام . فغادر البلاد على عجل ما بين نصف مليون و ٩٠٠ ألف رجل وامرأة وطفل وجهتهم شواطئ شمال أفريقيا أو بلاد أخرى فى البحر المتوسط . وأذنت السلطات لعدد قليل جداً منهم لا يجاوز ٦٪ من مجموعهم

الكلى بالبقاء ليقوموا بأعمال الري والزراعة .. ولكن بعد قليل لم يبال كثير من المنفيين بالعقوبة وتسألوا إلى موطنهم القديم .
وقد لاقت إسبانيا الأمرين من جراء هؤلاء القوم ؛ إذ لم يكن هناك من بين الإسبانيين من يقوم بالأعمال اليومية المرهقة التي كان يقوم بها المغاربة . فقد كانت أحلام الذهب والمغامرات فيما وراء البحار تشغل أذهان الإسبان . وفضلاً عن ذلك فإن ذوى القدرة والشجاعة منهم دفعتهم تلك الأحلام إلى الهجرة بالآلاف إلى العالم الجديد بحثاً عن الثروة ، في حين كان آلاف آخرون يخدمون في صفوف الجيوش الإسبانية في فلاندرز وفرنسا وإيطاليا . وبدأت البقية الباقية منهم من الكسالى والذين لا يؤبه لهم في النزوح إلى المدن الكبرى .

وأخذت الأحوال الاقتصادية تزداد سوءاً في إسبانيا خلال القرن السابع عشر ، فكنيت ترى معالم الفقر في كل مكان . وكانت الطبقة المتوسطة في ميسيس الحاجة إلى ضرورات الحياة ، وكان الفقراء يموتون من الجوع . وكان الجوع من الأمور المفضلة عند كتاب هذا العصر . . . ولقد كتب إسباني هذا الوصف للأحوال السائدة في ذلك الوقت يقول : « تجول في الحقول التي كانت يوماً مزدهرة ، ستجدها مغطاة بالأشواك والحشائش الطفيلية ، فلم يعد هناك من يزرعها ؛ إذ أن الغالبية العظمى من الإسبان لا يفعلون اليوم شيئاً : بعضهم تحت ستار ادعاء النبيل ، وآخرون لأنهم يفضلون الاستجداء ، فشوارع مدريد تقدم مشهداً فريداً . إنها مكتظة بالعاطلين والمتشردين

الذين يمضون يومهم في لعب الورق ، ينتظرون على أبواب الأديرة في انتظار موعد الغداء، أو ينطلقون إلى الريف لنهب المنازل . والأسوأ من ذلك أن الأمر لا يقتصر على هذا النوع من حياة الخمول والبطالة بل إن الميادين تموج بالأفاكين والمتشردين الذين أفسدت رذائلهم وآثامهم المدينة كلها وعمرت المستشفيات .

وكانت تلك البلاد التي عمت الشعب الإسباني إحدى نتائج حالة الركود في البلاد وأحد الأسباب في تلك الحالة في الوقت ذاته . كما كانت القيود العقيمة التي فرضت على التجارة والصناعة من العوامل الأخرى التي تسببت في أزمة إسبانيا الاقتصادية ؛ فقد عرقلت هذه القيود السخيفة صناعة السلع التي اشتهرت بها الدولة في أوروبا وتسببت في فقدان الأسواق الخارجية . فقد كان صانع الأحذية - على سبيل المثال - يعاقب إذا لم يقوم بصنع أحذيته وفق النمط الذي يفرض عليه أن يتبعه حرفياً ، وحظر تصدير الحرائر الفاخرة والأقمشة الصوفية إلى أمريكا .. ولم يسمح إلا بتصدير الحشن منها . ولم تحقق التجارة مع المستعمرات الإسبانية الدخل الذي كان متوقعاً منها .

ومن أسباب ذلك احتكار أفراد قلائل لهذه التجارة التي كان يتناولها ميناء أشبيلية في البداية ، ثم قادس بعد ذلك . وقد حظر على المستعمرات التجارة مع أية دولة باستثناء إسبانيا . ورغم ذلك فإن الإسبان لم تزود تلك المستعمرات بالملابس والأدوات الزراعية أو الآلات ، وقام الإنجليز والهولنديون والفرنسيون بتهرب مثل هذه السلع على نطاق واسع إلى المستوطنين الذين كانوا في حاجة

إليها وعلى استعداد لدفع ثمن ما يشترون . وقد ازدادت هذه الدول ثراء بأسرها للسفن الإسبانية المحملة بكنوز أمريكا من الذهب والفضة . وبالرغم من ازدياد وطأة الضرائب يوماً بعد يوم فلم يكن لدى الملوكة — ابتداء من شارل الخامس — المال الكافي لسد نفقات حروبهم ، أو حياة البلاط الفاخرة .

وفي كثير من الأحيان كان فيليب الثالث يهمل دفع أجور خدمه . وقد نصب فيليب الرابع صناديق في الكنائس متوسلاً إلى رعاياه أن يلقوا بتبرعاتهم فيها كي يسد نفقاته الشخصية .

وترك شارل الثاني المعتوه خيول اسطبلاته الملكية تموت جوعاً لعجزه عن إطعامها .

ورغم ذلك فعندما رحلت ابنة الملك فيليب الرابع لتتزوج من الملك لويس الرابع عشر ملك فرنسا احتاجت إلى ٧٠ حصاناً لتحمل ما أخذته معها من فضة وعطور ، وحزمت أثوابها في عشرين حقيبة كبيرة مغطاة بالساتان وموشاة بالفضة ، أما قفازاتها فحملتها في حقيبتين من الساتان موشاتين بالذهب .

الفصل السابع العصر الذهبي

عندما نصف القرنين السادس عشر والسابع عشر بأنهما كانا العصر الذهبي في إسبانيا فإننا لا نفكر في قوة إسبانيا وكنوزها المادية ، بل فيما تفتحت عنه العبقرية الإسبانية من ثروة في الآداب والفنون ، ففي خلال هذا العصر أخرج الأدباء والرسامون الإسبان أعمالاً أبهرت العالم منذ ذلك الوقت .

ومن بين هذه الكنوز نوع جديد من الأدب عن قصص التشرد (Picaresque) ، وقد سميت بهذا الاسم ، لأن بطلها كان متشرداً أو محتالاً (Picaro) . حول الأدباء الإسبان الفقر والحياة الحقيرة التي لمسوها بالقرب منهم إلى قصة مغامرة .. ولكنها ليست قصة مغامرة من نوع روايات الفروسية ، ففي روايات الفروسية يلتقي الفارس بالتيينات ، أو يستغرق في نوم سحري في قلعة أو غابة كثيفة .. ويفوز بدوقية وسيدة جميلة . أما في قصص التشرد فإن بطلها يعاشر القتلة والنشالين وينام في المحارى والزرائب القذرة ، وعندما يجوع يسرق رغيفاً من الخبز أو بعضاً من النقود ، ولا يقابل إلا الخادmates أو زوجات أصحاب الحانات السليطات أو الشمطاوات السكيرات .

وفي روايات الفروسية يفوز البطل عن طريق شجاعته الفريدة ، أما المتشرد فيعيش بحيلته وسرعة خاطره وتسبح روايات الفروسية في جو من الخيال ، أما قصص التشرد فتأخذنا إلى صميم الحياة الواقعية وتعرض لقطات صادقة عن المتشردين والمجرمين بصلابتهم وآثامهم وتواكلهم ، وقد عجت بهم شوارع المدينة ، وجعلوا الطرق الريفية خطرة على المسافرين . إنها قصص تروى حياة الجريمة والفقر والآلام التي يمكن أن نلمسها في سجلات ذلك الوقت ، ولكن على نحو يدعو إلى التسلية .

وأول قصة تشرد من نوعها — ومن أشهرها قاطبة — قصة : « لازاريللو دي تورمس » (Lazarillo de Tormes) ؛ التي نشرت عام ١٥٥٤ وجاءت على لسان بطلها لازاريللو . وهي تعرض لنا مغامراته المختلفة . فعندما يموت أبوه الوغد في قتاله ضد العرب في شمال أفريقيا ، تجد أمه أن من المتعذر عليها إطعام طفلها فتؤجره إلى شحاذ أعمى . ويعرف هذا الهرم أكثر من مائة صيغة للاستجداء والدعوات التي تتلى في المناسبات والأغراض الخاصة ، ويحصل على كثير من الطعام والنقد ، ولكنه شديد البخل إلى حد أن لازاريللو يكاد يتضور جوعاً إذا لم يسرق الخبز من حقيبة زاد الرجل الأعمى ، والنيذ من إبريقه ، وبعض قطع النقود من وقت لآخر . وعندما يضبطه يحطم الإبريق على وجهه ، ثم يمسح الجروح التي سببها الإبريق بنخرة مبللة بالنيذ المراق . ويضممر له لازاريللو الحقد على ما فعله به وعلى ما لاقاه منه من أنواع القسوة والعنت .. وينتقم لنفسه بأن يقود الرجل الأعمى خلال أشد الطرق وعورة .

« إذا كانت هناك أحجار فليخترقها ، وإذا كان هناك وحل فليغص في أعماق جزء منه ! » .

وعندما يترك لازاريللو الشحاذ يعمل في خدمة أحد القسوس . ولكنه يقول إنه قد هرب من الرعد ليلقى بنفسه إلى البرق ، لأن القسيس أيضاً بخيل . ويتصور لازاريللو مرة أخرى جوعاً من طعامه المكون من البصل ، وقطرات من المرق ، والعظام المجردة من اللحم ، إلى أن يسرق مفتاح الصندوق الذي يخبئ فيه سيده الخبز . وعندما يفتقد سيده الطعام يقول لازاريللو إن الفيران والشعابين هي التي تسطو على الصندوق ! ولكن القسيس يضبطه في النهاية متلبساً بالسرقة . ويطرده من منزله .

ثم يخدم لازاريللو آخرين ، ومن بينهم أحد السادة المتأنقين . المفلسين الخائعين الذي كان شديد الكبرياء حتى ليأنف من العمل . وهناك راهب أيضاً من بين من عمل في خدمتهم ، وشرطي . ومع هؤلاء جميعاً كان لازاريللو يعيش بسرعة خاطره وسعة حيلته . . ورغم ذلك فلم ينعم بالمعيشة الطيبة .

وقد سطرت قصص التشرد أسلوباً أدبياً جديداً في أوروبا . . وانتقلت إلى إنجلترا وفرنسا وألمانيا وهولندا . . وحتى في الأدب الأمريكي يجري مداد التشرد في عروق شخصيتي « توم سوير » (Tom Sawyer) و « هكليري فن » (Huckleberry Finn) اللتين خلقتهما الكاتبة مارك توين .

ولم تصور حياة المشردين والمجتمع المنحط الذي يعيشون فيه بالروعة التي تصورها القصص القصيرة « ليجويل دي سرفانتس » (Miguel de Cervantes) أحد أدباء العصر الذهبي الذي نتذكره بتحفته الخالدة « دون كيخوته » ومع ذلك يقول النقاد إن قصصه القصيرة كانت كافية لأن يحظى بالشهرة حتى ولو لم يكتب « دون كيخوته » على الإطلاق . وتدور واحدة منها واسمها « رينكونيتي وكورتاديللو » (Rinconete & Cortadillo) حول صبيين أحدهما نشال والآخر نصاب (في أوراق اللعب) ، وقد التحقا بنقابة للمشردين في أشبيلية والتقيا بكثير غيرها من الأوغاد . وهذه القصة واقعية بشكل مذهش . وتجعلك تشعر بالبغض ، وتشم وتشاهد القذارة ، وتسمع الضحكات واللعنات التي تدوى على « أرصفة » السفن على طول نهر الوادي الكبير . وتتودك مباشرة إلى الحجرة الصغيرة العارية المجردة حيث يعقد المشردون اجتماعهم .

وقد كتب سرفانتس من واقع خبرته الحقيقية بحياة الطبقة الدنيا في أشبيلية . إذ لا بد أنه كان قد قابل مثل هذه الشخصيات التي وصفها عندما كان في السجن في أشبيلية وبلد الوليد (Valladolid) ؛ ففي أشبيلية سجن بتهمة سوء التصرف في أموال حكومية ، ولكنه لم يتهم قط باستعمال هذه الأموال المفقودة لنفسه ؛ إذ كل ما في الأمر أنه لم يكن لديه استعداد للأعمال التجارية .

وفي بلد الوليد ألقى به في السجن عقب موت رجل لم يكن قط

يعرفه ، وكان هذا الرجل قد استدرج حيث قتل أمام المنزل الحقير الذى تقيم فيه أسرة سرفانتس .

وقد تمرغ سرفانتس فى مختلف نواحي الحياة القاسية ، ولولا أنه لم يكن عديم المبادئ لعاش بطلا فى قصة تشرد حقيقية .

كان سرفانتس فى حدائته مغامراً . فقد ذهب إلى نابولى قبل أن يبلغ العشرين فى حاشية كاردينال شاب ، وانضم إلى فرقة عسكرية جندت لمحاربة القراصنة الأتراك ، واشترك فى معركة ليبانتو . وعندما اشتبكت الأساطيل المسيحية والتركية فى تلك المعركة كان سرفانتس مريضاً بالحمى ، ولكنه أصر على الاشتراك فى القتال خوفاً من أقوال الناس إذا لم يؤد واجبه . ففضل أن يموت مقاتلاً فى سبيل الله والملك على أن يبقى تحت سطح السفينة .

وقد جرح ثلاث مرات فى القتال . وحطمت إحدى القذائف يده اليسرى . وعندما شفى من جراحه اشترك فى أعمال حربية أخرى . ثم أبحر عائداً إلى إسبانيا مؤملاً فى الالتحاق بوظيفة حكومية مكافأة له على بسالته . وعندما لاح الشاطئ الإسبانى هاجم القراصنة الجزائريون السفينة وقتلوا قائدها وكثيراً من البحارة والمسافرين ، وأخذوا الناجين ومن بينهم سرفانتس إلى الجزائر حيث بيعوا رقيقاً . وقد بقى فى الأسر خمس سنوات ونصف سنة ، وظل أغلب الوقت مقيداً بالأغلال لمحاولته الفرار أربع مرات . وأخيراً افتداه أحد الرهبان الذى وهب نفسه لجمع الأموال لتحرير المسيحيين من الأسر قبل أن يوشك

مالكه على السفر إلى استانبول . وكان سرفانتس يرقد وقتئذ مقيداً بالأغلال في عنبر السفينة التي كانت ستقوم بتلك الرحلة .

ومن الصعب تتبع حياة سرفانتس بعد ذلك ، لأنه عاش طوال الأعوام الأربعين التالية في فقر وانزواء .

وقد كتب بعض مسرحيات لم تنجح . وألف قصة عن الرعاة والراعيات وفق الأسلوب الأدبي السائد في ذلك العصر ، ولكنها كانت سقيمة . ولم يستطع أن يقيم أوده عن طريق الشعر ، بالرغم من فوزه بين حين وآخر بجائزة للشعر . وتزوج ورزق بابنة ، وكانت شقيقاته — وهن فقيرات أيضاً — يقمن معه في منزله . وعمل مع الحكومة لتزويد الجيش بالمؤن خلال إعداد حملة الأرمادا . . . وتقدم للالتحاق بأربع وظائف مختلفة عبر البحار دون أن يفوز بإحداها . . وأحياناً يفقد كل أثر له لمدة أعوام عديدة إلى أن يظهر اسمه في وثيقة ما من الوثائق القضائية .

وفي الثامنة والخمسين من عمره نشر سرفانتس الجزء الأول من « دون كيخوته » ، وفي الثامنة والستين ، قبل وفاته بعام واحد ، انتهى من الجزء الثاني من هذه القصة التي عدّها أكثر من ناقد أعظم قصة ظهرت في العالم . وقد كانت هذه القصة بلاشك أكثر القصص شهرة ورواجاً على مر الأجيال . . فقد صدرت منها طبعات وترجمت إلى لغات أجنبية أكثر من أى عمل آخر ، باستثناء الإنجيل . وصدرت مئات الكتب التي تحللها وتشرحها ، وانهلك الفلاسفة والنقاد

والشعراء في محاولة تحديد المعنى الحقيقي لكل سطر والعثور على عظة من كل مغامرة جنونية لبطلها ؛ ذلك الفارس الهرم الذي ينتمى إلى قرية بإقليم لا مانتشا (La Mancha) .

ولنفترض أننا نفكر في « دون كيخوته » كقصة فروسية وقعت حوادثها في العالم الحقيقي .

يبرز دون كيخوته نفسه من الصفحة الأولى للكتاب ، وتعرفه لأول وهلة : ذلك للنبيذ ذو الحصان الأعرج وكلب الصيد الذي يعيش في منزل الأسرة مع ابنة أخيه ومديرة للمنزل ، وكان فقيراً إلى درجة أنه ينفق ثلاثة أرباع دخله في الطعام والباقي على الملابس . ولما كان لديه متسع من وقت الفراغ فإنه يتحول إلى روايات الفروسية يلتمسها ، ويصبح مغرماً بالمطالعة حتى إنه لينسى الذهاب للصيد أو يلتفت إلى شئون مزرعته الضئيلة . . ومن إدمانه للقراءة مع قلة نومه تصيبه لومة ، ويشعر بأنه يجب عليه أن يخرج ليكون فارساً جوالاً مثل أبطال الروايات . ولما كان جنونه مطبقاً فإنه كان متأكداً من قدرته على إصلاح الفساد الذي استشرى في العالم .

ينظف سرفانتس درع جده التي كان قد علاها الصدأ في الطابق العلوى . وعندما لا يجد خوذة هناك إلا خوذة جندي على هيئة قبعة نسائية ذات حافات ضيقة ، فإنه يصنع مقدمة للخوذة من الكرتون ويلصقها بها ، ثم يقوم بتجربة خوذته ، ولكن سيفه ينفذ من الكرتون فيتحتم عليه أن يقوم بعمل مقدمة أخرى للخوذة ، ويحرص على عدم

تجربة الخوذة الثانية خشية تلفها قبل أن تبدأ مغامراته . ويطلق على حصانه العجوز اسم روزينانتى (Rosinante) ، وهو اسم ذو رنين جميل ، رغم أن معناه « حصان العمل البائس » .

ولما كان كل فارس يهيم بإحدى السيدات ويقوم بأعمال الشجاعة في سبيلها ، فقد كان لازماً على بطلنا أن تكون له واحدة ، لأنه كان يعتقد أن الفارس الجوال الذى لا يقع في الحب كالشجرة بلا أوراق أو ثمر ، أو كالجسد بلا روح ، وقد كان يعجب سرا بفتاة جميلة ريفية خشنة من جيرانه ولم تكن هى تكاد تدرك وجوده . . . واختارها لتكون سيدهته وكان اسمها ألدونازا لورنزو (Aldonaza Lorenzo) — وهو اسم تنقصه الرومانسية الواجب توافرها في اسم محبوبه الفارس . . . ولذلك يطلق عليها اسم : « دولسنيا دل توبوسو » (Dulcinea d l Toboso) ويقسم بإخلاصه الأبدى لها .

دعنا نتبعه في إحدى مغامراته العجيبة :

يعتقد دون كيخوته أن صاحب إحدى الخانات الحقيرة قد عمده فارساً ، متوهماً أن ذلك الرجل هو سيد إحدى القلاع ، ويدرك أن كل فارس لابد له من تابع ، ولذلك يعود إلى قريته ويقنع جاراً ريفياً بديناً اسمه سانتشو بانزا (Sancho Panza) بترك زوجته وأولاده والركوب معه . وبالرغم من أن سانتشو كان يتمتع بالإدراك السليم ، فإنه يجتذب بالتفكير في مغامرات الفروسية . . على طول الطرق ، وفي الجبال ، ويحلم بالأسلاب الثمينة التى سيجمعها من انتصارات سيده . . ولا يداخله الشك في سيده لفترة طويلة على الرغم من تحققه

من طواحين الهواء التى كان دون كىخوته يراها كمردة شريرة . .
 فيندفع ليهاجم إحداها . . فتلقى به نصالها الدائرة وهو يئن ويتألم .
 ويدرك سانتشو أيضاً أن هذا قطيع من الأغنام ، فى حين يؤكد
 سيده أنه جيش مقبل عليهم ، فيشير سانتشو إلى أن قطيعين من
 الأغنام يقتربان من البقعة التى كانا يقفان فيها ، ويسأل سيده بوداعة :
 « ما الذى سنفعله يا سنيور ؟ » فيصيح دون كىخوته : « ماذا نفعل ؟
 يجب علينا مساعدة المحتاجين والضعفاء . واعلم يا سانتشو أن الجيش
 الذى يقترب أمامنا يقوده الإمبراطور العظيم « أليفانوفارون » (Alifan-faron)
 سيد جزيرة « ترابوبانا » الهائلة (Trapobana) ، أما الجيش
 الآخر الذى خلفنا فهو جيش عدوه بنتابولين (Pentapolin) ملك
 الجرامانتاس (Garamants) صاحب الذراع المرفوعة الذى يذهب
 دائماً إلى القتال وذراعه اليمنى عارية . ويسأل سانتشو : « ولماذا يكره
 هؤلاء السادة كلا منهما الآخر ؟ » ويجيب دون كىخوته : « إنهم
 يكرهون بعضهم بعضاً لأن أليفانوفارون ، ذلك الكافر المخرف ،
 يهيم بحب ابنة بنتابولين الجميلة الساحرة ، وهى مسيحية ، ولا يريد
 والدها تزويجها لملك كافر إلا إذا تخلى عن دينه واعتنق ديانتنا .
 فيصيح سانتشو غير مصدق عينيه : « قسماً بلحيتى إن بنتابولين على
 صواب . . ويجب على أن أساعده بكل ما فى استطاعتى » .

ويسير الفارس وتابعه إلى منحدر على أحد التلال حيث يشاهدون
 سحب الأتربة المتصاعدة ويستمر دون كىخوته فى ترديد أسماء الفرسان
 والنبلاء المشهورين الذين يركبون من خلال الضباب ويصف دروعهم

وأعلامهم وأسلحتهم المميزة . . ويعترف سانتشو المسكين الذى استبدت به الحيرة بأنه لا يستطيع رؤية أحد منهم ويقول : « لا بد أننا تحت تأثير سحر ! » .

غير أنه عندما يهاجم دون كيخوته قطيع الأغنام يبقى سانتشو ملازماً مكانه على المنحدر ، وبعد أن يقتل دون كيخوته عدداً كبيراً من الأغنام ويكاد هو يقتل بما يرجعه به الرعاة من الأحجار . . يهرول سانتشو إلى مكان الفارس الجريح ويقول له زاجراً : « ألم أخبرك أنك كنت مندفعاً لتهاجم قطعاً من الأغنام ؟ » .

وإنه لمن المؤسف أننا لا نستطيع متابعة البطلين عبر الطرق المتربة وخلال أدغال الغابات ، وفي الحانات الإسبانية القذرة . إننا نرى الواقع أمامنا كما يراه سانتشو بانزا . . ومع ذلك نكاد نفتنع مثله بأن ما يصوره خيال دون كيخوته المجنون أقرب إلى الحقيقة من ذلك الواقع .

وقد حظى سرفانتس بشهرة عالمية ، لأن دون كيخوته شخصية تمثلنا جميعاً . أما لوبي دى فيجا (Lope de Vega) فإنه ذو عبقرية خارقة كسرفانتس ، إلا أنه إسباني قح مما جعل اسمه أكثر شهرة من أعماله . . وقد قيل عنه إنه لو كان قد اقتصر على كتابة نصف ما كتب لتضاعفت شهرته ؛ لأن الناقد الأدبي يتردد في تكوين رأى عن أديب تنظم أعماله إلى وصلت إلينا ٤٧٥ مسرحية طويلة ثبتت صحتها ، و ٥٣ مسرحية أخرى يعتقد أنها له ، إلى جانب ٥٠ دراما

دينية من فصل واحد ، وآلاف الصفحات من القصص المنشورة ،
والتاريخ ، والشعر الروائي الطويل .

وقد كان لوبي بلا شك أكثر الأدباء الذين عرفهم العالم إنتاجاً ؛
ففي حياته الطويلة قدم ١٨٠٠ مسرحية مطولة من كل الألوان ،
منها الكوميديا والتراجيدية وكذلك كوميديا العباءة والسيف (comedia
de capa y espada) — وهي سلسلة طويلة من المؤامرات الحافلة
باختلاط الشخصيات والتنكر والمفاجآت ، وكان غالباً ماينتهي من
المسرحية في يومين ويكتبها بخط يده دون معاونة سكرتير أو مساعد .
وعندما أبحر مع الأرمادا كتب في وقت فراغه على ظهر السفينة شعراً
روائياً طويلاً من ١١ فصلاً . . وقد استمد موضوعاته من مصادر
كثيرة ، منها قصص الإنجيل ، وحياة القديسين ، والأساطير الإسبانية
وروايات الفروسية والحروب في إيطاليا وهولندا والجزائر ، والصراع
ضد العرب في غرناطة . ويكاد تصويره للحياة اليومية يشبه السينما
سكوب والسينما الملونة لشدة وضوحها ومطابقتها للحقيقة . . وكان
شعره المنظوم — يفقد رونقه بالترجمة — ناعماً وصافياً وساحراً .
أما آراؤه فقد كانت منعشة فياضة مشبعة بروح الخيال والوطنية
والمزاح والتهكم . وأحياناً نرى فيها عين العقل كهذه السطور من
كوميديته (العباءة والسيف) :

الرجال والطيور على حد سواء يلقنون دروساً في الكلام . ولكن
أحداً لم يقيم بتعليم الصمت بعد ، وإنه لخطأ كبير أن تشيد المدارس

التي تعلمنا الكلام ولا تكون لدينا مدرسة واحدة تستطيع أن تعلمنا الصمت .

وبالرغم من أنه لم تمثل مسرحية من مسرحيات لوبي باللغة الإنجليزية فقد ترجم بعضها إلى تلك اللغة وإلى الفرنسية والألمانية والبولندية ، وكثيراً ما تقدم هذه المسرحيات على المسارح الأوروبية ، كما أن المسارح الإسبانية—منذ عام ١٩٣٩ — كثيراً ما تقدم مسرحيات لوبي بالإضافة إلى أعمال أخرى للأدباء الذين عاصروه .

وهناك عدد آخر من كتاب الدراما في العصر الذهبي ومن بينهم بدوركالديرون دي لباركا (Pedro Calderon de la Barca) الذي عرف خارج إسبانيا أكثر من لوبي . وقد ترجم كثير من الشعراء الإنجليز صفحات من أشعاره المشرقة . . وإنك لتسمع كثيراً عن تحفته « الساحر العجيب » (Majico Prodigioso) وكذلك عن « الحياة حلم » (La Vida es sueno) .

وفي الدراما الأولى يبيع أحد العلماء روحه للشيطان ، ولكن الفتاة المسيحية التي يحبها تقوم بإنقاذه فيصبح مسيحياً ثم يستشهد معها . وتروى دراما « الحياة حلم » قصة أمير سجن منذ طفولته في برج منفرد بأمر والده الملك ؛ لأن المنجمين تنبأوا بأنه سيكون شريراً ومفسداً . وعندما يأمر الملك بإحضار الأمير التعس إلى البلاط — لفحص صدق أو بطلان هذه المزاعم — ينقل الأمير الشاب وهو نائم بعد تخديره . وعند استيقاظه يخبرونه بأن حياته السابقة ما هي إلا أضغاث أحلام . وعندما يتصرف بطريقة مليئة بالوحشية والخيلاء

ينحدر مرة أخرى ويعاد إلى سجنه بالبرج ، حيث يصرح حارسه على أن الحلم لم يكن سوى تجاربه في البلاط . . وفي النهاية عندما يعود إلى بلاط والده نراه رجلاً أكثر حكمة ودمائة خلق .

ولم يترك كالديرون نتاجاً أدبياً كبيراً إذا ما قورن بلوبي . فقد ألف نحو ١٢٠ مسرحية فقط وعدداً كبيراً من الـ (autos) أو الدراما الدينية ذات الفصل الواحد ، كما أنه كان أول من كتب الـ «سارسويلا» (zarzuelas) وهي مسرحيات كوميدية قصيرة تحفل بالغناء والرقص المبتنئين عادة على الموسيقى الشعبية القديمة .

وقد أصبحت هذه المسرحيات شعبية في إسبانيا منذ عهد كالديرون . . أما الآن فقد بدأت في التغير ؛ إذ قلت فيها الموسيقى الشعبية وزادت الإيقاعات الحديثة .

وهناك كاتب مسرحي ثالث ينتمي إلى هذا العصر وهو « تيرسو دى مولينو » (Tirso de Molino) . وقد ألف ٣٠٠ أو ٤٠٠ مسرحية . وإننا لتذكره من أجل مسرحية واحدة بوجه خاص هي (El Burlador de Seville) أو (The Gay Deceiver of Seville) « مخادع أشبيلية المرح » التي قدمت للعالم شخصية « دون جوان » العاشق العظيم الشجاع الذى لا يقيم وزناً للمبادئ ، والذي لا قلب له . وقد « اقتبس » الملحنون والأدباء الفرنسيون والإيطاليون والإنجليز والنسويون شخصية « دون جوان » الذى استمر سحره بالنسبة إلى الإسبان أيضاً منذ عهد تيرسو .

ومنذ أكثر من مائة عام بقليل جعله خوزيه زوريلا (Jose Zorrilla) الأديب الإسباني بطلا لمسرحيته (Don Juan Tenorio) وفيها ينقذ دون جوان من الجحيم التي قادتة إليها خطاياها بحب دونا أنيس (Dona Ines) الفتاة الطاهرة . وقد حظيت هذه المسرحية بشعبية كبيرة بين الناطقين بالإسبانية ، حتى إنها تقدم كل عام منذ أكثر من قرن على مسارح إسبانيا وأمريكا اللاتينية في الأيام الأولى من شهر نوفمبر قرابة الاحتفال بـ «يوم إنقاذ الأرواح» (All Soul's Day) الذي يتلو فيه الكاثوليك صلوات خاصة طالبين المغفرة لموتاهم .

لم يكن العصر الذهبي غنياً بأدبائه فقط . . فقد ظهر فيه عدد كبير من الرسامين الذين حظى بعضهم بشهرة عالمية . ولكن من أعظمهم ثلاثة شاعت لوحاتهم في غالبية الدول ، وهم : الجريكو (El Greco) ، وبيلاثكث (Velasquez) ، وموريلاو (Murillo) .

(واسم الجريكو الحقيقي هو « دومنيكوس تيوتو كوبولوس (Domenicos Theotocopoulos) ولكنهم يسمونه « اليوناني » من باب الاختصار ؛ لأنه ولد في جزيرة « كريت » اليونانية . وقد وفد الجريكو إلى إسبانيا بعد أن تلقى دراسته في إيطاليا على يد أعظم الفنانين عام ١٥٧٥ ، وأقام في طليطلة حيث أمضى الأعوام الأربعين الباقية من حياته . وإذا رأيت إحدى لوحاته فإنك لن تخطئ قط في تمييز لوحاته الأخرى ؛ لأنها كلها على النمط الذي تمتاز به عبقريته الغربية : الوجوه المسنونة ، والأجسام الطويلة الملتوية لصور الأشخاص ، ثم الألوان القائمة الغريبة والشعور بالتشاؤم الذي يخيم

على المناظر الطبيعية كما لو كانت عاصفة مرعدة على وشك الهبوب .
وهناك لوحات عديدة لألجريكو فى الولايات المتحدة ومن أشهرها
لوحته عن طليطلة التى يحتفظ بها متحف المتروبوليتان من مدينة
نيويورك . فإن الفنان لم يصور طليطلة كالمدينة ذات الألوان البنية
الدافئة والأسقف الفخارية كما هى عليه حقيقة . ولكنه حولها إلى
مكان ذى ألوان خضراء غير طبيعية ومبان بيضاء مشوبة بالانخضرار
وتناسب استحكاماتها خلال المروج الهزيلة الخضراء تحت سماء مبرقشة
باللون الأسود المخضر والأزرق المخضر . . إلى النهر الذى تناسب
مياهه اللزجة المخضرة . إنك لن تنسى لوحته عن طليطلة إذا رأيته
مرة واحدة .

ويحوى متحف برادو (Prado) فى مدريد ثروة من الأعمال الفنية
من مختلف البلاد والعصور . ومع ذلك فلا شك فى أنك ستبهر فى
زيارتك الأولى لهذا المتحف بأعمال فنان واحد هو بيلاثكث . .
الذى يضم المتحف معظم نتاجه أو مايقرب من ٥٠ لوحة . وقد نخلد
بيلاثكث بلاط الملك فيليب الرابع كما لم يخلد فنان بلاط أى ملك
آخر . فهناك سبع لوحات لفيليب نفسه وعديد من اللوحات الجميلة
لدون بالتازار كارلوس (Don Baltasar Carlos) ابن فيليب الأكبر
الوسيم الذى مات وهو فى السادسة عشرة ، ولوحات عديدة أخرى
لابنته مارجاريتا تيريزا (Margarita Teresa) ولوحات أخرى لأفراد
الأسرة المالكة ورجال البلاط . كما توجد لوحات جذابة رائعة
لأقزام البلاط .

ولم يوجد فنان يضارع بيلاثكث في الرسم ، أو في استخدام الألوان ، أو في سحر الأضواء والظلال . كما لم يوجد له نظير في دقة ملاحظته ، أو في نقل ما تراه عيناه إلى لوحاته بيد لا تخطئ .

وتحفته (Las Meninas) أو « وصفات الشرف » معلقة بمفردها في إحدى الغرف ، وتعكس مرآة ضخمة معلقة على الجدار في مواجهة اللوحة لمشهد كما رآه الفنان تماماً من مرآة عند رسمه له . وقد ظهر هو بنفسه في الصورة أيضاً إلى اليسار يواجهك في أثناء وقوفك وأنت تتطلع إليه .

ويبدو السحر في تيه هذه المرايا الحقيقية المرسومة . . وتشعر أنك مثل أليس تنتقل خلال المرآة التي تتطلع إليها إلى عالم آخر هو بلاط فيليب الرابع ، وتظهر أمامك الأميرة الشقراء الصغيرة مارجاريتا تيريزا نابضة بالحياة ، حتى إنك لتشك أنها مرت بجانبك منذ لحظة في ثوبها الأبيض الحريري . وتشاهد وصفاتها الرشيقا وتتملكك العجب من منظر القزمين القبيحين ، وتشعر بميل إلى كليها الكبير الذي يرقد أمامها ، وينساب ضوء من النافذة إلى يمينك على وجوه الأميرة وتابعيها ، ثم يتدفق الضوء من خلال باب مفتوح في النهاية البعيدة للاستوديو الفسيح ، في حين تنشر الظلال تراباً فضياً في الأجزاء الأخرى من الحجرة .

وتنعكس صورة الملك فيليب وزوجته الملكة ماريانا (Mariana) انعكاساً خافتاً على مرآة على الجدار الخلفي للحجرة التي علقت فيها

الصورة ، فيبدوان وكأنهما وقفا إلى جـوارك تماماً لكي يظهر في المرأة ، بل إنك لتكاد تتوقع أن ترى خيال صورتك منعكساً مع صورتها .

وقد ولد كل من بيلاثكث وموريللو وترعرعا في أشبيلية ، ولكن بيلاثكث يكبر موريللو بـ ١٨ سنة ، وارتفع شأنه حتى أصبح رساماً للبلاط في الوقت الذي توجه فيه مواطنه الصغير إلى مدريد فقيراً لا يعرفه أحد . وقد أظهر بيلاثكث مودته لموريللو بطرق شتى ، ولكنه لم يؤثر في أسلوبه . فبينما جعل بيلاثكث الناس في هذا العالم يعيشون في نفس عالمهم ، نجد أن العذراء والملائكة والقديسين في لوحات موريللو تبدو كبشر أيضاً ، ولكنه يضيف عليهم طلاوة ومرحاً حتى إنهم ليبدون من غير عالمنا الأرضي . وربما رأيت لوحته الساحرة عن العذراء وهي صاعدة في طريقها إلى السماء في صحبة عدد من صغار الملائكة المعجبين بها .

ويضم متحف برادو نحو ٤٠ لوحة من لوحات موريللو ، ولكن أشبيلية هي مدينته ومسقط رأسه وهو فنانها المفضل . ومن ثم فإنك لتجد كثيراً من لوحاته هناك في الكاتدرائية وفي غيرها من الكنائس والمباني .

وتزور منزله الذي يقع في ميدان صغير في الحى القديم . . وعندما تجد لوحة لموريللو لا يعالج فيها موضوعاً دينياً فإنها ، توحى لك بأشبيلية : بأطفالها ذوى الملابس المهلهلة وهم يأكلون البطيخ والعنب

أو الخبز ، الذين ربما يكون نظر موريللو قد وقع عليهم في أحد
الأحياء التي تزدحم بالغوغاء بالقرب من النهر .

وعندما تسير — حتى اليوم — خلال بعض الشوارع الضيقة
في أشبيلية في وقت متأخر بعد الظهر ، وقد تلوّنت الظلال بالألوان
البنية والرمادية الذهبية التي كان موريللو يميل إلى استخدامها ، فإنك
تكاد تتوقع وأنت تتطلع إلى إحدى النوافذ أن تشاهد إحدى الفتيات
ذوات الوجه المرح الضحك التي صورها لنا موريللو بكل ما تحتويه
من نضارة وجمال .

الوصمة : محاكم التفتيش

لقد سمعنا جميعاً بمحاكم التفتيش ، تلك المحاكم التابعة للكنيسة الكاثوليكية التي أنشأها فرديناند وايزابلا في إسبانيا ، بعد أن أذن لهما البابا بذلك على مريض ، لمحاكمة وإدانة أى شخص لا تتفق معتقداته وسلوكه مع التعاليم الصارمة لمذهب الدولة . ولقد كان هناك ما يسمى بمحاكم التفتيش في أوروبا منذ القرن الثالث عشر ، ولكن محكمة التفتيش الإسبانية كانت أكثر نشاطاً وأشد في أحكامها من سابقتها ؛ فقد كانت تمثل مخططاً قومياً لإسبانيا . إذ كانت الملكة ايزابلا تنظر إليها على أنها وسيلة للإبقاء على إخلاص الكاثوليكين للكنيسة ، وكان فرديناند يراها سلاحاً سياسياً قوياً ؛ ففي تلك الأيام كان الحاكم يسيطر على الكنيسة ، وكان من الممكن أن يعتبر عدو الحكومة عدواً للكنيسة ، فيقدم إلى محكمة التفتيش لمعاقبته .

وربما كان فرديناند وايزابلا وكبار رجال الكنيسة المقربين إليهم يعتبرون محكمة التفتيش وسيلة مناسبة لإنقاذ الأرواح والإبقاء على إسبانيا قوية وموحدة ، ولكن البلاد في مجموعها لم تشاركهم في حماسهم لهذا الرأي . فعندما أمر فرديناند رعاياه في أرغون وبلنسية وقطالونيا باستقبال رجال محكمة التفتيش ومساعدتهم في إقامة المحكمة رفضوا

ذلك سواء أكانوا من رجال الدين أم من غيرهم من الرجال العاديين . واحتجت قطالونيا بوجه خاص ، وتشاحت مع فرديناند ثلاثة أعوام كاملة قبل أن تسمح له بتأسيس محكمة التفتيش في مدينة برشلونة .

ولا يمكن الدفاع عن محاكم التفتيش التي سطرت أسود الصفحات في تاريخ إسبانيا . . ولكننا نفسرها - إلى حد ما - بأنها كانت أطول وأعنف حالة وباء تميز بها ذلك العصر . ولم تنفرد إسبانيا والكنيسة الكاثوليكية بالقسوة والتعصب ؛ إذ انتقلت عدوى الظلم والتعسف إلى سائر المذاهب والبلاد في أوروبا ؛ ففي ألمانيا اشترك أتباع لوثر مع الكاثوليك في اضطهاد بعض طوائف البروتستانت مثل المورافيين والدنكارديين الذين هرب كثير منهم إلى الولايات المتحدة طلباً للحرية . وفي سويسرا أحرق جون كالفن (John Calvin) الزعيم البروتستانتي الشهير - الطبيب الإسباني ميغيل سرفيتو (Miguel Serveto) أو سرفيت (Servet) بدعوى الهرطقة ، وهو الذي ينسب إليه بعضهم اكتشاف الدورة الدموية . وفي فرنسا وإنجلترا مات الكاثوليكيون والبروتستانت على حد سواء في سبيل معتقداتهم .

وقد اختارت محاكم التفتيش صليباً أخضر رمزاً لها . . وكانت إسبانيا كلها ترتعد خوفاً من منظره . وقد تعرض أناس من كل طبقات المجتمع لمواجهة هذه الهيئة الرهيبة . ومنهم رجال الكنيسة الذين لم يوافقوا على كل تفاصيل المذهب ، واليهود الذين اعتنقوا المسيحية ولكن إخلاصهم للعقيدة كان موضع شك ، والرجال والنساء

المهووسون الذين يزعمون نزول الوحي عليهم خلال الرؤى ، أو يدعون النبوة ، والبحارة البريطانيون والهولنديون الذين أسرت سفنهم في أثناء إغارتها في أعالي البحار أو سطوها على شواطئ أمريكا . ومن آن لآخر كانت تحاكم الكتاب والرسامين على الرغم من أنه لم يعرف أنه قد حكم على كاتب أو فنان واحد بالإعدام . ولم يكن للمحاكم سلطة على أهالي أراضى الهند الغربية ، كما أنها لم تحفل بالغجر الذين يهيمون في شبه الجزيرة بالرغم من استهزائهم بالدين ومعيشتهم بطريقة شائنة علنا .

وقد كان من عادة مختلف أنواع المحاكم في أوروبا خلال القرون الخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر استعمال التعذيب لاستخلاص الاعترافات من الأشخاص المتهمين في الجرائم . وحدث محاكم التفتيش حذوها لكن دون أن تكون أشد قسوة من المحاكم الأخرى . غير أن مثل هذه الإجراءات تعتبر منافية للمسيحية ومخجلة في محكمة دينية . وكانت سلطات محاكم التفتيش لاحد لها ، فكان في إمكانها الأمر بالقبض على أى شخص وزجه في السجن شهوراً ، أو ربما سنوات ، قبل أن تستدعيه للمحاكمة ، وهى لاتجد نفسها ملزمة بإبلاغه بما هو متهم به أو بمن اتهمه حتى يحاكم . ومع ذلك فقد كان مسموحاً له بكتابة قائمة بخصومه ، وكانت الشهادة التى يدلى بها أى واحد من هؤلاء لا تستخدم ضده . وكانت المحاكمة تعقد سرية في النهاية ، وإذا رفض سجين الاعتراف بالجريمة المنسوبة إليه فكثيراً ما كان التعذيب يرغمه على تغيير شهادته . وكان المفروض

أن يعيد اعترافه عندما ينتهى التعذيب ، فإذا لم يفعل ذلك فقد يعاد تعذيبه مرة ثانية وثالثة ورابعة .

ومن المحتمل أن يطلق سراح المتهم عندما تنتهى المحاكمة ، وربما كان كل ما يدان به هو القيام بالحجج إلى أحد الأضرحة تكفيراً عن خطاياهم ، أو قد يلزم بارتداء قميص أصفر رسم عليه صليب أحمر للدلالة على أنه قد أخطأ ثم تاب إلى رشده ، وفى بعض الأحيان كان يحكم عليه بالسجن لمدة ٦ أشهر ، أو سنة ، أو ١٠ سنوات ، أو بقية حياته . أما إذا حكم عليه بالإعدام فإنه يحال إلى السلطات المدنية التى تقوم بتنفيذ الحكم .

وقد كانت الإجراءات الرسمية المتعلقة بالحكم على السجين ومعاقبته تسمى « حكم الدين » ، وكان يحتفل بها احتفالاً كبيراً ، وتجذب كثيراً من المتفرجين الذين كانوا يعتبرونها من أحسن ما يمكن مشاهدته من أنواع الدراما المثيرة . وفى القرنين الخامس عشر والسادس عشر كان الناس يندفعون بالآلاف إلى الميدان الرئيسى للبلدة أو المدينة ليروا رجال محاكم التفتيش عند وصولهم فى موكب مهيب ، ثم لمشاهدة المتهم وقد اقتيد إلى وسط الميدان ، ثم لسماع النطق بالحكم ، وهذا هو أول فصول الدراما . أما الفصل الثانى ، أو تنفيذ الحكم على المحكوم عليه ، فيتم فى اليوم التالى - مرة أخرى أمام حشد كبير من المتفرجين المهتمين . وكثيراً ما كان الملك فيليب يحضر مثل هذه المشاهد ، التى منها المحاكمة التى عقدت فى بلد الوليد حيث أحرق

ثمانية عشر شخصاً بدعوى الهرطقة . وفي مرة أخرى في أحد أيام يونيو الحملة اصطحب أطفاله إلى مدينة طليطلة لحضور الحكم بمائة جلدة والسجن لمدة سنة على رجل ادعى أنه تحضره رؤى وأنه يستطيع معرفة الغيب .

لقد كان العذاب والبؤس والموت أشياء تشد نفوس الإسبان إليها دائماً ، كما نلاحظ ذلك بوضوح تام في فنونهم وآدابهم وتاريخهم . كما أن عبقرية الإسبان في تحمل المشاق وشجاعتهم التي لا تكاد تقهر تظهر في عدم مبالاتهم بالألم وتجردهم من الشفقة على الذين يتألمون أو يعذبون .

وقد أصبح اسم أول رئيس لمحاكم التفتيش (رئيس القضاة) رمزاً للتعصب والقسوة . فقد تسبب هذا الرجل « توماس دى توركيمادا » (Tomas de Torquemada) في إحراق ستة آلاف كتاب مريب ، أو مؤيد للإلحاد ، في يوم واحد في أشبيلية . وخلال الثمانية عشر عاماً التي كان فيها رئيساً للقضاة حوكم أمامه أكثر من مائة ألف منهم . وقد ثار الجدل بين المؤرخين حول عدد الذين حكم عليهم بالإعدام . فيقول بعضهم إنهم لا يزيدون على تسعين شخصاً ، ويدعى آخرون أنهم أربعة آلاف ، ويرتفع بعضهم بعدد الضحايا إلى تسعة آلاف . ولعل مرجع هذا اللبس أن كثيراً من الذين كانوا على وشك القبض عليهم لمحاكمتهم أمام محاكم التفتيش تلقوا إنذاراً في الوقت المناسب فهربوا من إسبانيا . وبالرغم من غيابهم فقد

حوكموا ، وإذا صدر الحكم بإعدامهم فقد كان يتم إحراقهم على
هئية دمي .

وبالرغم من أن محاكم التفتيش لم تنته رسمياً في إسبانيا إلا في عام
١٨٣٤ ، فإنها كانت قد تضاءلت قبل ذلك بمدة طويلة حتى أصبحت
ظلاً لكيانها المخيف السابق . والواقع أنها فقدت سلطانها بنهاية القرن
السابع عشر ، ولم يعد أحد يسمع عنها إلا في القليل النادر بعد ذلك ! .

الفصل التاسع .

الطلاء الفرنسي - البوربون

عندما توفي شارل الثاني آخر ملوك أسرة هابسبورج في إسبانيا عام ١٧٠٠ ارتقت أسرة مالكة جديدة - البوربون - عرش البلاد . وأول ملوك هذه الأسرة هو فيليب الخامس الذى كان جده من أسرة البوربون هو ملك فرنسا لويس الرابع عشر .

ولم يكن لشارل الثاني المسكين الضعيف العقل ولى للهد من صلبه ، ولذلك أوصى بتاج إسبانيا الذى ترجع أحقيته له إلى جدته الإسبانية . ولعلك تذكر جهاز العرش البديع الصنع الذى أخذته معها تلك السيدة الصغيرة عندما نزلت إلى فرنسا لتزوج .

ومع ذلك فقد كان هناك مطالب آخر بالعرش هو الأرشدوق شارل النمساوى من أسرة هابسبورج الذى كان وثيق الصلة بهذه الأسرة التى ظلت تحكم إسبانيا نحو مائتى سنة .

وعندما أصبح فيليب الخامس ملكاً على إسبانيا وهو فى السابعة عشرة من عمره ، وجد نفسه فى حرب مع الأرشدوق شارل وحلفائه - إنجلترا والنمسا وهولندا ومقاطعة قطالونية الإسبانية . وبالطبع كانت فرنسا فى صف فيليب ، وكان الصراع باهظ النفقات وفى نهايته احتفظ فيليب بالتاج ، ولكن إسبانيا فقدت أقاليم هامة

في أوروبا . وكان أكثرها مبعثاً للإذلال استيلاء إنجلترا على جبل طارق — تلك البقعة الثمينة من الأراضي الإسبانية . وما زالت إنجلترا تحتفظ به منذ ذلك الحين ، جارة كبرياء إسبانيا في الصميم .

أما قطالونية فقد عقدت صلحاً مع الملك فيليب ، ولكنه ألغى حقوقها القديمة في الحكم الذاتي وأعلن حظر استعمال اللغة القطالونية في الحياة العامة .

وكان فيليب الخامس ملكاً أفضل من سابقيه من أمثال فيليب الرابع أو شارل الثاني من أسرة هابسبورج . لأنه أجرى بعض التنظيم في الحالة المالية المضطربة التي كانت موجودة . كما أنه قام بتحسين أحوال البلاد ببناء الجسور والطرق الجيدة التي لم يكن القديم منها سوى دروب غير ممهدة . كما أنه عمل على نظافة مدريد التي كانت حتى ذلك الوقت مكاناً موحلاً قذراً ، وشيد عدداً كبيراً من المباني الفخمة ، ومن بينها القصر الملكي في مدريد وقلعة « لا جرانخا » (La Granja) التي تقع على بعد أميال قليلة من مدينة شقوبية (Segovia) .

وقد سببت أفواج المتشردين الذين لا يخضعون للقانون ممن كانت تعج بهم المدينة انزعاجاً كبيراً للملك ، مما حدا به إلى إصدار أوامره بإلحاق كل الرجال الصالحين للخدمة العسكرية بالجيش ، وإرسال المرضى والعجزة منهم إلى المستشفيات والملاجئ .

وإذا قارنا قلعة « لا جرانخا » بمبنى الأسكوريال الكتيب الذي شيده فيليب الثاني ، فإننا ندرك التغيير الكبير الذي طرأ على حكام

إسبانيا بقدم فيليب الخامس . فقد شيدت هذه القلعة التى تقع على بعد ٧٠ ميلا شمال غربى مدريد على الطراز الفرنسى . وهى تشبه قصر فرساي الواقع بالقرب من باريس . ويعتقد بعض الناس أنها أكثر جمالا وروعة من قصر فرساي ، لأن حدائق قصر فرساي تقع فى منطقة منبسطة ، فى حين أن أراضى لاجرانخا الخضراء ذات السياجات المقلمة والمشايات المورقة والطرقات التى تحفها التماثيل والنافورات الجميلة تشاهد من خلال سحرها البديع قمم جبال « جواداراما » (Guadarrama) المقفرة التى تغطيها الثلوج حتى فى أوائل الصيف .

وقصر « الأسكوريال » رغم فخامته موحش أشبه ما يكون بالقبور ، أما قصر لاجرانخا فله طابع دنيوى بهيج منعش : وكل قصر منهما يرمز إلى الملك الذى شيده . فلم يشارك فيليب الخامس فيليب الثانى فى معتقداته عن الموت والأبدية ، أو فى تهوسه الدينى المتقد . فقد كان فيليب الخامس أقل تعصباً من أسلافه فسحب بعض السلطات التى كانت لحاكم التفتيش وأعاد الحياة إلى المدارس والجامعات التى كانت كلها تحت وطأة الرقابة الصارمة ، وسمح للإسبان مرة أخرى بالسفر إلى الخارج للدراسة ، كما يجلب الكتب الفرنسية وغيرها من الكتب الأجنبية الأخرى إلى البلاد ، واختلط الإسبان المستنيرون بصفوة العقول المفكرة الأجنبية والعلماء فى البلاط الملكى . ومع ذلك فإن هذا الحديد من الأفكار المتحررة

لم يؤثر في غالبية الشعب الذين ظلوا راسخين في أعمال عاداتهم وخرافاتهم القديمة .

ونستطيع أن نصف القرن الثامن عشر في إسبانيا بطبقة من الطلاء الفرنسي البديع تغطي المزاج الإسباني الحديدي . وقد ازدانت هذه الحلقة بالكتاب والرسامين والمهندسين المعماريين الموهوبين ، ومع ذلك فإن عبقرية إسبانية صميمة قد انبثقت خلال ذلك الطلاء الصناعي من الأساليب الفنية الفرنسية بجنوة مرهفة الإحساس . فقرب نهاية هذا العصر عبر الفنان فرانسكو جويا بدقة عن مشاعر الإسبان القوية نحو الحياة ، وهي مليئة بما يبكى وما يضحك .

وعلى الرغم من أن فيليب وولديه اللذين حكما من بعده قاموا بإصلاح الأحوال الاقتصادية في إسبانيا فقد تسببت سياستهم الخارجية في اضطراب جديد . . لأنهم أشركوا بلادهم في حروب خارجية استمرت معظم القرن الثامن عشر : حروب مع إنجلترا والنمسا وهولندا والبرتغال . وقبل نهاية ذلك القرن كانت إسبانيا قد فقدت كل إمبراطوريتها الأوروبية ما عدا جزر البليار وجزر كناري .

أما القرن التاسع عشر الذي حل وعلى عرش إسبانيا شارل الرابع - حفيد فيليب - فقد جلب على البلاد من الدمار والمهانة ما لم تشهده في القرن السابق .

وقد بدأ فجر هذا القرن تحت ظل أطماع نابليون بوناپرت في السيطرة على العالم بأسره . وبدلاً من وقف نابليون شمال جبال

البرانس ، أخذ شارل وابنه فرديناند يحوكان الدسائس ويدبران المؤامرات معه ، إلا أن نابليون فاقهما في الدهاء ، وانتهى الأمر بأن قبض على ناصية الأمور في إسبانيا . وتعد المسألة كلها مزيجاً من الطمع والغباء والحبث .

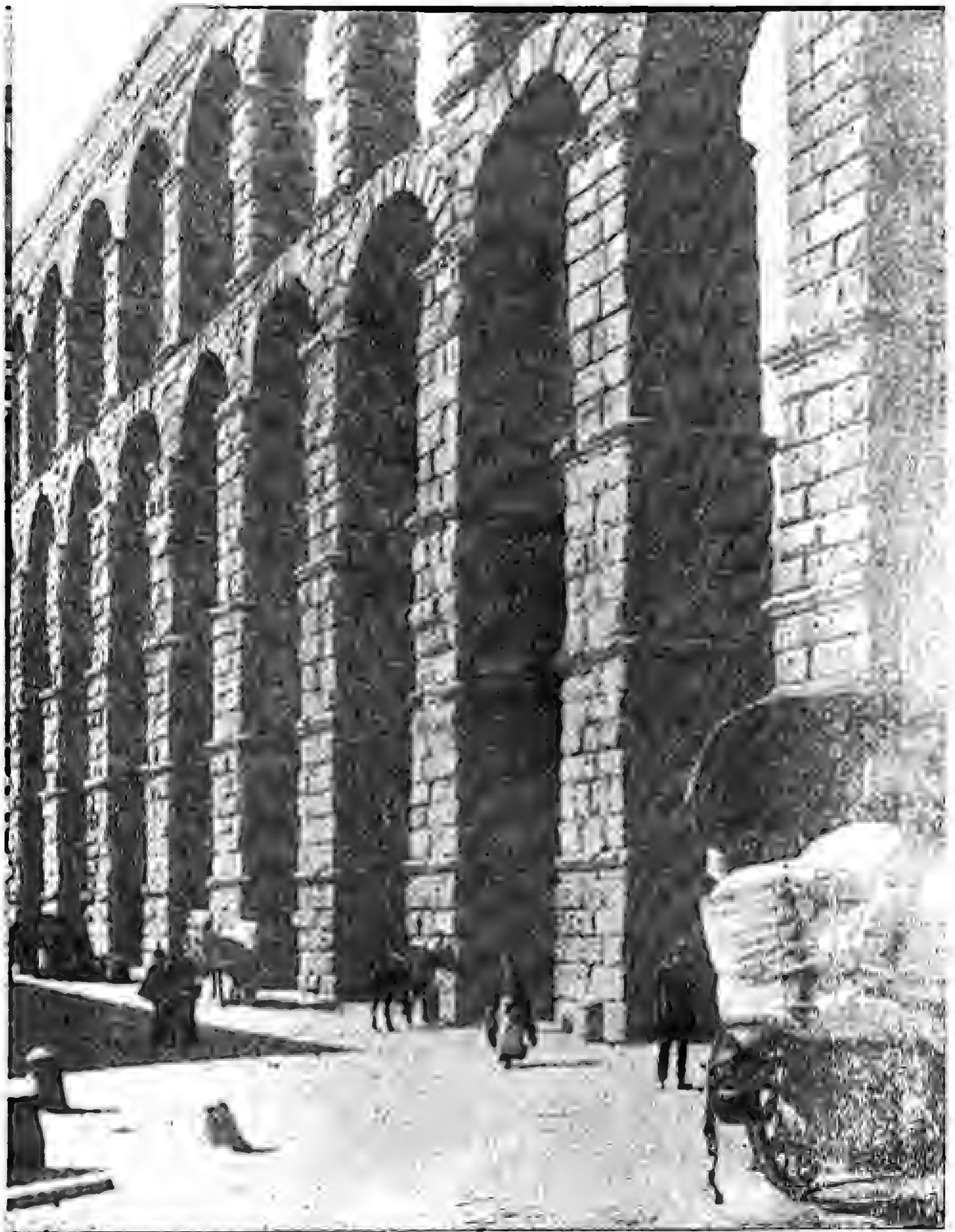
وإذا نظرت إلى هذا الموضوع كقصة مشوقة فإن لوحات جويا عن الشخصيات الرئيسية في المكيدة كلها - باستثناء نابليون ذاته - قد عبرت عنها بصورة مذهشة . انظر إلى صور شارل الرابع العديدة التي رسمها جويا والمعلقة في متحف برادو بمدريد ، تجده يبدو على شيء كبير من الابتذال والغباء ، فضلاً عن الغرور الذي ينعكس مما يحيط به جسمه من النياشين المرصعة بالجواهر . وانظر إلى زوجته الملكة ماريا لويزا (Maria Luisa) تجد عينيها الضيقتين تحملقان من خلال شعر كث . وقد قال نابليون إن شخصيتها غير المعقولة تبدو بجلاء على وجهها . وحتى ابنها الصغير فرديناند يبدو على وجهه الحسة والحبث . وقد أطلق الإسبان على فرديناند في بداية الأمر لفظ « المبتغى » (The Desired) ، ولكن هذا اللقب تحول إلى نوع من السخرية ، إذ لا يوجد شعب يمكن أن يبتغى حاكماً في مثل حقارته . وأخيراً هناك الصورة التي رسمها جويا لجودوى (Godoy) الأثير لدى الملكة ، ذي الوسامة المبتذلة . ولكنه لم يكن ذا قدرة كافية تجعله ينجح كرئيس للوزراء . قارن هؤلاء برسوم بيلاثكث (Velasquez) لفيليب الرابع وأسرته التي يبدو فيها الملك والملكة ماريانا وأطفالهما

على قدر كبير من الوقار والأناقة ، في حين تبدو تلك الأسرة المالكة التي جاءت بعدهم سوقية ورخيصة .

وبقدر ما كانوا سوقيين ورخيصين كانوا أغبياء ، لا يفكر أحد منهم إلا في نفسه ، ويشترك كل منهم في تدبير المؤامرات من ناحية والعمل على إحباط المؤامرات التي تدبر ضدهم من ناحية أخرى . وأخيراً وقع الملك والمملكة في شباك نابليون ليقتضيا بقية حياتهما في المنفى ، وكذلك جودوى ، على حين أمضى فرديناند خمس سنوات في سجن بإحدى القلاع الفرنسية خلال الفترة التي كان يحاول فيها جوزيف شقيق نابليون أن يستقر على عرش إسبانيا المتأرجح . وقد نعت الإسبان جوزيف بنعوت سيئة ربما كان أخفها وصفهم له « جوزيف الزجاجة » لكثرة ما كان يشرب من النبيذ .

وفي الوقت الذي أغوى فيه نابليون شارل وفرديناند وجودوى بعبور الحدود إلى فرنسا ، كان هناك سبعون ألف جندي فرنسي قد دخلوا إسبانيا فعلا .

وفي الثاني من مايو عام ١٨٠٨ تردد بين أهل مدريد أن نابليون أصدر أمراً بإرسال من تبقى من أفراد الأسرة المالكة في مدريد إلى فرنسا ، ليُجمع الأهالي حول مركبة الدون فرانسيسكو — وهو أمير في الثالثة عشرة من عمره — عندما علموا أنه لا يرغب في مغادرة مدريد ، وأنه يبكي بكاء مرّاً من التفكير في أنه سينفى ، واستطاع الأهالي فك أعنة جياد المركبة وأطلقوا سراح الجياد . وإزاء هذا قامت



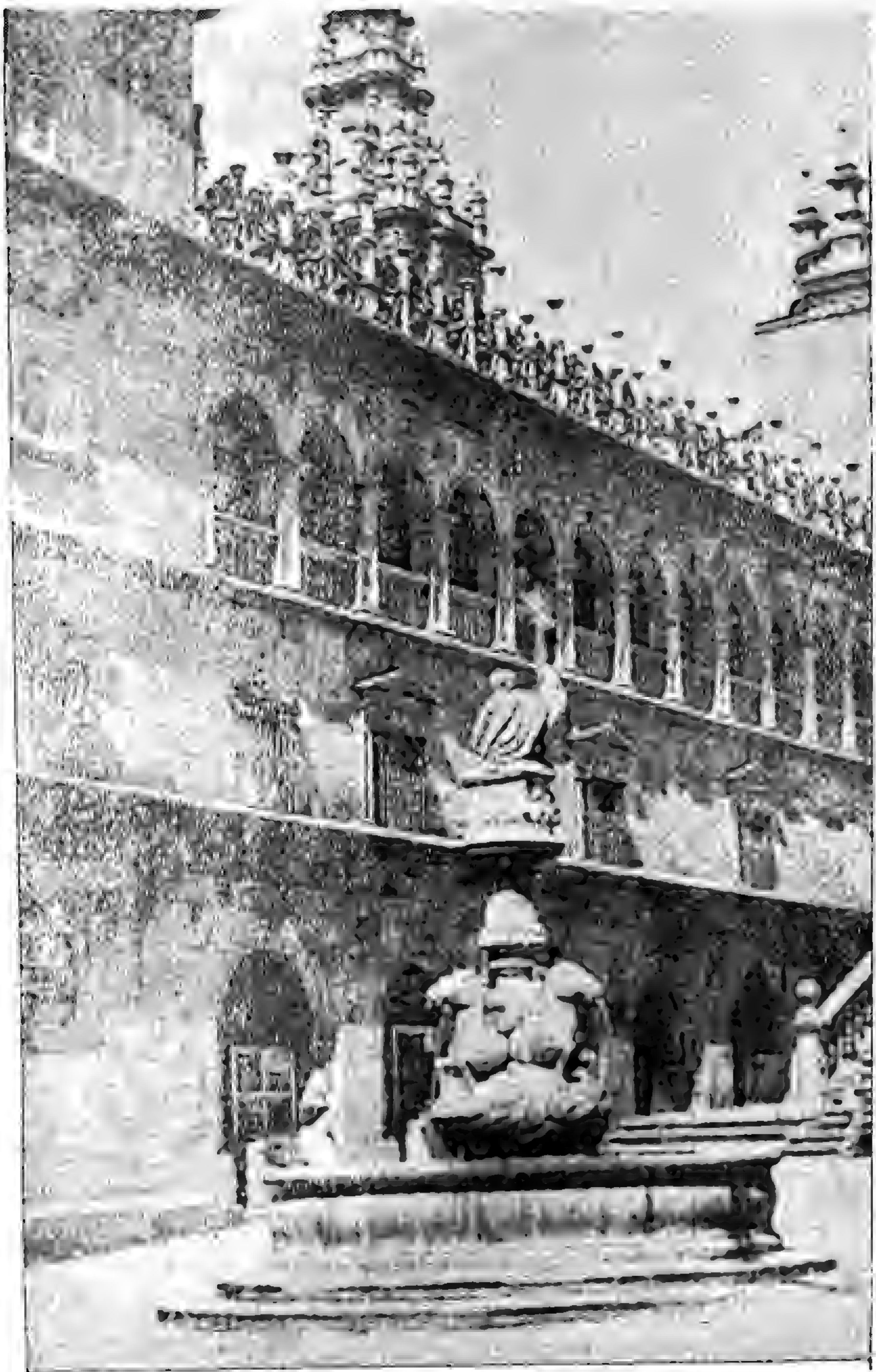
القناطر الرومانية لنقل المياه في شقوبية



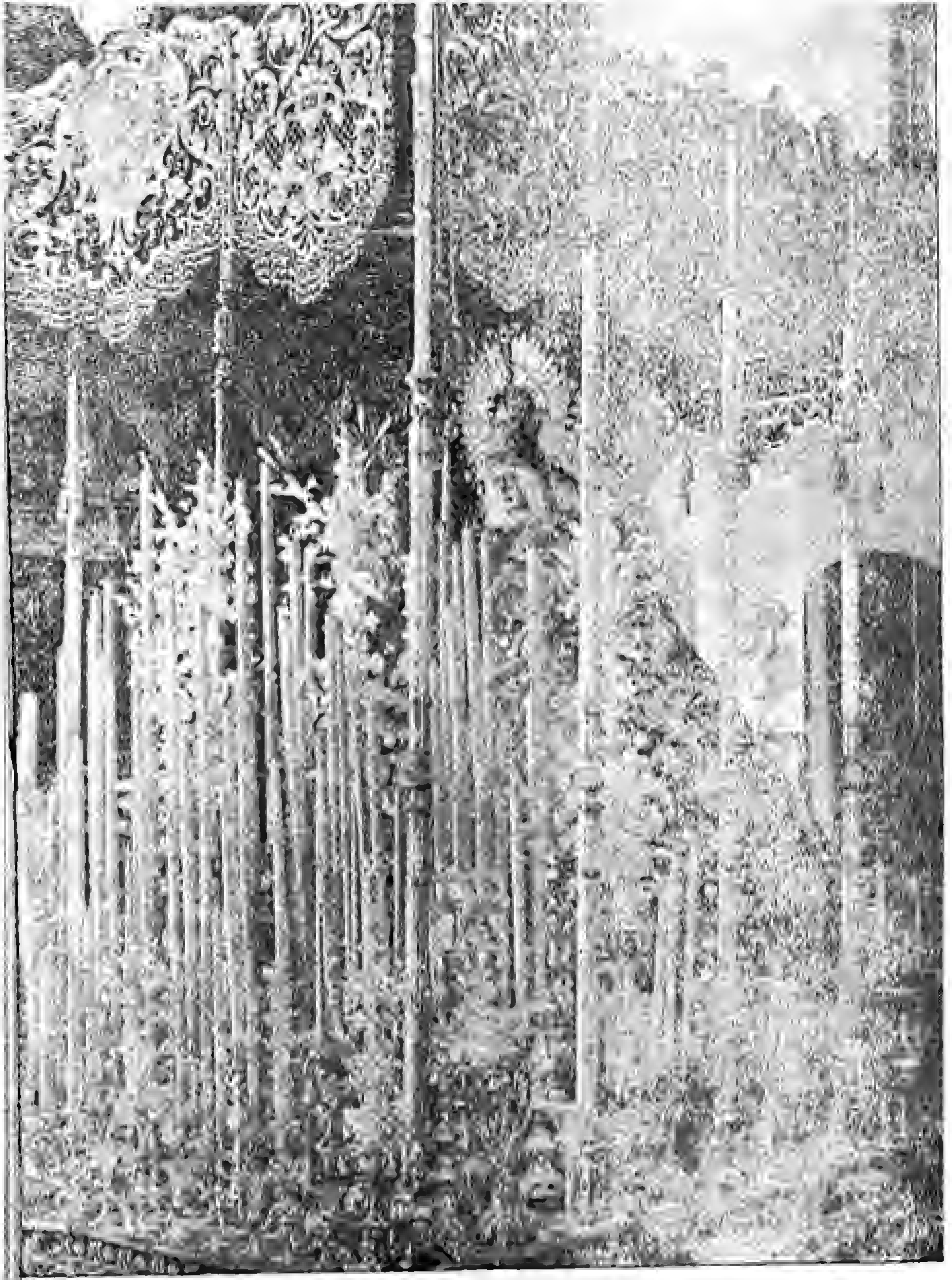
منظر طبيعي بالقرب من « خادراكي » في قشتالة الجديدة



طريق القلعة الفسيح في مدريد



صحن كاتدرائية سانتياجو دي كومبوستيلا
ويتمثل فيه فن العمارة في عصر النهضة



احدى المنصات التى تحمل تمثال العذراء فى احتفالات الاسبوع المقدس بأشبيلية .



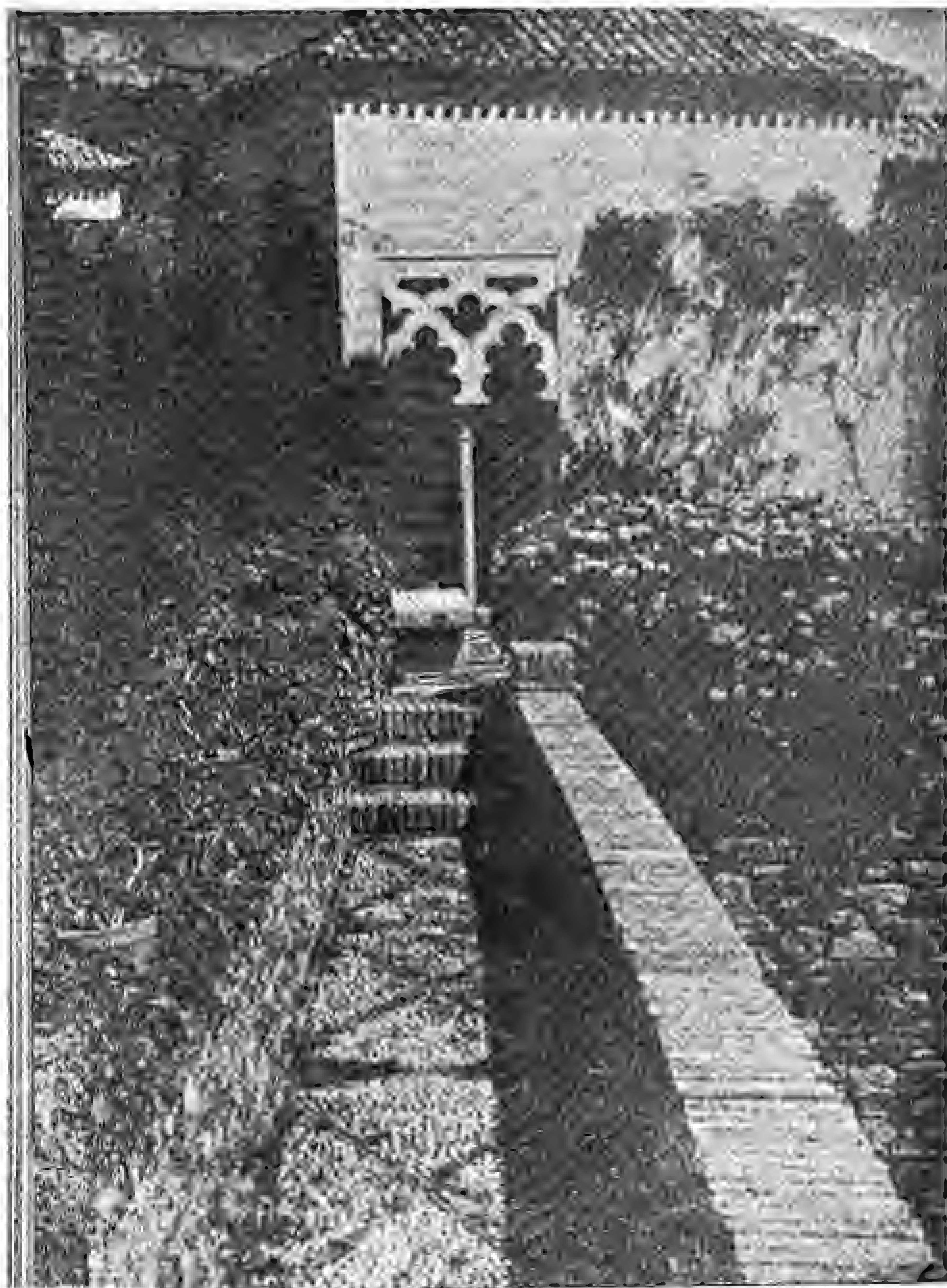
نمار البطيخ تنفسج فوق سقف احد الأضرحة في احدى قرى السيد ومقابر طليعة



منظر من جبل الشيخ في لبنان



مدخل منزل في مدينة « خيريس دي لافرونشيرا » وقد زين بالدروع التقليدية للأسرة .



حديقة عربية في مالقة



كاتدرائية أشبيلية يعلوها برج الأجراس



لربية الأغنام ونسج الصوف من الحرفا الهامة في تشيالة القديمة



كاندراية سلطنة



ميناء « فيجو » بمقاطعة جليقية



درس القمح بطريقة بدائية في مزرعة بالقرب من «بورجوس»



الشباب الاسباني اذ يقد الى أشبيلية في موسم اعيادها في شهر إبريل



منظر أحد الطرق في «أورلانة» - بجلبقية

القوات الفرنسية بالهجوم على الأهالي مستخدمة المدافع والبنادق ، وقاوم الأهالي بالهراوات والأحجار والمدى . ثم قام ضابط إسباني في حامية مجاورة بتسليحهم بالبنادق التي استخدموها في المعركة : غير أن جنود فرنسا المدربين استطاعوا في النهاية إخماد هذه الحركة ، وأعدم زعمائها وكثيرون غيرهم على الفور . ومع ذلك فقد بدأت الحركة ضد الاحتلال . ويعد اليوم الثاني من مايو بداية وثبة للوطنيين ، كما حدث في كوفادونجا من قبل .

وفي متحف برادو تجد لوحات جوية التي تعبر عن الفرع وحالة الترقب ، والوحشية التي أظهرها الفرنسيون في إعدامهم للأهالي يوم ٢ من مايو .

وقد استطاع جوية وبستاني حديقته التسلسل بعد انتهاء القتال في تلك الليلة ومعه بندقيته وكراصة رسمه ، وكلما سطع ضوء القمر بين السحب يضع جوية بندقيته ليسجل رسوماً أولية لوجوه الموتى وأوضاعهم ، وهم راقدون دون دفن في شوارع المدينة وحقوقها .

وقد وقع عبء حركة التحرير الثانية هذه على الشعب الإسباني نفسه . فلم يكن لديهم ملك يقودهم ، وكان عدد النبلاء بينهم قليلاً . ولم تكن لديهم أموال للحصول على معدات القتال . وفي البداية لقي الجنود النظاميون الإسبان الذين وقفوا بجانبهم هزيمة منكرة . فكان معظم المحاربين من المتطوعين الذين استخدموا طريقة الكر والفر ، أو حرب العصابات (Guerrilla) التي كان الإسبان أول من ابتكرها

ومعناها بالإسبانية « الحرب الصغيرة » . وقد أزعج الإسبان جيوش نابليون المحنكة بهذه الطريقة إلى أن استطاعوا في موقعة «بايان» (Bailen) في جنوب إسبانيا أن يتصدوا لجيش فرنسي مدرب قوامه ٢٢ ألفاً من الجنود المدربين ويلحقوا به الهزيمة .

ويفتخر الإسبان بموقعة بايلن ، وكذلك يتفاخرون بأعجاز وفضائع حصار مدينتي سرقسطة وخيرونا (Gerona) . وقد حوصرت مدينة سرقسطة غير المحصنة التي تقع على نهر ابره مرتين ، واستمر كل حصار شهرين . وتعتبر المقاومة التي أبدتها تلك المدينة من الأمور المحيرة للعقل ، أو قل إنها كانت معجزة .

وقد فك الفرنسيون حصارها الأول بعد هزيمة بايلن في منتصف أغسطس عام ١٨٠٨ ، تاركين المدافعين عنها حتى ديسمبر من ذلك العام ليعدوا أنفسهم للهجوم من جديد . فتدفق المتطوعون إلى سرقسطة من جميع أنحاء شبه الجزيرة ، ومنهم المزارعون من مقاطعتي أرغون وبلنسية يرتدون أحذية صنعت نعالها من الحبال ، ويعصبون رؤوسهم بعصابات زاهية ، ورجال مرسية وأهالي قطالونية بأحزمهم العريضة اللامعة . وأقبل شباب مدريد المتأنقون يتسلحون بالسيوف وهم عباءاتهم الفضفاضة ، وكتيبة سويسرية من أرغون ورجال من فرقة الرماة الملكية . وتكدست الأسلحة والذخائر في الأديرة والكنائس ذات الجدران المرتفعة ، ووضعت الأطعمة في مخازن عميقة ، وقد نزع أهالي سرقسطة أشجار الزيتون المجاورة حتى لا يجد العدو مكاناً يحتمي فيه ، في حين تحتاج شجرة واحدة من الزيتون إلى عدة أعوام

حتى تنمو وتعطى ثمارها . ولم تكن الأرض المحيطة بسرقسطة غنية بالمحصولات الأخرى . وعندما شن عشرون ألفاً من القوات الفرنسية هجومهم كانت المدينة مستعدة .

دمرت القنابل الفرنسية المتاريس والجدران شيئاً فشيئاً ، فهنا انهار جانب من الدير فوق المدافعين ، وهناك دمرت كنيسة عن آخرها . وقد ألقى المدافعون جثث قتلاهم فى ثغرات الجدران على أمل أن يصمدوا فترة أطول . ودار القتال من منزل إلى منزل ، ومن حجرة إلى حجرة . وفى بعض الأحيان كانوا يقاتلون إلى أن يسقطوا جميعاً جرحى أو قتلى . كانوا يقاتلون من شارع إلى شارع ، وداخل الكنائس . وكان الفرنسيون يطلقون نيرانهم من مذبح الكنيسة فيرد عليهم الإسبان من غرفة الاعتراف من مصلى والأروقة الجانبية .

وكانت الفتيات الصغيرات فى الأديرة يعملون فى مصنع الذخيرة ، وكانت أمهاتهن وشقيقاتهن يقمن بمعاونة الراهبات فى إسعاف الجرحى . وكان النساء يجلبن الطعام للمدافعين فى المواقع الأمامية المكشوفة ، بل إن بعضهن كن يقاتلن إلى جانب الرجال .

وقد مات خمسون ألفاً ، بل ويقول البعض إنهم ستون ألفاً ، من الرجال والنساء والأطفال متأثرين بالجراح والأوبئة فى هذا الحصار الثانى . وعندما تدفقت القوات الفرنسية أخيراً داخل المدينة المحطمة كانت تشق طريقها بين أكوام من الجثث مكدسة بعضها فوق بعض كالسدود .

ولمدينة خيرونا نفس القصة تقريبا ؛ فقد صمدت سبعة شهور ولم تستسلم إلا عندما ساعدت الأوبئة والمجاعة مدافع الفرنسيين والغامهم في القضاء على سكانها .

وقد أطلق على حرب ١٨٠٨ - ١٨١١ اسمان ؛ فالإسبان يطلقون عليها : « حرب الاستقلال » ، في حين يسميها الإنجليز : (حرب شبه الجزيرة) (Peninsular War) . وقد جاءت إنجلترا - العدو التقليدي لإسبانيا - لمعاونة الشعب الإسباني ، وأرسلت دوق ولنجتون على رأس جيش للمساهمة في طرد الفرنسيين .. وأخيراً أدرك نابليون أن التحالف الإنجليزي - الإسباني قد هزمه . وهرب أخوه جوزيف (السكير) إلى فرنسا ، وعاد فرديناند السابع « المبتغى » إلى شعبه الذي رحب بعودته .

ومبلغ ما نعلم عن ذلك الماضي أن فرانسيسكو جويا لم يطلق رصاصة واحدة ، أو يشترك في مؤامرة لنصرة القضية الإسبانية إبان نضالها . إلا أنه عبر خير تعبير عن روح أمته في المقاومة ، وأظهر ما قاسته في ذلك الوقت . فقد ولد جويا في مدينة صغيرة بمقاطعة أرغون تبعد ٣٠ ميلا عن مدينة سرقسطة الباسلة . وقد أمضى أحداثه في دراسة الفن متتلماً على أيدي فناني هذه المدينة . وكان قد أقام بمدريد عدة أعوام عندما نشبت الحرب ، ولكنه عاد إلى سرقسطة في الفترة التي توسطت الحصارين .

وقد دون معظم ما رآه وسمعه في رسوم تخطيطية لاستعماله في

لوحاته المحفورة المعروفة باسم « كوارث الحرب » (Desastros de la Guerra)

وقد أعجب الفنانون باللوحات الخمس والستين لكمال تصميمها وطريقة تنفيذها ، ولكنك لا تحتاج إلى أن تكون فناناً كى تجد هذه اللوحات معبرة تعبيراً لا ينسى عن الفرع والسخط والعطف التى عبر بها جويا عن الحرب بكل تفاصيلها الفظيعة .

ومن أشهر لوحات هذه المجموعة اللوحة المسماة « الرجل المخنوق » (The Garroted Man) وفيها نرى قسيساً خنق حتى الموت ، مستنداً إلى جدار ، وقد جمدت يده إلى صليب عليه صورة المسيح مصلوباً . وفي لوحات أخرى من نفس المجموعة رجال ونساء يواجهون طعنات الرماح « السونكى » ، أو يرقدون جثثاً هامدة ، وقد قلبتهم انفجارات القنابل رأساً على عقب .

وهذه اللوحات مليئة بثورة الغضب والغليظ . وتميط لوحات أخرى اللثام عن جوانب أخرى فى طبيعة جويا ، فاللوحات الثمانون المسماة « نزوات » (Caprichos) تتدرج من السخرية الخفيفة إلى التهكم اللاذع عندما تشير إلى خرافات المجتمع ورذائله .

فالعفاريت مع الساحرات ، والكهول والأغبياء من الرجال مع السيدات المغرورات الشمطاوات ، والفتيات الحمقاوات مع الشبان البله ، والراهبات والقسس وضباط الجيش والأرستقراطيون كل هؤلاء قد أظهرهم جويا فى مشاهد صغيرة تختلط فيها الحقيقة

بالخيال . وكان جويا يعقب على كل مشهد ؛ ففي إحدى هذه اللوحات المعروفة « نزوات » ترى امرأة تخلع أسنان رجل بعد شنقه ، وفي أسفل الصورة يكتب جويا : « إن أسنان الرجل الذى شتى وشيكاً ذات أثر بالغ فى السحر . وبدون هذا العنصر الجوهري لا يفلح شئ . واحسرتاه على الناس الذين يؤمنون بهذه السخافات ! » .

وفى لوحاته المسماة « تاوروماكيا » (Tauromaquia) أجرى جويا سلسلة من الدراسات عن مصارعة الثيران — وهى ليست مرعبة — إلا أنها بالرغم من ذلك نابضة بالإثارة والأسى « الدراما » . وكان جويا من المتحمسين لمصارعة الثيران ، وعندما تقدم به العمر كان يدعى أنه جمع نفقات سفره من مدريد إلى روما بمصارعة الثيران فى حلبات المدن الصغيرة الواقعة فى الطريق من مدريد إلى الشاطئ الإسباني .

وكان جويا رساماً عظيماً كما نبغ فى الحفر على المعادن . وتلقى لوحاته أضواء خلافة على الحياة الإسبانية . فقد عرفنا لوحاته عن الأسرة المالكة التعيسة . ولكنه خلف لنا أيضاً لمحات عن مختلف ألوان الناس . . مثل أولئك الذين يسرون بقوائم خشبية طويلة ، والنساء الثرثارات ، وجماعات الحصاد ، ولاعبى الورق فى الحدائق والأطفال وهم يتسلقون أشجار التفاح . وقد أعد كثير من هذه الرسوم كنماذج لنسيج الطنافس المزركشة التى كان يقوم بصنعها المصنع الملكى . وقد ترك لنا أيضاً لوحات طبيعية للغاية عن بعض كبار القوم وسيدات البلاط الملكى ، والأطفال الأرستقراطيين ، حتى يبدو

وكأنهم على وشك الزجر ، أو الأمر ، أو طلب كأس من النبيذ ،
أو كأنهم يعلقون على جوياء كفننان . ولم يكشف أى إسباني - باستثناء
سرفانتس - عن مثل هذه المشاهد للعالم الإسباني الرحيب الزاخر
بالسكان .

الفصل العاشر

الطلاء المخدوش - مزيد من البوربون

عندما عاد فرديناند إلى إسبانيا عام ١٨١١ ، كان جزاء المئات من الوطنيين الذين حاربوا لطرد الفرنسيين وإعادةه إلى العرش هو النفي ، أو السجن ، أو الإعدام ؛ لأن الكثيرين منهم أحسوا بأحقيتهم في حكم أكثر تحرراً ، وتوقعوا التمتع بمزيد من الحرية ، في حين أن فرديناند كان يمتك الأحرار ومثلهم العليا . ولعله كان يخشى ريشة جويلا اللاذعة ، فرغم أنه لم يلحق به ضرراً إلا أنه يروى عن فرديناند أنه قال له : « أنت تستحق النفي .. بل وتستحق الشنق ؟ ولكنك فنان عظيم وسننسى نحن كل شيء ؟ » . وبالرغم من هذا الشعور فقد جلس الملك أمام جويلا عدة مرات ليرسم له كثيراً من اللوحات . ومع ذلك فقد كانت الهدنة المعقودة بين الرجلين هدنة قلقلة ، حتى إن جويلا صمم في النهاية على الرحيل إلى فرنسا ، حيث أمضى هناك بقية حياته في منفاه الاختياري .

وقد كان الشعب الإسباني في الواقع يستأهل — من أجل بطولته ضد الغزاة الفرنسيين — حكماً أفضل من الحاكين التعسفين اللذين ابتلى بهما مدى نصف القرن التالي . ففي خلال حكم فرديناند وابنته إيزابلا الثانية التي خلفته كان جزاء الشعب الوحيد على إخلاصه وولائه للعرش هو الاستبداد الملكي والحكومة الفاسدة .

وتأججت أكثر من ثورة للحد من طغيان فرديناند أو الملكة الديمة ايزابلا ، ولكن الثورات المتوالية سخرت ولم تحقق شيئاً . وتتابع أمثال هذه الثورات ، كما اشتعلت حربان أهليتان سميتا : « الحروب الكارلية » (Carlist Wars) قام بهما دون كارلوس شقيق فرديناند وورثته ، في محاولتهم اغتصاب العرش من ايزابلا ، ثم من ابنها الفونسو الثاني عشر بعد ذلك .

وحينما ثار الإسبان في النهاية ضد ايزابلا وطردها من البلاد بلغ حنقهم عليها وعلى تصرفاتها أنهم لم يقبلوا حتى ابنها الفونسو ملكاً عليهم ، بل وجهوا الدعوة إلى أمير إيطالي ليحرب التاج الإسباني . فقام الأمير الإيطالي بذلك فعلاً ، ولكنه بعد عامين قلقين شعر بارتياح بتنازله عن ذلك التاج وعودته إلى بلاده ، في وقت كانت الحرب الأهلية الثانية تمزق البلاد . وقد أعلن تشكيل الجمهورية عند رحيله ، ولكن يبدو أنه كان مقدرًا لها الفشل . وهكذا دعى الفونسو الثاني عشر مرة أخرى إلى إسبانيا . وقد أثبت الفونسو أنه حاكم حكي الضمير إلى درجة مدهشة . . ولكنه مات لسوء الحظ بعد أن حكم البلاد عشر سنوات ، تاركاً زوجته وصية على عرش ابنه الذي لم يكن قد ولد ، والذي سمي فيما بعد الفونسو الثالث عشر .

وبينما كانت إسبانيا مشغولة بصراعتها ضد نابليون في السنوات الأولى من القرن التاسع عشر ، وبالفوضى التي نتجت من سوء حكم فرديناند السابع بعد ذلك ، انتهزت المكسيك ودول أمريكا الجنوبية

هذا الوضع للحصول على استقلالها ؛ ففي عام ١٨٢٤ كانت إسبانيا قد فقدت كل مستعمراتها في الدنيا الجديدة ما عدا جزر الفلبين وكوبا وبورتوريكو .

وحتى هذه المناطق - وبخاصة كوبا - لم تكن راضية عن الحكم العسكري الاستبدادي الذي فرض عليها . وبحلول عام ١٨٩٨ كان أهالي كوبا وبورتوريكو قد ثاروا أكثر من مرة ، وكانت الولايات المتحدة تبتدى عطفها على قضيتهم . فعندما نسفت السفينة الحربية الأمريكية « مين » (Maine) في ميناء هافانا بكوبا أصرت صحف أمريكا الشمالية على أن الإسبانيين هم الذين قاموا بتخريب السفينة ، وثار تراجيل غضب الرأي العام في الولايات المتحدة ضد إسبانيا ، والمعتقد الآن - بعد مرور السنين والنظر إلى هذه المسألة نظرة هادئة - أن الانفجار الذي دمر « البارجة » مين كان في الأرجح قضاء وقدرًا ، ولم يكن عملا من أعمال التخريب . ومهما تكن سبب غرق البارجة (مين) فإن الحادث كان كافيا لدخول الولايات المتحدة في حرب ضد الإسبان في صف الثوار الكوبيين ، وهي حرب لم تستغرق عاما . وقد حققت القوات الأمريكية بعض الانتصارات البحرية في مياه الفلبين وكوبا ، وخاضت غمار القتال على أرض كوبا ، وعندئذ اعترفت إسبانيا بهزيمتها ، ونصت اتفاقية باريس التي وقعت عام ١٨٩٨ على منح كوبا الاستقلال ، وضم الفلبين وبورتوريكو إلى الولايات المتحدة .

هزت تلك الهزيمة الإسبان ، وكانت صدمة وإذلالا لهم ، كما أنهم

صعقوا عند اكتشافهم مدى عدم استعداد قواتهم الحربية ونقص عتادها وبخاصة أسطولهم . غير أنهم أدركوا أن بلادهم ستكون أحسن حالا بعد إزاحة مشكلات مستعمراتها عن كاهلها . . . وقام عدد من ذوي الآراء التقدمية يطالبون بمشروعات للإصلاح تعيد إلى البلاد كرامتها واعتبارها . وكان المستقبل يبدو مشرقاً حينما انتهت الوصاية وأصبح ألفونسو الثالث عشر ملكاً وهو في السادسة عشرة من عمره . كان ألفونسو حسن الطوية جذاباً وذكياً ، وكان شعبه يحبه ، وكان هو مهتماً ببلاده . ولكن تربيته وخبرته لم تعداه للعصر الحديث ، ولم تعلماه أنه لم يعد في إمكان الملوك أن يحكموا بمفردهم ووفق مشيئتهم وكان رفضه منح الشعب نصيباً في الحكم أحد أسباب فشله في توحيد إسبانيا في سعادة ورخاء . ولكن كانت هناك أسباب أخرى للاضطراب العام ، منها الرغبة في مزيد من الاستقلال الذاتي في إقليم الباسك ، وحركة القطلونيين لإقامة حكومة منفصلة . وفي هذه الأثناء كان الجيش قد ضيق الخناق على الملك حتى أصبح له مطلق السلطة .

وعندئذ اتخذ بريمو دي ريفيرا (Primo De Rivera) — وهو واحد من ٩٠٠ جنرال في إسبانيا — من نفسه دكتاتوراً ، وجعل من ألفونسو مجرد رئيس صوري . وكان بريمو دي ريفيرا رجلاً قديراً أصحح من أحوال البلاد في نواح عديدة ، ولكنه رفض هو أيضاً أن يفهم أو يقبل حنين الناس إلى الأساليب الديموقراطية . وهكذا أخفقت ديكتاتوريته وذهب إلى المنفى .

وبعد ذلك بفترة وجيزة — في عام ١٩٣١ تنازل ألفونسو

عن العرش في سكون وغادر البلاد ، وتشكلت الجمهورية الإسبانية الثانية دون أن تراق نقطة دم واحدة . وكان معظم الناس مغتبطين في البداية بالجمهورية الجديدة والسهولة التي شكلت بها حتى أطلقوا عليها « البنت الجميلة » (La nina bonita) . ولكن عندما كبرت البنت الجميلة غاضت جاذبيتها ، وعرفت رفاق السوء ؛ فقد تغلغلت العناصر الراديكالية المتطرفة كالقوضويين والشيوعيين والوطنيين المتعصبين في قطالونيا في صفوف المفكرين الأحرار الذين كانوا قد شكلوا حكومة الجمهورية الأولى . وبدأ الإسبان يعانون كل ألوان التعسف ؛ فمثلا منعت نقابات العمال أي شخص من أن يقود سيارته بنفسه ، معلنين أنه لن تدور عجلة من عجلاتها إلا إذا استأجر صاحبها سائقاً تابعاً للنقابة . وحظر على الفتاة أن تروى حديقتها بنفسها لأن إرواء الحديقة يجب أن يقوم به بستانى من النقابة . وفي يوم العمال توقفت سيارات الأجرة والسيارات العامة والخاصة في مدن مثل مدينة مدريد أو برشلونة ، ولم تجرؤ سيارة خاصة على الظهور في الشوارع :

وبدأ التدمير في الازدياد ، وأخذ الناس في التحزب ، ونشبت المصادمات الدامية في عام ١٩٣٤ حينما أحرقت الكنائس وعمت الاغتيالات السياسية وجرائم القتل . . وفي تلك السنة قام عمال المناجم ومصانع الحديد في منطقة « اشتورية » (Asturias) بتخريب مدينة أوفييدو (Oviedo) التي انبثقت منها أول مقاومة إسبانية ضد العرب منذ ١١٠٠ عام ، ولم يصمد أما ثورتهم في المدينة كلها سوى

الكاتدرائية التي يبلغ عمرها ٦٠٠ عام لتصبح قلعة تحتوى فيها قوات الحكومة إلى أن وصلت إليها النجيدات .

وفي يوليو عام ١٩٣٦ ثارت القوات العسكرية في محمية مراكش في شمال أفريقيا ، ضد حكومة الجمهورية . واخترق الجنود المغاربة بقيادة ضباطهم الإسبان مضيق جبل طارق لينزلوا في جنوب إسبانيا معلنين الثورة ، وانضمت إليهم قوات عديدة من شتى أنحاء البلاد . وهكذا بدأت الحرب الأهلية . وقاد الجنرال فرانيسكو فرانكو هؤلاء الثوار (الذين يسمون أحياناً بالوطنيين) . أما القوات الموالية للحكومة فلم تكن قيادتها موحدة مثل قوات فرانكو ، لأنها كانت تضم ألواناً عديدة متباينة المشارب والأغراض . ومن أمثلة ذلك أن الباسك المتعصبين للمذهب الكاثوليكي تحالفوا مع الفوضويين الذين يعارضون جميع الأديان ، وأن القطلونيين الشديدي التبرم من حكم « قشتالة » والذين يتوقون إلى الحكم الذاتي حاربوا جنباً إلى جنب مع الشيوعيين الذين كانوا ينادون ربط إسبانيا بإحكام ثم تسليمها بعد ذلك إلى الاتحاد السوفيتي لتدور في فلكه كدولة تابعة .

ولم تتدخل إنجلترا وفرنسا أو الولايات المتحدة في هذا الصراع ، ولكن روسيا اضطلعت بمزيد من السلطات في الجانب الموالى للحكومة في حين كان النازيون الألمان والإيطاليون والفاشيون يقدمون مساعداتهم الجوهرية للجنرال فرانكو . ورغم هذا فإن هذه الحرب التي تعد أسوأ حرب أهلية شاهدها إسبانيا لم تكن من فعل الدخلاء ،

بل إنها بدأت — كجميع الحروب الأهلية الأخرى — كمسألة إسبانية بحتة ناتجة عن طبيعة الإسبان الذين لاتلين قناتهم ، وعن فرط تحمسهم ورغبتهم في الاستقلال الفردى .

« لقد نشبت الحرب الأهلية بسبب قلة الماء وزيادة النار في طباع الشعب الإسباني . وعندما تجف الأرض تحت أشعة الشمس الحارة في إسبانيا — وهى بلاد تفتقر إلى المياه بوجه عام — تتشقق التربة العطشة . ويلوم الغريب عن إسبانيا — بحسن نية — أرض البلاد عندما تشير انفعالات الإسبانيين الحادة ، فيقول : « إن هذه الأرض إلى اليمين ، أو تلك الأرض إلى اليسار ، هى المسئولة عن ذلك » . ولكن الحقيقة أن هناك أرضاً واحدة » .

(عن كتاب « إسبانيا » بقلم سلفادور دى مادارياجا)

وانتهت الحرب فى عام ١٩٣٩ بتسليم الموالين للحكومة ، وأصبح الجنرال فرانكو رئيساً للدولة ورئيساً للوزراء فى الحكومة الجديدة . ومنذ ذلك الوقت لم يكن لإسبانيا نظام ديموقراطى أو نيابى ، وحتى البرلمان (Cortes) ليس له إلا أن يقترح القوانين دون أن تكون له سلطة تقديمها أو إقرارها . وبؤلف الفلانجيون (Falangists) أو الفاشيون الإسبان أكبر الأحزاب وأعظمها نفوذاً فى إسبانيا (حزب الفلانج) . كما أن هناك بعض الملكيين الذين يأملون أن يروا ابن الملك ألفونسو أو حفيده على العرش يوماً ما . ومن الصعب معرفة ما يريدُه عامة الشعب حقيقة ، أو ما يفكرون فيه ، أو ما يشعرون به أكثر

من تخفيف كربتهم . إنهم ما زالوا مجهدين من آثار الحرب الأهلية . فكل أسرة فقدت واحداً على الأقل من أفرادها . فقد كانت المذابح مريعة للغاية : وأطاحت الاغتيالات السياسية والإعدام بين الجانبين بحياة ١٠٠٠ ر ٨٠٠ شخص ، كما مات ٤٠٠ ألف آخرين في المعارك . وغير الدمار وجه الأرض في أماكن كثيرة ؛ فقد دمرت الغارات الجوية كثيراً من المسكن الرئيسية ؛ فأصبحت الأديرة والقصور والكنائس والجامعات خرائب متفحمة محترقة ، وتحولت المخلفات الأثرية المعمارية التي لا تقدر بثمن إلى أحجار متناثرة .

ومن أعظم ما يذكرنا بتلك الحرب قلعة « الكازار » أو « القصر » (Alcazar) الضخمة في مدينة طليطلة التي ستبقى أطلالها على الحالة التي آلت إليها بعد الحصار الذي كابده مع ٢٠٠٠ من الوطنيين الذين دافعوا عنها هم وأسرهم مدة ٧٠ يوماً . ولا يمكن لأي نصب تذكاري حديث أن يكون أكثر إثارة للأسى من هذا التذكار .

وعندما يعاين الإنسان ذلك الحصن القوي الذي دمرته الحرب ويذكر قصته فإنه سيفكر في حادثين يفصل بينهما وقت طويل ولكنهما متقاربان في مشاعرهما . يؤكدان طبيعة الإسباني التي لا تتغير . جرى الحادث الأول منذ أكثر من ٦٠٠ سنة في « طريف » (Tarifa) ؛ تلك المدينة البيضاء الناصعة التي تقع في أقصى جنوبي إسبانيا . وكان الحادث الثاني في طليطلة عام ١٩٣٧ .

وتتعلق قصة « طريف » بشخصية ألفونسو بيريس دي جوسمان (Alfonso Perez De Guzman) — الذي لقب « بجوسمان الطيب » .

أما بطل قصة عام ١٩٣٧ فهو الكولونيل (العقيد) خوان موسكاردو (Juan Moscardo) .

كان الأول يدافع عن مدينة « طريف » المحصنة لصالح الملك سانتشو (Sancho) ملك قشتالة ضد ابن الملك المتمرد . وكان موسكاردو قائداً لحامية « الكازار » أو القصر في طليطلة - يدافع عنه بأمر من الجنرال فرانكو .

وكان لجوسمان ابن صغير ، وكذلك كان لموسكاردو ولد في السادسة عشرة من عمره اسمه « لويس » .

وكما أن الأمير المتمرد تمكن من الإمساك بطفل جوسمان والاحتفاظ به خارج مدينة « طريف » ، فكذلك قبض جنود « الميليشيا » على لويس موسكاردو في طليطلة .

بعث الأمير برسالة إلى جوسمان يهدد فيها بقتل طفله إذا لم يسلم « طريف » . وتحشد رجال « الميليشيا » تليفونياً إلى الكولونيل موسكاردو يندرونه بضرب ابنه بالرصاص ما لم يسلم لهم القلعة في خلال عشر دقائق .

وقف جوسمان فوق تحصينات « طريف » وألقى بمنجيره صائحاً : « فلتستعملوا هذا » أما موسكاردو فقد طاب محادثة ابنه في التليفون ، وعندما سمع صوته قال له : « يا بني : أسلم روحك إلى الله ، واهتف « لتحى إسبانيا » ، واستقبل الموت كما يستقبله شهداء الوطن » .

وكان أن طعن ابن جوسمان بمنحجر أبيه ، وأطلق الرصاص على
لويس موسكاردو .

إن مر السنين لم ينتقص شيئاً من شجاعة الإسبانيين ، فما زالوا
يتمسكون بكلمات مثل : المجد ، والشرف ، وحب الوطن ،
ولكنهم لا يستطيعون الاتفاق على الطريقة المثلى التى يمكن بها تحويل
هذه الكلمات إلى أفعال . . .

الفصل الحادى عشر

فوق الهضاب

لا يوجد شعب فى أوروبا شيد لنفسه من القلاع والكنائس والأديرة ما يفوق فى عدده أو روعته ما أقامه الإسبان منها . فان تجد مثل هذه المدن القديمة فى أى بلد آخر . ولقد أصبح بعضها — مثل بلنسية وبرشلونة — مدناً حديثة بالرغم من احتفاظها بمبان — بل وأحياء كاملة — تذكرنا بالماضى . وهناك مدن أخرى قد توقف نموها منذ قرون خلت وهى تتربع قمم التلال عادة ، وتبدو كما لو كانت سيدات جميلات يحلمن بهاء ماضيهن .

والهضبة الوسطى على الأخص حافلة بمدنها القديمة التى ظلت فى سباتها العميق الذى كانت عليه منذ قرون ، ولم تستيقظ منذ ذلك الحين ، أو لعلها بدأت تروأ فى الاستيقاظ . و « أبلة » (Avila) مثال لهذه المدن . فإذا أردت أن تعيش فى قلب القرن السادس عشر فعليك بالذهاب إلى « أبلة » بأسطحها المبنية من الطين المحروق التى تندفع إلى سمائها المشرقة على ارتفاع ثلاثة أرباع الميل فوق سطح البحر . وأسوارها الدائرية ببواباتها وبروجها المستديرة التى ما زالت على حالها منذ ثمانمائة عام .

وقد بدأ الفونسو السادس مولى « السيد » (Cid) فى إقامة هذه التحصينات عندما استولى على المدينة من العرب . وحتى الكاتدرائية تكون جزءاً من هذه التحصينات لأن مؤخرتها نصف الدائرية قد شيدت فى السور لتكون بمثابة برج آخر ، وانتشرت فيها الكوى حتى يتمكن رماة السهام وجنود المدافع من إطلاق نيرانهم وقذائفهم على المهاجمين .

وإذا استطعت أن تتحكم فى وقتك ، فاذهب إلى أبله فى شهرى سبتمبر أو مايو ، لأن الصيف يلفح المدينة بقيظه ، كما أن شتاءها قارس البرد . ومع ذلك فإن داخل الكاتدرائية المظلم يحتفظ ببرودة منعشة حتى فى الصيف . وفى الربيع (فى موسم عيد الفصح) تتجمد المياه فى القنوات ، وعندما يحل شهر أكتوبر تأخذ الرياح الباردة فى الهبوب من الجبال على الشوارع الضيقة والميادين الصغيرة . ولكن أبله مكان خلاب ذو طقس بديع فى شهرى مايو وسبتمبر ، عندما تصقل أشعة الشمس جدران الأديرة وتموه شعارات الأسر الحجرية المنصوبة على أبواب المنازل الضخمة المقبضة بلون الذهب . وبعض هذه المنازل عبارة عن هياكل مبان ذات نوافذ أو بوابات تمت حولها النباتات والحشائش . وأبله مليئة بأطياف كثير من العظماء إسبانيا . . فقد دفن فيها الأمير « خوان » (Juan) الابن الوحيد لفرديناند وايزابلا . . وكذلك توركيدا - وهو من أهم شخصيات محاكم التفتيش . ويقابلنا كثير من ذكريات فرديناند وايزابلا وشارل الخامس وفيليب الثانى الذين أمضوا وقتاً طويلاً فى المدينة . ولكن

فوق هذا كله تنتمى أبلة إلى « سانت تيريزا » (Saint Teresa) ،
إن روحها ما زالت مسيطرة على المدينة .

وتصور لنا دقائق حياة سانت تيريزا أفكار الإسبان وسلوكهم
في القرن السادس عشر . ومع ذلك ، فرغم أنها قديسة خاصة
بعصرها وبشعبها فإنها فرد كأي فرد من البشر ، وشخصية لا تنسى .
ولدت سانت تيريزا ولم يكن قد انقضى على فتح غرناطة ثلاث
وعشرون سنة . وكان مسقط رأسها في منزل جميل — ولكنه كئيب —
يجوار سور المدينة . وشبت تيريزا على قصص استرداد الإسبان
لبلادهم من العرب . وعندما بلغت السابعة من عمرها فرت من منزلها
في صحبة أخيها البالغ إحدى عشرة سنة ، وكانا يؤملان أن يصلا
بطريقة ما إلى شمال أفريقيا ليقعا في يد العرب ويلقيا مصير الشهداء .
وكانا يعتقدان — بمنطق الأطفال — أن هذا هو السبيل إلى الجنة .
ولكنهما لم يقتربا من الجنة عن طريق شمال أفريقيا إلا بقدر المسافة
بين منزلهما والطريق الخارج من المدينة ، لأن أحد أعمامهما عثر
عليهما وأعادهما إلى منزلهما .

وعندما كبرت سن تيريزا لم تبد أي ميل لكي تصبح راهبة ؛ فقد
كانت فتاة على جانب من الجمال ، تهوى ارتداء الملابس الأنيقة
وقضاء الأوقات المرحية . ولكن التحمس الديني — الذي تميز به
القرن السادس عشر — أقنعها بأنها لا تستطيع تطهير روحها إلا في
الدير . وهكذا التحقت بأحد الأديرة التي يوجد منها عدد كبير
في أبلة . وكانت سانت تيريزا شخصية متعددة الجوانب ؛ فقد كانت

تنتابها غيبوبة تشاهد فيها رؤى جميلة ومرعبة ، للقديسين ، والشياطين ولكن إدراكها وفطنها كانا يجعلانها تنجس من أن يراها أحد وهي في تلك الغيبوبة ، وقد فقدت وعيها وتصلب جسمها . ومع أنها كثيراً ما وقعت فريسة للمرض والألم الشديدين إلا أنها كانت مبتهجة — بل مرحة — على الدوام ، وكانت تقول : « اللهم أنقذني من القديسين العابسين » .

وعندما بلغت السابعة والخمسين من عمرها تركت الدير الذي قضت فيه أكثر من ثلاثين عاماً لتعيش ديراً آخر أكثر صرامة في تعاليمه ، يفرض على الملتحقين به حياة أكثر تقشفاً وعبادة . ثم لم تلبث بعد ذلك مباشرة أن أخذت في تأسيس أديرة أخرى مشابهة له ، واستمرت في ذلك حتى بلغ مجموع ما أنشأته نحو ثلاثين مؤسسة دينية في جميع أنحاء إسبانيا . وقد كتبت سانت تيريزا تقول : « لقد تولدت عندي كراهية شديدة للأسفار ، وبخاصة الطويل منها » .

ولا غرو ، فقد كانت دائبة الحركة ! ومما تناولته في كتابتها البراغيث والعفاريث والطرق الرديئة . فقد كانت هي ورفيقاتها من الراهبات ينتقلن من مكان إلى آخر في عربة مقفلة على طرق غاية في الوعورة . وكانت عجالات العربة من الخشب القوي ، ولم يكن للعربة نفسها « يايات » تقلل من ارتجاجها . فكانت العجلات تقعقع فوق الطرق الشديدة الوعورة في قيظ الصيف الذي يقطر شذى المريمية والخزامى وغيرها من الشجيرات التي تنمو في هذه الأراضي الحارة الجافة الجذباء ، وكذلك في برد الشتاء القارس الذي يخدر الإحساس . وتعرضت سانت تيريزا ورفيقاتها للغرق وهن ينحضن.

الأنهار المتدفقة المياه ، وكادت عربتهن تهوى من فوق جبل عال ، وكانت الأنزال « الفنادق » التى يأوين إليها من القذارة بحيث كن يفضلن قضاء الليل فى عربتهن . وكم من مرة نفدت منهن مياه الشرب وفسد ما كن يحملن من طعام ! وأحياناً كن لا يجدن فى الطريق شيئاً يشترينه ولو كان ذلك بيضة واحدة .

وتستطيع وأنت فى « أبله » أن تزور أحد الأديرة الذى تتلمذت فيه تيريزا ، وديراً آخر أخذت على نفسها فيه عهد الرهبة ، وثالثاً أسسته ، ورابعاً أقامته فى موقع منزل أسرتها . وما زالت أقوالها والمعجزات التى تنسب إليها وسحر شخصيتها من الموضوعات التى تتحدث بها المدينة إلى اليوم .

ومن مدن الهضبة الوسطى الأخرى التى تعود بنا إلى الماضى مدينة « شقوبية » التى تشبه السحابة الدكناء فوق الأرض المحيطة بها ، أو السفينة الضخمة التى يمثل القصر (أو القلعة) مقدمتها ، وقنطرة المياه الرومانية مؤخرتها . وقد بلغ من دقة بناء هذه القنطرة التى شيدها الإمبراطور « تراچان » أنها ظلت تأتى بالمياه إلى شقوبية طيلة ألف وثمانمائة سنة .

وكثيراً ما كان « ألفونسو الحكيم » — أحد ملوك قشتالة فى القرن الثالث عشر — يقيم فى القصر (Alcazar) ذى البروج — الكبير منها والصغير — يقضى ساعات طويلة فى تدوين «التاريخ العام» (Cronica General) ، وهو مؤلفه الشهير عن تاريخ إسبانيا الذى يبدأ فيه من

بدء الخليفة ويستمر بنا حتى عصر أبيه الملك فرديناند الثالث . أما إذا كنت ممن تستهويهم الكنائس القديمة فلن تجد في شقوبية كنيسة واحدة يقل عمرها عن ستمائة سنة ، وذلك باستثناء الكاتدرائية التي تعتبر حديثة ، لأنها أنشئت في القرن السادس عشر.

و « بوجوس » هي مدينة « روى دياز » الذي لقب بـ « السيد » (Cid) ففيها سقط رأسه ، ونستطيع أن نشاهد المنزل الذي ولد فيه . وقد تزوج « دياز » من « اكسيمينا » في كاتدرائية بوجوس الحميلة ، وترقد رفاتهما في أحد أروقتها . ويعرض في الكاتدرائية ذلك الصندوق الذي أعطاه دياز لاثنتين من المراهبين في المدينة كرهن لما كان يحتاج إليه من ذهب عندما أمر الملك بنفيه . وكان دياز قد أخبرهما أن الصندوق مليء بالذهب والتفائس ، في حين أنه كان ممتلئاً بالرمال . ولم يصل إلى علمنا هل قام دياز بتسديد ذلك القرض بعد فتوحه وانتصاراته أم لا .

وإسبانيا من البلاد الغنية بكنائسها الحميلة ، وتعد كاتدرائية بوجوس من أعظمها . فأبراجها التي تشق السماء تبدو كصخور مزرکشة . أما داخلها فيعجز اللسان عن وصفه بما فيه من برونز وذهب ، وحديد مشبك ، وتماثيل وتحف رائعة من الخشب المحفور.

ومن المدن الأخرى الحميلة مدينة « سلمنقة » (Salamanca) الجامعية . وتراها من الضفة الأخرى لنهر تورميس (Tormes) كرسوم جميل وقد بدت أسطحها وأبراجها وجدرانها الذهبية وكأنها زخارف

لثلاثة تلال منخفضة . ولم يبق من « سلمنقة » التاريخية سوى نصفها ، فقد دمرت جيوش نابليون النصف الآخر الذى كان يحتوى على ثلاثة عشر ديراً من أديرتها العشرين ، كما كان يضم عشرين مبنى من مباني كلياتها التى كان عددها خمسة وعشرين . وما زال عشاق الفن المعماري يعربون عن حزنهم على ما فقد من مبان . فمع أن ما بقى منها يعتبر رائع الجمال إلا أننا لا نستطيع أن نتخيل ما كانت ستبدو عليه سلمنقة من تحفة لو أنها بقيت على حالها . وقد شيدت مباني سلمنقة بأحجار كانت رخوة كالجبين عندما أتى بها من المحاجر ، مما أتاح للمثالين أن ينعثوها بسهولة فى تصميمات زخرفية رقيقة ومعقدة فى محاكاة التنافس أو أعمال الحفر على الفضة التى نشاهدها إلى اليوم . وقد بنيت الجامعة نفسها على هذا الطراز الذى يجعلها تبدو كحلى حجرية بما تحتوى عليه من نقوش تمثل لفائف الورق والأوسمة والدروع . وعندما تعرضت تلك الأحجار للهواء اكتسبت صلابة واصفر لونها حتى تحول إلى لونه الذهبى الحالى .

وجامعة سلمنقة هى أقدم جامعة فى إسبانيا ، وتعتبر من أقدم الجامعات الأوروبية . وقد وفد إليها نفر من مشاهير العلماء فى العصور الوسطى ، ولكن محاكم التفتيش سيطرت على جميع نواحي الفكر فيها فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، وساءت سمعة أساتذتها عندما سخروا من فكرة كولمبس عن كروية الأرض ، لأنهم أصرروا على أنه ما دام الإنجيل قد وصف العالم بأنه مسطح فإنه من الكفر الاعتقاد بأنها كروية . وكان من المحتمل أن يستدعى كولمبس

ليحاكم أمام محكمة التفتيش على آرائه الخارجة عن الدين لولا ما كان يحظى به من تعضيد مدرّس الأمير « خوان » وثقته .

وعندما كانت الجامعة في أوج ازدهارها كانت قاعات محاضراتها تزدحم بعشرة آلاف طالب ، يتناقشون تحت ظلال أشجار البلوط والدردار والسرو والسفط ، أو يتجولون في الأروقة المغطاة التي تحيط بالميدان الرئيسي الرائع . أما اليوم فلا يؤم الجامعة سوى نفر قليل من الطلاب ، معظمهم من شبان الإقليم وفتياته ، كما أن جامعة سلمنقة لا تنظم دراسات صيفية للطلاب الغرباء كما تفعل جامعات بورجوس ومدريد وبلد الوليد وبرشلونة .

وترى المنطقة المحيطة بسلمنقة بعض ثيران المصارعة الممتازة ، وكثيراً ما كان الميدان الرئيسي يزخر في الماضي بالكتل البشرية عندما كان يقام حفل مصارعة في مناسبة هامة . لا بد أن منظر الميدان كان خلاباً يستحق أن يتناوله « جوييا » بريشته ليصور الحرائر الزاهية والدمقس الذي يرفرف من شرفات المباني الجميلة التي تحيط بالميدان وقد احتشد فيه عشرون ألف متفرج في أبهى ملابسهم ، يحيون الثيران الباسلة والمصارعين الشجعان .

أما سحر « طليطلة » فيكون على أشده ليلاً ، فكلما تأخرو وصولك إلى المدينة ، وكلما كان الليل أكثر حلكة ، كان سحرها أعظم تأثيراً . فعندما تتحسس سيارتك طريقها عبر أحد الجسور « الكباري » يقع نظرك على الأضواء التي تتلألأ منعكسة من مياه نهر « تاجه » السوداء

تحت مستوى بصرك ، وتبدو الصخور التي تلوح أمامك في أشكال متنوعة . وتصعد بك السيارة منحدرًا شديدًا تحف به من أحد جانبيه صخور رأسية ، في حين تبدو المنازل في الجانب الآخر وكأنها أمواج تبتعد عنك حالة مرورك بجوارها كما لو كنت في حلم من الأحلام . ويستمر بك الصعود ، ثم تفاجأ بوقوف سيارتك في ميدان خافت الضوء ، فتدخل الفندق والنوم يغالبك . وفي صباح اليوم التالي تذكر النظرة الأولى من النافذة بسحر الليل ؛ إذ تشاهد الأسقف البنية اللون متراسة في غير ما نظام حول الكاتدرائية ، حتى لتعتقد أنها تخفى تحتها جميع أنواع الأسرار .

وإذا كان لديك متسع من الوقت فاقضه في التجوال في شوارعها الضيقة التي رصفت بالحجارة ، وتوغل في شبكات تلك الطرق ، وحاول أن تنفذ بنظرك من خلال مدخل أحد المنازل الكالحة إلى فناءه الداخلي الذي يزدان بالأزهار بشكل يبهر الناظرين . ولربما قادتك قدماءك إلى ميدان صغير غير معروف تطل عليه كنيسة صغيرة ، فتسمع ثرثرة النساء وهن يملأن جرارهن من إحدى الآبار . ويمر بك بين الحين والحين فلاح ممتطياً حماره وقد امتلأ خرجه المنسوج بالخضراوات ، أو خشب الوقود ، أو الآنية الفخارية ، أو كمية من العلف .

وربما تصادف في تجوالك أحد المعبدين اليهوديين القديمين ؛ فمع أنهما تحولتا إلى كنائس كاثوليكية منذ نحو ستمائة سنة ، إلا أنهما

يبدوان وكأنهما مسكونان بأشباح اليهود . وتسمى إحدى الكنيستين « سانتا ماريا لا بلانكا » (Santa Maria La Blanca) ، والأخرى « الترانسيتو » (El Transito) . وتتكون الكنيسة الأخيرة من قاعة ضخمة بلا أروقة جانبية ، نوافذها من المصيص المحرم . وبها لوحات عليها كتابات بحروف عبرية . أما كنيسة سانتا ماريا ففيها أعمدة طليت باللون الأبيض ، وعقود على شكل « حدوة » الفرس ، ونقوش عربية على الجدران ، ونستطيع أن نتخيل صمويل لبي الذي شيد « الترانسيتو » بلحيته الحمراء وردائه الطويل وقد بدا كأحد المنجمين . كما نستطيع بخيالنا أن نتصور الأروقة وقد امتلأت بالنساء اليهوديات بملابسن وأغطية رؤوسهن الغربية ، وهى من طراز لم يعد يشاهد في إسبانيا منذ أربعة قرون أو أكثر ، وإن كانت آثاره ما زالت منتشرة في زى اليهود الإسبانيين الذين يسمون « سفارديم » (Sephardim) .

وعليك بالطبع أن تزور كاتدرائية طليطلة ، التى تعتبر أغنى كاتدرائيات إسبانيا ومن أعظمها جاذبية . فهي تحتوى على ثروة من الرسوم والنقوش ، وبها أضرحة فخمة ، وأوعية للطقوس من الذهب والفضة . أما ملابس قسيسها فقد طرزت بالذهب والفضة ورصعت بالجوهر ، وقد صنع بعضها من ملابس ملوك راحلين . وإذا حضرت مصادفة أحد الطقوس الدينية فإنك لن تنسى مشهد رجال الكنيسة في موكبهم المتند ، وهم مرتدون ثيابهم الجميلة ، يشقون طريقهم على أنغام الأرغن في الأروقة ذات الأضواء الخافتة في ذلك

المبنى الضخم ، مارين في سيرهم أمام المعابد الجانبية القابعة خلف حواجز حديدية .

وعليك أيضاً بزيارة منزل « الجريكو » بحجراته البسيطة العارية وحديقته التي تشغل جزءاً من سطح تل يطل على الجزء المنخفض من طليطلة . وعندما تقف أمام المنزل وترى ببصرك فوق أسطح المنازل إلى النهر ، فإنك ستقارن بين لون المدينة البني وبين لوحته التي رسم فيها المنظر بلون أخضر لا ينسى ، وهى اللوحة الموجودة حالياً بمتحف « متروبوليتان » . وقد تبدو لوحات « الجريكو » غريبة ، كأنها لعالم غير عالمنا ، ولكنه كان يعيش عيشة عادية في منزله ويستقبل عظماء الرجال في عصره . فكثيراً ما استضاف « لوبى دى فيجا » ، كما يروى أن « سرفانتس » كان يزوره أيضاً عندما كان أتى إلى طليطلة ويقيم في أحد فنادقها المتواضعة المسمى « فندق الدم » (Posada de la sangre) . وقد دمر هذا الفندق في الحرب الأهلية الأخيرة ، بعد أن بقى دون تغيير يذكر من أيام سرفانتس . ونستطيع أن نتصور سرفانتس وقد وقف في شرفة الطابق الثانى التي تحيط بفناء الفندق يراقب وفود النزلاء الذين تبدو عليهم الحشونة والفضاظة : من راكبي البغال الذين يفكون زمام حيواناتهم ، إلى الجندى الذى يترجل من على ظهر جواده ، إلى التجار الذين تعبر وجوههم عن الاغتياب والامتنان لوصولهم هم وبضائعهم إلى المدينة سالمين دون أن يقعوا فريسة لقطاع الطرق .

وقد تقرر إعادة بناء « فندق الدم » إلى ما كان عليه في الماضي :
ولكن لعلك تذكر أن « الكازار » أو القصر — وهو ضحية طليطلة
الأخرى في تلك الحرب سيترك على حاله : هيكلا محطماً كذكرى
من ذكريات الحرب .

الفصل الثاني عشر

مدريد

لا تعتبر مدريد مدينة قديمة إذا قيس عمرها بأعمار المدن القديمة في إسبانيا . فقد كانت حتى القرن السادس عشر قرية قليلة الشأن ، ثم أدرك فيليب الثاني أهمية موقعها المتوسط في شبه الجزيرة فاخترها لتكون عاصمة البلاد . ولكن فيليب كان يركز اهتمامه على بناء قصر الاسكوريال الذى يبعد ثلاثين ميلا عن المدينة ، فلم يقيم بعمل يذكر لتحسين مدريد ، كما أن من خلفوه من أسرة هابسبورج لم يقيموا بها وقتاً طويلاً . ويرجع الفضل — فيما أدخل على المدينة من تحسينات كبيرة وما شيد بها من مبان ضخمة — إلى ملوك أسرة البوربون في القرن الثامن عشر ، الذين بدءوا بالملك فيليب الخامس ، فهو الذى شيد القصر الملكى العظيم المربع الشكل الذى يسترعى النظر بشموخه على نهر « مانتانارس » (Manzanares) . ورغم ذلك فقد كان الجزء الأكبر من مدريد — حتى قرن مضى — متاهة من الشوارع الضيقة والمباني الحغيرة ذات الأفنية المعتمدة — وما زال هذا حال الأحياء القديمة القذرة من المدينة . ومن مائة سنة مضت كان كل صحنى في مدريد يتناول بالفكاهة والتهكم ما كان يشاهد في كل مكان تقريباً من قذارة وإهمال .

أما مدريد الحالية — وقد تجاوز عدد سكانها مليوناً ونصف مليون — فقد أصبحت أكبر مدينة في إسبانيا ؛ إذ تضاعف حجمها أكثر من ثلاث مرات في الثلاثين السنة الأخيرة . إنها الآن مدينة حية ، لها طابعها الخاص ، نظيفة ، معتنى بها ، كما أنها مدينة عصرية ، بها خطوط حديدية تحت الأرض (وهى شديدة الازدحام) وفنادق فاخرة ، ومبان حكومية ضخمة ، وكنائس ، وعمارات سكنية ، ومساكن خاصة . ومن الصعب على المرء أن يتخيل في الوقت الحاضر ما كانت تبدو عليه مدريد في شهر مارس من عام ١٩٣٩ عندما استسلمت قوات الحكومة لجيوش الجنرال فرانكو بعد أن صمدت في مقاومتها منذ شهر نوفمبر من عام ١٩٣٦ . كان الدمار عاماً وشاملاً ؛ فقد انفجرت القنابل على طول شوارعها الفسيحة التي تظللها الأشجار — في الشارع الكبير (Gran Via) الذي يضم أرقى المحلات التجارية ، وفي الميدان البيضاوي الشكل المسمى Puerta Del Sol أو « بوابة الشمس » الذي كان مركز المواصلات في المدينة . وكم من ميدان كان مليئاً بالزهر تحول إلى أنقاض . كما أن جامعة مدريد والموقع الذي تشغله — وهى الآن تحفة من المباني الجميلة — كانت قد تحولت إلى خرائب لا تتجاوز خط دفاع أمامياً في أثناء الحرب . وعلى أى حال ، لم يقتصر الأمر على إعادة بناء الجامعة ، بل إن يد الإصلاح قد شملت جميع ما تعرضت له المدينة من تلف .

وتزدحم سماء مدريد حالياً بالمباني الجميلة ، التي يرتفع بعضها

إلى خمسة وعشرين طابقاً ، مما يجعلها في أعداد ناطحات السحاب بالمقاييس الأوروبية . وقد اتسعت رقعة الأحياء السكنية فوق الأراضي الصفراء التي تحيط بالمدينة ، وقد روعى في كثير منها أن تكون زهيدة الإيجار لتناسب الجموع الحاشدة من الوافدين من القرى والمزارع الذين تزدحم بهم مدريد حالياً . ولم تتمكن عمليات البناء من السير بالسرعة التي تستطيع بها أن تستوعب زيادة عدد السكان ، مما جعل الكثيرين منهم يكتظون في الأحياء القديمة المتهمة وغير الصحية من المدينة ، أو يتجمعون في أحياء قذرة في أطرافها .

أما مدريد التي يعدها السائح العادي فتختلف كل الاختلاف عن أحياء المدينة الفقيرة التي تبعث على الأسى ، فهي مليئة بالحيوية والحاذية . فمجموعة الأعمال الفنية التي يضمها متحف برادو (Prado) تكاد تكون في مستوى كنوز متحف اللوفر في باريس ، ومنتزه « رتيرو » (Retiro Park) بقعة خلابة تستطيع أن تتجول فيها على قدميك أو بسيارتك ، وفيها المساحات التي تغطيها الحشائش الخضراء ، والممرات التي تظللها الأشجار ، والطرق التي تسير عليها الخيل ، والنافورات والبحيرات الصناعية والمطاعم المكشوفة في الحدائق حيث تستطيع أن تتناول طعامك وترقص في الهواء الطلق عندما يكون الجو جميلاً . وفي خلال حصار مدريد كاد السكان يتجمدون من البرد ، ومع ذلك فقد منعهم اعتزازهم بأشجارهم — سواء تلك التي في المتنزهات أو التي على جوانب الطرق — أن يقطعوا شيئاً منها لاستخدام أخشابها للتدفئة . ومع ذلك فإنه يقال إنهم أكلوا بعض

حيوانات حديقة « رتيرو » . إنها مجرد إشاعة ، وعلى أى حال فإن بالحديقة عدداً جماً من الحيوانات فى الوقت الحاضر .

والقصر الملكى من الأماكن التى تستحق الزيارة ؛ فهو يحتوى على طنافس لا تقدر بثمن ، وعلى سلم ضخمة استرعى انتباه نابليون نفسه ، كما أن بالقصر عدداً من القاعات الرسمية مثل قاعة العرش ذات الأضواء التى تنكسر من خلال ثريات بلورية ، وقاعة « جاسبارينى » (Gasparini Room) التى يكسوها حرير أزرق وتتدلى من سقفها فواكه وزهور صنعت من الخزف ، ويحرس كل ركن من أركانها تماثيل ذو حجم طبيعى تقريباً لنيل صينى ، ثم غرفة الطنافس التى تتألق بالستائر التى صمم جوياء رسوم الكثير منها . وفى هذه الغرفة الأخيرة يلتفت الدليل نظرك إلى فجوة فى السقف أحدثتها قنبلة فى أيام الحرب الأهلية ، وربما تطرق بعد ذلك ليخبرك كيف دمرت جيوش نابليون المصنع الذى كان يتم فيه صنع الخزف الذى تتحلى به قاعة « جاسبارينى » .

أما معروضات الأسلحة الملكية فإياها تشبه مجموعة من الصور التى توضح كتاباً عن تاريخ إسبانيا . فهنا تجد التيجان الذهبية المرصعة بالجواهر التى كان ملوك القوط الغربيون يضعونها فوق رؤوسهم ، والسيف الذى كان « بلاى » يلوح به فى معركة « كوفادونجا » ، ومفاتيح مدينة غرناطة التى تسلمها فرديناند وإيزابلا من آخر ملوك العرب ، والعلم الذى أتى به دون جوان النمى من معركة ليبانتو .

وتشاهد في المعرض أيضاً تماثيل لكبار محاربي إسبانيا ، وقد تزينت بالريش ، مرتدية الخوذات والقفازات والدروع ، وممتشقة الأسلحة التي كان يستعملها هؤلاء المحاربون . وتنظم المعروضات عدداً كبيراً من أطعم الدروع التي كان يرتديها شارل الخامس ، وبعضها مطعم بالذهب ومحلى بنقوش عويصة التصميم . ويقع نظرك أيضاً على رداء مدرع يخص « بلناسار كارلوس » - وهو الشاب الذي لعلك تذكره في لوحات « بيلاثكت » أو على الدروع التي كان يرتديها دون جوان النمسوي . وفي مكان آخر تجد أسلحة « جوان دي باديللا » (Juan De Padilla) ، قائد حامية طليطلة الذي أعدمه شارل الخامس للدور الذي قام به في الثورة ضد الحكم « الأجنبي » .

أما فيما يتعلق بمناخ مدريد ، فإن أكثر المواطنين ولاء لمدينته لا يدعى أنها ذات مناخ جيد ، وإن كان قد يصر على أن ارتفاعها وجفاف هوائها يجعلان مناخها صحياً . فمدريد تقع على ارتفاع ألفي قدم على الهضبة ، وهي بذلك أعلى عواصم أوروبا . وتتعرض المدينة لحرارة الشديدة والبرد القارس . ولتغيرات مفاجئة في درجة الحرارة ، ولرياح قاسية نفاذة تهب عليها من جبال « وادي الرامة » (Guadarrama) الواقعة إلى الشمال منها . وتنتقل الحكومة في الصيف إلى مدينة سان سباستيان على الساحل الشمالي ، كما تنتقل إليها السفارات الأجنبية . ومن المفروض أن يترك عليه القوم مدريد في هذا الفصل أيضاً ، أما أولئك الذين تضطربهم أحوالهم إلى البقاء في المدينة فيقال

عنهم إنهم يتجنبون ارتياد الأماكن التي كانوا يرتادونها حتى لا يعايرهم أحد بوجودهم في المدينة في الفصل الحار .

ويتحمل المواطن العادي من أهل مدريد حرارة الجو أو برودته بما عرف عن الإسبانيين من عدم الاكتراث بالأحوال الجوية ؛ فقليل جداً من المنازل الخاصة أو العمارات السكنية — فيما عدا أحدثها وأعلاها إيجاراً — ما يتمتع بالقدر من التدفئة الذي يعتبر كافياً في الشتاء في الولايات المتحدة . وبينما تتجمد البحيرات في متنزه الرتيرو بحيث تصلح لممارسة رياضة الانزلاق على سطحها ، فإن الغرفة التي تدخلها الشمس تعتبر على درجة كافية من الدفء في أشد أحوال البرودة . فإذا ما كان هناك موقد فحم خشبي أو مدفأة كهربية صغيرة تتوهج قرب قدميك ، فإن ذلك أقصى ما تستطيع أن تنتظره من وسائل الراحة في أمسية من أمسيات الشتاء :

وكما يبدو عدم اكتراث أهل مدريد بالحرارة أو البرودة ، فإن التمييز بين الليل والنهار قليل الدلالة بالنسبة إليهم . فعظمتهم لا ينام سوى ساعات قليلة في الليل ، إلا أن النعاس يغالبهم في فترة القيلولة الطويلة بعد الظهر ، حين تغلق جميع الحوانيت والمكاتب . وفي نحو الساعة الرابعة والنصف أو الخامسة بعد الظهر تصحو المدينة من جديد وتفتح المحلات أبوابها ، ويدب النشاط والحيوية في المدينة لعدة ساعات أخرى .

ويبدأ وقت التسلية في مدريد في نحو الساعة السادسة أو السادسة

والنصف بعد الظهر ، فتستطيع أن تستأجر عربة تنقلك إلى حديقة الرتيرو وبهوائها البارد المنعش ، حيث تشاهد أناساً في ملابسهم الأنيقة يفعلون مثل ما تفعل ، أو قد تقرر الذهاب إلى السينما حيث تبدأ الحفلة النهارية في الساعة السادسة والنصف . وعندما ينتهى العرض وتخرج إلى الشوارع التى تدب فيها الحياة فى نحو الساعة التاسعة ، ستجد أن الوقت ما زال مبكراً على العشاء ، فلا يفكر سوى الأجنبي أن يأكل فى مثل هذه الساعة . فانتظر حتى الساعة العاشرة ، إلا إذا كنت معتماً دخول مسرح ليلي — وهو يبدأ فى الحادية عشرة . ونمهل فى تناول طعامك ، حتى إذا انتصف الليل تجول فى شوارع وسط المدينة المتألثة الأنوار ، فهى تنبض بالموسيقى والضحك والحديث . ستري الأرصفة ولا موضع لقدم عليها من ازدحام الأهالى ، الذين يصطحب بعضهم أطفالاً يتعلقون بأيديهم ، وسيصادفك بائعو المشروبات المرطبة ، وبعض الصبية وعجائز النساء الذين يبيعون أوراق اليانصيب . كل ورقة بعدد قليل من البيسيتات (pesetas) ، وهم يذكرونك بالثراء الذى سيهبط عليك عندما تربح الجائزة الأولى . وتبلغ قيمة الجائزة الأولى فى يانصيب عيد الميلاد ٢٠ مليون بيسيتا — أى نحو نصف مليون دولار . ولن تنجو من الشحاذين من جميع الأعمار والعاهات الذين يستدرون إحسانك .

وتعقد المقابلات المسائية فى المقاهى التى تشغل الأرصفة أو المقاهى الداخلية ، وتبلغ أقصى درجات حيويتها . فتجلس جماعات من الأهالى حول الموائد ، يضم بعضها جمعاً عائلياً ، ولكن الأغلبية تكون

من مجموعات من الرجال الذين يتحدثون ويتجادلون ويلوحون بأيديهم . وتزداد كثافة الدخان في داخل المقهى بمرور الوقت حتى يدور رأسك وأنت لا تدري إذا كان ذلك راجعاً إلى سحب الدخان ورائحته القوية أم إلى سهرك إلى ساعة متأخرة . وإذا استطعت أن ترى ما حولك من خلال هذا الضباب ، فستلاحظ أن السيدات قد اختفين ، وأن المكان قد أصبح عالمياً خاصاً بالرجال . وأخيراً تنفض هذه الجماعات وينتشر أفرادها في الشوارع التي ما زال المرح يملؤها بما فيها من الجماعات التي أخذت في الخروج من المسارح والنوادي الليلية . وعندما تعود إلى فندقك ستجد أن الساعة قد بلغت الثانية والنصف أو ما يقاربها . أما إذا كنت مقيماً في إحدى العمارات السكنية أو نزيراً في « بنسيون » ، فعليك أن تصفق بشدة ثم تنتظر وأنت تتشاءب أمام مدخل المبنى الذي تقيم فيه حتى يلبى الحارس الليلي (sereno) تصفيقك ويأتي متاقلاً ويبيده المفتاح الذي يفتح لك به الباب الخارجي . وعندما يتمنى لك الحارس ليلة سعيدة (رغم أن الوقت في الصباح) سيهديك تفكيرك إلى أن الشوارع والمقاهي هي غرف الاستقبال الحقيقية بالنسبة إلى أية مدينة إسبانية كبيرة ، وستدرك أن معارفك من الإسبان الذين يدعونك دائماً إلى مطعم أو مقهى أو مسرح ، ولا يستقبلونك أبداً في منازلهم ، إنما يحتفون بك في الأماكن التي يجدون فيها أكبر متعة لأنفسهم .

وفي صباح اليوم التالي تتناول إفطارك المكون من القهوة باللبن الساخن (أو الكاكاو أو الشاي) مع خبز مقدد أو كرات

من الحبز الطازج ذات القشرة الناضجة ، وقد تفكر بعد انتهائك من تناوله أنك لا ترغب في عمل أكثر عناء من جولة شرائية . وكثيراً ما وصفت مدريد بأنها جنة المشتري ، فالإسبانيون من أمهر الصناع ، وسرعان ما تجعلك السلع التي تبيعها المحلات التجارية في مدريد خاوي الوفاض : فهناك القفازات وحقائب اليد التي تنسبك باريس ، والتيل المطرز الذي لا يقل جمالا عما تشتره في فرنسا أو إيطاليا ، والأواني الخزفية الرائعة . وهناك طبعا ، فضلا عما تقدم ، المراوح والأمشاط العريضة والأخيرة المصنوعة من « الدنتيل » ، الطويل منها . والقطع الصغيرة الدائرية التي تحملها الفتاة الإسبانية في حقيبتها لتضعها فوق شعرها عندما تذهب إلى القديس ، أو عندما تسرع إلى داخل الكنيسة لتشعل شمعة وتتضرع إلى الله .

ولا ينبغي أن تفوتك زيارة سوق مدريد الشهيرة المعروفة باسم « راسترو » (Rastro) وهي سوق هائلة تقع خلف بوابة الشمس ، حيث تجد البضائع وقد نشرت على « أرصفة » أو صففت في رفوف في حوانيت صغيرة . وتشمل السلع المعروضة شيئا من كل شيء ، ما بين سقط المتاع وثمان الكنوز : كالمدايق النحاسية ، وفضلات من الحرير القديم ، وفناجين دون أطباقها ، وأطباق دون فناجينها ، وأصص « زهريات » رقيقة من زجاج البندقية ، ومنسوجات مطرزة باليد — قد تبدو متسخة قليلا ، ولكنها رائعة في جمالها . أما الحوانيت التي على طول الطريق فإنها تعرض سلعا أكثر ترتيباً وتنسيقاً ، وقد تعثر في إحداها على كتاب بعينه نفدت طبعته وكنت

تبحث عنه ، أو قد تجد « طقم » شاي كاملا من صنع درسدن ،
أو لوحة فنية .

وبعد جولتك في الراسترو ، حيث كنت تدفع الناس بمرفقك
في الزحام ويدفعونك ، سيحل بك التعب إلى الحد الذي يجعلك
ترغب في الجلوس في أحد المقاهي المكشوفة ، حيث تطلب قهوة
أو عصير ليمون ، أو أحد المشروبات ، ثم تستند إلى ظهر مقعدك
لتشاهد ما يبعث على الضحك والأسى في الحياة اليومية مما يمثله المارة
أمامك أو يخیلونه إليك ، ويبدو بعضهم وكأنهم شخصيات في حاجة
ماسة إلى موضوع قصة يربطهم بعضهم ببعض ؛ فالجنود الذين
ينتمون إلى حرس الجنرال فرانكو من المغاربة — في برانسهم
وعماماتهم البيض ، ورجال الحرس الوطني بقبعاتهم المثلثة من الجلد
اللامع ، وضباط الجيش الإسباني البدينون الذين تحيط بهم أحزماتهم
الزرقاء أو الحمراء الزاهية فوق ملابسهم الرملية « الكاكية » ، كل
هؤلاء يمكن أن نتخیلهم كجوقة غنائية في إحدى الأوبرات . ومن
وقت إلى آخر تمر من أمامك إحدى المربيات وقد ارتدت الزى
الجميل للإقليم الذي تنتمي إليه ، وهي تقطر خلفها عدداً من الأطفال
ذوى الوجوه المشرقة . ومما سيلفت نظرك أن الفتيات والنساء اللاتي
تشاهدن يتميزن بالخاذبية والرشاقة وحسن الهندام ، ولو أنهن قد
لا يكن دائماً على شيء من الجمال ، أو حتى الوسامة . فهما تكن
المرأة الإسبانية فقيرة ، ومهما يكن منزلها مكتظاً وعارياً من الأثاث

فإنها تعزّز وتهتم بمظهرها إلى الدرجة التي تجعلها تنفق آخر « بيسيتا » معها لتشتري شيئاً جميلاً ترتديه .

ولربما مرت أمامك جنازة فتشاهد عربية الموتى (وتكون سوداء للبالغ وبيضاء للطفل) تجرها خيول زينت بالريش ، وكالما كان المتوفى على المقام ، زاد عدد الخيل وعدد الريش . ويبدو الموت في إسبانيا كنوع من الاحتفالات الكثيرة ، وتضحى أسرة الميت بأية تضحية لتجعل الجنازة رهيبة إلى أقصى حد مستطاع . أما المقابر الإسبانية فهي كالغابات التي تكتظ بالشواهد والتماثيل .

وإذا اتخذت مدريد مركزاً لك ، فإنك تستطيع القيام برحلات قصيرة جذابة في المناطق المجاورة لها عبر سهول قشتالة ذات التربة الصفراء العارية عن الأشجار . فعلى بعد واحد وثلاثين ميلاً إلى الشمال الغربى يشمخ قصر الاسكوربال على السفوح المنخفضة لجبال وادى الرامة التي تكسو قممها الثلوج . وعلى نفس المسافة تقريباً إلى الشمال الشرقى تقع قلعة « أنارس » (Alcala De Henares) التي كانت جامعتها تنافس جامعة سالمنقة في أيام مجدها . وفى عام ١٨٣٦ انتقلت الجامعة بطلابها من قلعة « أنارس » إلى العاصمة ، وعرفت منذ ذلك الوقت بجامعة مدريد . وترتفع مباني الجامعة الجميلة البالية في المدينة القديمة بكل الوقار الذى يؤهلها له ماضيها العظيم . وإذا عبرت أحد أفنية هذه المباني المرصوفة بالأحجار الكروية الصغيرة ، فقد تتناول غداءك في غرفة تبدو كما كانت على مر القرون عندما كان الأساتذة

يتناولون الطعام مع خيرة طلابهم حول مدفأة ضخمة مرتفعة . وبعد الانتهاء من غداثك سوف تزور المنزل الذي ولد فيه سرفانتس . ومن الأماكن التي تستحق الزيارة أيضاً قصر « البارديو » (El Pardo) الذي لا يبعد عن مدريد بأكثر من تسعة أميال ، وتحيط به أشجار بلوط قزمية في أرض متموجة السطح كانت فيما مضى حديقة صيد ملكية . وقد دمرت مدينة « البارديو » في أثناء الحرب الأهلية ، ولكن أعيد بناؤها بشكل جذاب . وبها الآن مسجد يقيم فيه جنود الجنرال فرانكو من المغاربة صلواتهم .

وفي خلال قيامك بهذه الرحلات عبر أراضي قشتالة الفقيرة القاسية المتربة ، حيث تلوح بين الحين والآخر قلعة أو مدينة جبلية وكأنها حفرت في الأفق كالسراب ، ستنتطب في ذهنك صورة لعظمة هذا الإقليم الرتيبة ، وستأمل في مدى مطابقة طبائع أهل قشتالة لصفات إقليمهم . فالقشتالي — كالأرض التي يعيش عليها — نحيل وجاد وعنيد ، فلا هو في ساحة جيرانه الذين يقطنون المقاطعات الجنوبية ، ولا هو في تدفق وانطلاق مواطنيه في الشمال والشرق . ولكنه — كأرضه — يسمو بخياله وطموحه ، ولن تجد قوماً في شبه الجزيرة كلها شيدوا قلاعاً تداني روعة القلاع التي أقامها القشتاليون في إسبانيا .

الفصل الثالث عشر الأندلس

لا يوجد سوى عدد قليل من الممرات الجبلية التي تخترق سيرا مورينا (Sierra Morena) — أى الجبال — مؤدية من قشتالة في الشمال إلى الأندلس في الجنوب ، كما لو كانت الطبيعة تحاول أن تحمي هذا الجزء البديع من إسبانيا من الهواء الشمالى العنيف القارس البارد . فاذا ما انتقلت من قشتالة إلى الأندلس فخرقاً الحوائق الصخرية والتلال التي تعطرها روائح الأزهار في تلك الجبال ، فانك ستجد في الأندلس ما يعتبره معظم الناس الطابع الإسباني الحقيقي . وسوف تجد عندئذ أن هناك رغبة قوية تدفعك لكي تكون رساماً أو شاعراً أو راقصاً حتى تستطيع أن تعبر عن شعورك نحو هذا الإقليم الساحر الذي يعنى الشيء الكثير بالنسبة إليك .

وطبيعة الأندلس متباينة ، فهي تشمل الطرق المتربة التي تتدحرج بين صفوف من أشجار الكافور وأحراش النباتات الشوكية والمدن الناصعة البياض في إطار من الحشائش التي لفيحتها الحصى وأضفت عليها ألواناً بنية تتدرج إلى الرمادية فالحضراء ، ومن الزيتون التي تعكس أوراقها لوناً فضياً في ضوء الشمس ، وبساتين البرتقال التي ينبعث منها شذى جميل يفوق الوصف في الجو الحار ؛

والتلال العارية أو الجبال التي تكسو الثلوج قممها وقد شمتحت
بخطوطها الواضحة في السماء الباهرة الضياء .

وترى في الأندلس أبراج المدن العربية القديمة بارزة فوق التلال
البعيدة ، وتقابلك قوافل الحمير التي تسد الطرق بسيرها الوئيد وقد
انبعجت أخرائجها بما تحمل من أخشاب وتبن وفواكه .

والأندلس إقليم الضياع الكبيرة التي يقوم بالعمل فيها أناس
في فقر مدقع ، كما تجد به الأطفال النحفاء الذين يركضون خلفك
في شارع القرية يستجدونك بعض الدراهمات ، والنساء الرشيقات
اللائئ يرتدين في أيام الآحاد والأعياد حجاباً من الدنتيل الأسود ،
يتدلى من مشط مرتفع مثبت في رؤوسهن . إنها بلاد الأسواق ،
والمهرجانات ، والحج ، والغجر ، وثيران المصارعة القوية الجذابة .

وفي الأندلس يلتقي الرجل بعبارات المديح على مسامع أية فتاة
تثير إعجابه في الطريق دون أن يقصد خدش حياتها . أما صغار
الفتيات المخدرات « المعتنى بتربيتهم » فإنهن لا يغادرن منازلهن إلا في
صحبة مرافق ، وحتى المرأة الأمريكية يقل إحساسها بأنها لافته للأنظار
إذا لم تكن سائرة بمفردها .

ولكل مدينة في الأندلس سحرها الخاص بها . فتقدم لك قرطبة
المسجد والحسور (الكباري) التي بناها العرب ، والشوارع الضيقة
في الحى القديم من المدينة . وتتميز كل من مالقة وقادس بهوائها العليل
ومواقعها الرائعة على البحر ، فتقع مالقة على البحر المتوسط ،

في حين تمتد شوارع قادس بمنازلها البيضاء كالأصابع الطويلة الناصعة في مياه المحيط الزرقاء .

أما مدينة رنده ، فلم تقع عينك على شيء مثلها وهي قابعة فوق التلال الصخرية المرتفعة ويشطرها من وسطها خانق نهر « حوادالين » (Guadalevin) وهو خانق عريض رهيب ذو صخور في احمرار الصدا . وتعبر النهر في رنده ثلاثة جسور « كبارى » ، أقام الرومان أقدمها وأخفضها مستوى ، وشيد العرب الثاني منها ، أما الثالث أو « الجسر الحديث » فلا يزيد عمره كثيراً على مائة وخمسين سنة . وتطل المنازل البيضاء التي تعلو جوانب الهوة السحيقة التي تشطر المدينة على منظر يدير رأس مشاهده ، ينتهى بالنهر الذي يندفع في مجراه العميق . ويتكون الجزء القديم من المدينة من شبكة من الطرقات الرديئة الشديدة الانحدار ، حيث يلتقى المرء جموعاً من الأطفال الذين يستجدون النقود ، في حين تذكرك نظرات الريبة التي تعلو الوجوه السمراء للرجال والنساء أن رنده ظلت عدة قرون وكرماً للمهرين . وهناك منازل جميلة في بعض تلك الشوارع القديمة الفقيرة ، لها حدائق غناء تقع خلفها وتمتد في جزء من سفح التل المنحدر إلى الوادي . ولعل حلبة مصارعة الثيران في رنده هي أجمل حلبة في إسبانيا بما فيها من شرفات حديدية ومقاعد خشبية مغطاة . وقد تقص عليك العجوز المبتسمة التي ترشدك كيف أن القواعد التي تتبعها هذه الرياضة حتى يومنا هذا هي من وضع بدرو روميرو (Pedro Romero) أحد أبناء رنده الذي ذاع صيته في مصارعة الثيران من نحو مائة وخمسين سنة

مضت ، وكان يدرو معاصراً للفنان جويا الذي يعتقد أنه كانت له يد في تصميم الزى البراق الذي ما زال مصارعو الثيران يرتدونه حتى اليوم . ولا شك أنك تعرف شيئاً عن غرناطة وقصر الحمراء — أو القلعة الحمراء (Alhambra) — الذي شيده المسلمون في موقع رائع الجمال ، تطل من علياء تل على نهر دارو (Darro) ، وتلوح من بعد جبال سيرا نفادا وقممها التي تغطيها الثلوج عبر الأراضي الحصبة نحو الجنوب . وبالرغم من أن شارل الخامس هدم جزءاً من قصر الحمراء لينسخ مكاناً للقصر الذي شيده على نفس البقعة ، فإن معظم الجدران السميكة ما زالت قائمة ، كما بقي كثير من الأفنية الجميلة ، فضلاً عن الغرف ذات الأقباء الرقيقة والجدران المكسوة بالآجر الخزفي ، والشرفات المرتفعة ذات المناظر الخلابة . وكان ملوك المسلمين قصر يقع على مرتفع آخر في غرناطة — هو قصر «جنراليف» (Generalife) يتخذون منه مقراً صيفياً ، وما زالت حدائقه ومناظره تبعث البهجة في النفوس .

ولابد أن فرديناند وايزابلا كانا يعلقان أهمية كبيرة على هذه المدينة التي آلت إليهما بعد انتصارهما على المسلمين ، لأنهما أوصيا بأن يدفنا في الجناح الملكي من كاتدرائيتها ، أما خلفاؤهما من ملوك الهابسبرج فكان إعجابهم كبيراً بقصر الحمراء ، ورغم أنهم كانوا دائماً في حاجة إلى المال فإنهم دبروا منه ما يكفي لصيانة القصر . أما ملوك البوربون فقد أهملوا قصر الحمراء حتى أصبحت مبانيه شبه أطلال يأوى إليها المهربون والأصوص والمشبهون . وقد استخدمه

نابليون لإيواء جنوده لأنه كان قلعة حصينة ، ولكن الفرنسيين نسفوا عدداً كبيراً من أبراجه عندما غادروا المدينة .

كان قصر الحمراء في حالة يرثى لها في عام ١٨٢٩ . ثم حدث أن شاباً أمريكياً - هو واشنطن إرفنج (Washington Irving) - أغرم بجماله الشاعرى ، فأقام في جناح منه وكتب في وصفه مجموعة من القصص التي نشرت بعنوان « قصص الحمراء »^(١) (Tales of the Alhambra) وقد استولى ذلك الكتاب على مشاعر السياح من الأمريكان والإنجليز حتى أخذوا يتدفقون على غرناطة ، كما أنه نبه الإسبانيين إلى أنهم ما لم يتعهدوا هذا القصر بعنايتهم فسوف يروونه وقد تهدم أمام أعينهم . ويعترف الإسبانيون اليوم بأن إرفنج كان له الفضل الأكبر في إنقاذ هذا الكنز لهم . ولقد أصبحت غرناطة مدينة حديثة غنية بفضل ما يؤمها من سياح . ويبلغ الزحام في ساحات قصر الحمراء وحدائق قصر جنراليف حداً يجعلك تدير ببصرك إلى أعلى نحو الجبال المرتفعة ، أو إلى أسفل نحو الغابات التي يشرف عليها قصر الحمراء إذا أردت أن تلمس ما يثيره هذا الجمال حقاً من أحاسيس شاعرية .

أما أشبيلية فرغم أنها حاضرة الأندلس وإحدى المدن الإسبانية الكبرى فإنها ما زالت تبدو كمدينة انتزعت من كتاب يضم صوراً فنية . فهي تقع في وادى نهر « الوادى الكبير » (Guadalquivir) ،

(١) قامت مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر بنشره بالاشتراك مع دار المعارف ، وطبع طبعين الأولى في سنة ١٩٥٥ والثانية في سنة ١٩٥٨ .

على شاطئ النهر المنبسط ، وكانت أشبيلية فى يوم من الأيام الميناء الذى تمر به جميع التجارة مع جزر الهند الغربية ، وكانت تستقبل السفن الفرنسية والإيطالية والبرتغالية التى تشق طريقها إليها من مصب النهر لكى ترسو فى مينائها . أما الآن فيقتصر نشاطها الملاحي الرئيسى على الخط بين إسبانيا وجزر كنارى .

وتشتهر أشبيلية بصحون منازلها التى هى بمثابة غرف جلوس جذابة فى الهواء الطلق بالنسبة إلى سكان تلك المنازل . ويقع نظرك على هذه الصحون الجميلة من خلال البوابات الحديدية الشبكية المطلة على جانبي الشارع . وقد يكون أحدها مرصوفاً برخام وردي اللون ، وجدرانه مكسوة بقبشاني ذى زرقة عميقة ، وفى وسطه نافورة تحيط بها قدور ثقيلة قد أزهـر فيها الورد والياسمين . وفى أشبيلية كثير من الشوارع الضيقة التى إذا مرت منها سيارة اضطرت أن تلتصق بجدار أقرب منزل إليك كى تدعها تمر . بل إن أحد الشوارع الرئيسية فى المدينة المسمى « شارع الثعابين » (Calle Sierpes) لا يسمح بمرور العربات فيه لضيقه . وفى هذا الشارع يلتقى الأشبيليون لتبادل الحديث وشراء حاجاتهم واحتساء المشروبات الباردة أو القهوة الساخنة نهائياً وليلاً . فتستطيع أن تشتري مروحة أو مشطاً طويلاً أو نسخة من « دون كيخوته » ، أو « ورقة يانصيب » ، أو باقة من الزهر ، أو طيراً فى قفص خشبي صغير . كما تستطيع أن تسهر مع البوم حتى الساعة الأولى أو الثانية صباحاً . وفى أثناء النهار يغطى الشارع بنخيام من الخيش المشدودة على حبال — كقلاع المراكب —

لتحجز أشعة الشمس المحرقة ، أما في الليل فتطوى هذه الخيام ويمكنك أن تسير أو تجلس تحت السماء الصافية .

وما زالت أشبيلية تذكرك بأنها كانت مدينة إسلامية . فبرج الأجراس في الكاتدرائية كان فيما مضى مثذنة مسجد يحتل موقع الكنيسة الحالية ، وقصر الأسرة المالكة ما هو إلا القصر العربي القديم الذي أدخلت عليه بعض الإصلاحات والتعديلات ، وحدائق القصر تزينها الورود وأشجار السرو ، والممرات الملتوية التي تنمو على جوانبها شجيرات البقس ، والبحيرات والنافورات ، والاستراحة الصيفية ذات الطراز العربي التي يقال إن شارل الخامس كان يجلس فيها ويشرب الشاي .

ومع أن مدناً كثيرة في جنوبي إسبانيا تشتهر بإحيائها لأسبوع الآلام ، إلا أن الاحتفالات التي تقام بهذه المناسبة في أشبيلية لا تضارعها فيها أية مدينة أخرى ، ويقوم السياح بحجز أماكنهم في الفنادق مقدماً — قبل ميعادها بسنة . فمن يوم الثلاثاء السابق ليوم « الجمعة الحزينة » تمتلئ الشوارع ليلاً ونهاراً بالمواكب التي تمثل النوادي الدينية ، وتسير مجموعات ، كل منها تضم نحو أربعين رجلاً ، بجوار منصتهم التي تعلوها تماثيل لشخصيات دينية — غالباً ما تكون للعدراء . فيتجهون من كنيسة حيهم إلى وسط المدينة محترقين « شارع الشعابين » حتى يبلغوا الكاتدرائية فيدخلوها ثم يخرجوا منها عائدين إلى نقطة بدئهم .

وهذه المنصات ثقيلة جداً حتى إن الواحدة منها تظلل مائة رجل أحياناً وهم يسرون تحتها لحملها . ويرتدى المشتركون في ركبها ملابسهم الجميلة التي تزهو بألوانها في ضوء الشمس أو تحت الأنوار. وتتكون تلك الملابس من أردية طويلة وعباءات وأغطية رأس مدببة عالية تنسدل على الوجه في شكل قناع - وجميعها رائعة الألوان أو تتألف من مجموعة من الألوان الجميلة . فقد يلبس المنتمون إلى أحد الأندية غطاء رأس أحمر يتدلى فوق رداء أرجواني ، في حين تلبس جماعة أخرى أردية من القطيفة الزرقاء وقبعات من نسيج ذهبي ، وترى جماعة ثالثة بملابس سوداء وقبعات خضراء . ولكل تمثال من التماثيل التي تحمل على المنصات أتباع مخلصون - وبخاصة تماثيل العذراء . ولكن أشهرها جميعاً هو تمثال «عذراء الأمل» (La Macarena) الذي يحتفظ به في حي « ماكارينا » بإحدى ضواحي أشبيلية المسماة « تريانا » (Triana) - وهي مقر جماعات الفجر . و « عذراء الأمل » هي انقديسة المحبة إلى فقراء الناس ومصارعي الثيران الذين يصلون لها قبل دخول حلبة المصارعة ويشكرونها على ما يحرزونه من نجاح . وكان « خوسيليتو » (Joselito) المصارع الفجري الذائع الصيت يهديها خاتماً ثميناً كل عام إلى أن لقي حتفه في حلبة المصارعة .

وينخرط في الموكب المرافق للمنصة أو يندس بين الجماعة التي يحملها عدد من الفوضويين الذين يحتمل أنه كانت لهم يد في حرق الكنائس إبان الحرب الأهلية ، ومع ذلك فهم شديداً الولاء لعذرائهم ويصممون على أن تتحلى بأبهى الثياب المطرزة بالذهب

وتلبس أنفـس التـيجان وتـبـز جـمـيـع التـمـائـل الأخرى فـي الموكب . وهم يفرضون على أنفسهم إتاوات ليشتروا بحصيلتها الحلـى والملابس الزاهية لعذرائهم ، يقاتلون أى شخص تسول له نفسه أن يقول عنها إنها أقل جمالا من أى تمثال منافس لتمثالهم .

ويستغرق مرور الموكب من تسع إلى عشر ساعات ؛ إذ عليه أن يسير ببطء وسط تراحم المشاهدين ، كما أنه يتوقف عن الحركة من وقت لآخر حتى يستريح حاملو المنصة ، أو لكي يتاح للتمثال أن يتلقى تحية الـ « سايتا » (Saeta) . والـ « سايتا » معناها « السهم » . وسهام التحية التى يشيرون إليها هى سهام خيالية تنطلق من فم الشاب عندما يبدأ فى ترديد « أنشودة » من إحدى الشرفات ، أو عندما تطل امرأة من إحدى النوافذ وتعبر عن حبها للعذراء فى أغنية جميلة . وعندما تشق « السايتا » الهواء بأنغامها البطيئة المشحونة بالعاطفة تتوقف الفرق الموسيقية عن العزف ، ولا يسمع صوت النفير ، وينجم السكوت على الحشد ، وقد يتم ذلك والمغنى نفسه سائر مع الركب .

ويوافق يوم الخامس عشر من شهر أغسطس عيد انتقال العذراء إلى السماء ، وهو أحد الأيام الأخرى التى تشهد أشبيلية فيها الموكب ، فتكسى واجهات المنازل بالخرائر ، وتزين بالزهر ، وتحتشد جموع الناس فى شوارع المدينة ، وتندق نواقيس الـ « خير الدا » فيصم رنينها الأذان . وفى صباح ذلك اليوم يحمل الناس تمثال « عذراء الملوك » من الكاتدرائية ويطوفون الشوارع به . وعذراء الملوك هى القديسة

الحامية للمدينة ، وهى جديرة بأن تلقب بملكة جميع عذارى أشبيلية
لقدمها ولما يروى عن شجاعتها النادرة . وتحكى قصتها أن الملك
فرديناند الثالث — من ملوك القرن الثانى عشر — أراد أن يتخذ
لنفسه حليفاً سماوياً يشد أزره فى حروبه ضد المسلمين . فكلف نحائاً
شهراً بأن يصنع له تمثالاً للعدراء . وبدأ المثال فى عمله ، ولكن عندما
أرسل إليه فرديناند برسالة يصر فيها على تسلم التمثال فى مدى ثلاثة
أيام أدرك المثال استحالة إنجازها للعمل فى هذه المدة ، فأغلق حانوته
مهرب يائساً . وفى اليوم الثالث توجه فرديناند إلى الحانوت وأمر
بفتحه ، وإذا به يجد التمثال كاملاً .

وبعد هذا الحادث كان فرديناند يصطحب تمثال العدراء فى جميع
حملاته ، وقد كان مؤمناً بأنها ساعدته فى الاستيلاء على قرطبة وأشبيلية
من المسلمين . وفى إحدى المعارك أصيب التمثال بجرح . وتصر
الأسطورة على أنه طيلة الثمانمائة سنة التى انقضت منذ ذلك الوقت
لم تنجح أية كمية من الطلاء فى إخفاء الخدوش التى ما زالت تشاهد على
وجهها وهى تسير فى الموكب ، مرتدية عباءة تجمع بين اللون الأحمر
واللون المذهبي وعلى رأسها تاج مرصع بالعقيق والألماس أهداه لها
أهالى أشبيلية من نحو ثلاثين سنة اعترافاً بفضلها الدائم عليهم .

ومن الأعياد الأخرى عيد الـ « فريا » (Feria) الذى يحل ميعاده
فى شهر أبريل . وهو معرض للماشية يستمر ثلاثة أيام تقام بعد
ظهر كل يوم منها حفلة مصارعة ثيران . ويستمر الرقص

والمرح طول الليل حتى الفجر . وفي هذه المناسبة يفتح أثرياء الملاك مساكنهم الفخمة في المدينة فتمتلئ بضيووفهم الوافدين من مدريد وباريس وبرشلونة ، وعندئذ ترى العربات الجميلة التي تجرها جياد قوية ، أو تشاهد البغال البديعة التي تدب بحواغرها في الشوارع . كما ترى الرجال والنساء وقد امتطوا الخيل يجوبون بها أنحاء المعرض أو يحتشدون في المدينة بأزيائهم الإقليمية الخلابة .

ويقصد بكلمة « روميريا » (Romeria) في إسبانيا الحج ، أو القيام برحلة إلى الريف لزيارة أحد الأضرحة المشهورة . ومع أن عدداً كبيراً من الإسبانين يقوم بذلك إلا أن أهل أشبيلية يمتازون عن غيرهم بموهبتهم التي يحولون بها حجاتهم هذه إلى مناسبات تبهير المشتركين فيها بألوانها ومرحها .

ومن هذه المناسبات البهيجة « حجة الروكيو » (Romeria Del Rocío) وهي تبدأ من أشبيلية في عيد العنصرة في أوائل الصيف ، فيعبر الحجاج نهر الوادي الكبير ويخترقون تريانا في طريقهم إلى الريف ، تنقلهم عربات عالية ذات عجلتين ، وقد ارتدى ركبها أبهى حللهم . فترى الفتيات في ملابسهن المنقوشة وأحزمتهن الجميلة ، في حين يرتدى الرجال سترات قصيرة وقبعات جامدة مفلطحة ، وينضم إلى القافلة وهي تشق طريقها في الريف حجاج آخرون تحملهم عربات أخرى ، أو يمتطون جياداً أو يسيرون على أقدامهم . وتستغرق هذه الرحلة ثلاثة أيام بلياليها . وعندما تقف العربات في المساء تتجمع

في شكل معسكر ، يأخذ الحجاج في الرقص والغناء حتى ساعة متأخرة من الليل .

و « تريانا » هي ضاحية أشبيلية التي تقع عبر النهر ويقع بها الغجر والملاحون . وهي مكان صاحب مزدحم بأناس ينخل إليك . أنهم شخصيات في قصة من قصص الصعاليك في القرن السادس عشر . ويسترعى نظرك في تريانا أعداد الحمير الكبيرة التي تضطر السيارات إلى الإبطاء في سيرها ، كما تشاهد العربات التي تجرها البغال وهي تقع فوق الطرق ، والرجال الذين يحملون فوق ظهورهم أحمالا ثقيلة من الخشب أو الدريس أو ألواح « القيشاني » وسيقع نظرك أيضاً على عدد كبير من الدكاكين التي تخصصت في صناعة السروج وشحن الأسلحة وهما حرفتان تشتهر بهما جماعات الغجر .

وهناك آلاف من الغجر في الأندلس وفي مقاطعة « مرسية » المجاورة له ، إذ عندما وفدوا إلى شبه الجزيرة في منتصف القرن الخامس عشر فضلوا الاستيطان في الجنوب لدفته ووفرة زيتونه وفاكهته ، كما أعجبهم ما وجدوا في البلاد من خيل وماشية جميلة ، فاتخذوا منها تجارة حققت لهم أرباحاً كبيرة على حساب أهل الريف البسطاء . وكان الغجر يتجولون من مكان إلى آخر حيث تقام الأسواق أو تحيا الأعياد ، فيتم رجالهم صفقات مريبة في الخيل والبغال ، وتقرأ النساء الطالع أو يقمن ببيع شراب يجلب الحب . وكان الغجر فيما مضى

قوماً مهلهلين قذرين ، كثيراً ما كانوا ينقضون على المسافرين في الطرق المهجورة فيسرقون أمتعتهم ويقتلونهم . وكان القانون الإسباني في تلك الأيام لا يسمح لهم باخذ أية مهنة أو حرفة سوى رعى الأغنام ، أو فتح حانة في إحدى المناطق الوعرة المنعزلة ، أو ممارسة الأعمال الشاقة في المزارع . وقد تغاضت عنهم محاكم التفتيش على اعتبار أنه لا أمل في إنقاذ أرواحهم . وكانت معتقداتهم قريبة من الوثنية : فلم يكونوا يؤمنون بالآخرة . ومما يرويه الكاتب الإنجليزي « جورج بورو » (George Borrow) — الذي كان يتكلم لغتهم ويعرف عاداتهم إلى درجة أنهم كانوا يعتبرونه واحداً منهم — أنه في ذات مرة قال له أحد الغجر الإسبان :

« لقد عشنا في هذه الدنيا أشراً وتعساء بما فيه الكفاية ، فلماذا نعيش مرة أخرى ؟ » .

وبمرور الوقت أصبحت القوانين التي تحكم الغجر أخف وطأة وسمح للكثيرين ممن كفوا عن التجوال أن يمارسوا ما يروق لهم من أعمال . فتخلى بعضهم عن لغة الغجر وملابسهم ، ولكن غجر إسبانيا بوجه عام — كغيرهم من الغجر في الدول الأخرى — ظلوا متمسكين بعاداتهم القبلية . وما زال سكان الريف في إسبانيا لا يثقون بهم بل ويكرهونهم . ويقال إنه في خلال الحرب الأهلية انقض الإسبان على جماعات الغجر التي كانت لا تزال تجوب البلاد وقتلوا ما يقرب من نصف عددهم .

وقد أسهم الغجر بنصيب كبير في حياة إسبانيا الفنية وبخاصة في الأندلس الذي أضفت عليه موسيقى الغجر ورقصهم جواً من المرح. كما أن عدداً كبيراً منهم يمارس مصارعة الثيران . وفي غرناطة بكاد الغجر يتساوون في اجتذابهم للسياح مع « قصر الحمراء » أو « جنراليف » فترى نساءهن يسرن في شوارع المدينة بملابسهن الطويلة المكشكشة وقد صففت شعورهن الكثة عالية فوق رؤوسهن وتدلّت الأقراط الذهبية الثقيلة من آذانهن . ويذهب السياح إلى الحى القديم في غرناطة المسمى « البايثين » (Albaicin) حيث يعيش الغجر ، فيشاهدون المنازل التي يقطنونها في الكهوف ويراقبونهم وهم يرقصون . ولكن هذا الحى تحول حديثاً إلى حى تجارى يعتمد اعتماداً كلياً على « ياخطة » ، كما أن راقصات الغجر أصبحن يزين أنفسهن بأحمر الشفاه وطلاء الأظافر ، ودخلت النظافة إلى الكهوف التي يتخذونها مساكن لهم ، كما أصبحت تلك المساكن مليئة بالمعدات والأدوات المنزلية الحديثة .

ومع ذلك فما زالت هناك جماعات بدائية من الغجر يقيمون بالكهوف في مقاطعة « مرسية » المجاورة للأندلس ، حيث يعيش آلاف منهم في كهوف نحتت في الصخور الصلصالية الرخوة التي تتكون منها التلال المنخفضة ، تحيط بهم القذارة والرمال والأتربة ويلفحهم هواء أفريقيا الحار .

وحتى إذا لم تتح لك فرصة زيارة الأندلس بنفسك ، فإن شاعراً من شعراء الأندلس الحديثين يقدم لك هذه المقاطعة في أشعاره —

فتكاد تحس من واقعيتها أنك في جوها الحار تشم أريج أزهارها ،
وتتصاعد إلى أنفك رائحة الزيت الذي يطهى به الطعام ، كما تسمع
أنغام موسيقاها الحميلة . ويصطحبك الشاعر إلى حلبة مصارعة الثيران
وإلى 'خانق « روندا » العميق الذي تلقى فيه جثث الخيل التي مزقتها
قرون الثيران . ويقدمك الشاعر إلى الغجر ، فيروي لك جرائمهم
ويصف لك رقصاتهم ، ويحدثك عن تاريخ الأندلس من أيام الرومان
والقوط الغربيين والمسلمين . إن هذا الشاعر هو « فيديريكو جارثيا
لوركا » (Federico Garcia Lorca) الذي نظم في حياته القصيرة
أشعاراً تنبعث من أعماق المقاطعة التي ولد فيها . وقد أحيا « لوركا »
لون الشعر القصصي القديم الذي كان منتشرًا فيما مضى واستخدم
هذا القالب الشعري لكتابة قصص مثيرة تتناول موضوعاتها الحب
والثأر والبطولات الحربية . وحتى قبل أن تطبع أشعاره في ديوان
كان زملاؤه من طلاب جامعتي غرناطة ومدريد يحفظونها ويتلوونها
كما كان الناس في العصور الوسطى يرددون أغاني منشديهم المفضلين .
وقد ألف لوركا أيضاً بعض المسرحيات التي تعكس ما يتميز به
الإسبان من شجاعة واحتقار للمادة وتمجيد للشرف . ومع أن كتاباته
لم تتناول إلا الأندلس بريفه ومدنه (وكانت غرناطة وقرطبة وأشبيلية
هي مدنه المفضلة) إلا أنها تبدو رغم ذلك ممثلة لكل ما هو إسباني .
لقى لوركا حتفه في غرناطة في أوائل الحرب الأهلية . وقد اتهم
الوطنيون في بادئ الأمر بقتله . ولكن المعتقد الآن أن جريمة قتله
لم تكن سياسية ، وإنما ارتكبها شخص بينه وبين لوركا ضغينة

شخصية . ويحتل شعر لوركا ومسرحياته مكاناً رفيعاً في الأدب الحديث ، وقد ترجمت أعمال كثيرة له إلى اللغة الإنجليزية ؛
وهناك بعض نماذج مما كتب :

الجيتار

يبدأ النحيب

عندما يعزف الجيتار

وليس من الممكن ، بل لا جدوى

من محاولة وقفه ؛

إنه يبكي بنغم مطرد

مثل المطر . : يسقط قطرة قطرة

أو مثل الريح عندما تبكي

فوق قمة الجبل المغطاة بالثلوج ؛

إنه من المستحيل

أن توقف الجيتار

إنه حزين لأشياء

بعيدة جداً عن الأنظار

مثل رمال الجنوب الساخنة ؛

ومن أجل أزهار الكاميليا البيضاء

وفي إحدى مسرحياته الدرامية يقدم لوركا هذا الوصف لمصارعة
الثيران :

في أعظم مصارعة للثيران حتى الآن
في سيرك روندا القديم
خمسة ثيران فاحمة السواد
تحمل شارات من الورد الأسود والأخضر
وتظهر الفتيات وتدوى أصواتهن الحادة
في عربات زاهية الألوان
يستعرضن مراوحهن المستديرة المطرزة
بالتتر الذي يتلأل كالنجوم
أما فتیان روندا فقد جاءوا راكبين
أفراساً متشاحنة ذات حركات متأنقة .
تعلو حواجبهم قبعات رمادية عريضة
وقد شدت إلى أحد الجوانب لتكسيهم مظهراً أنيقاً .
وفي المدرجات التي كانت كلها قبعات وامشقة عالية ،
وحيث بدأ الناس يحتشدون حول الحلبة
مثل منطقة البروج التي تدور حولها الأفلاك
كان الضحك يملأ جنبات المدرجات .
وعندما ظهر كايديافو الجبار
وسار فوق الرمال الصفراء
مرتدياً حلته التي تشبه لون التفاح

والمطرزة بشرائط من الحرير والفضة ،
 ووسط جميع المصارعين في الحلبة
 برز كاييتيانو وحده في شجاعة
 أمام الثيران العظيمة الفاحمة السواد ،
 والتي ربّتها إسبانيا على أرضها
 وتلونّت فترة العصر بلون الفجر
 لكى تحاكي لونه البرونزى
 ولو أنك رأيت الرشاقة
 التى يحرك بها ساقيه وكأنه يسبح
 ولو أنك شاهدت اتزانه
 وهو يلوح بالقماش فى مهارة وروعة ،
 لا عرفت بأن ما قام به روميرو من حرق النجوم
 فى السماء لا يمكن أن يعادله ؟
 تلى ذلك فقرة يصف فيها الشاعر كيف قتل كاييتيانو الثيران .
 الخمسة .

لقد اهتز السيرك واهتز معه الزمن
 وسط هتافات الجماهير التى تموج حول الحلبة
 وكانت تتخلل رائحة الدماء
 روائح قادمة من قمم الجبال .

الفصل الرابع عشر في الشمال

عندما نتكلم عن قشتالة لا يتجه تفكيرنا إلى مدينة مدريد فقط ؛ لأن هناك غيرها من المدن التي تطفو فوراً إلى ذاكرتنا مثل طليطلة وشقوبية . كما أن حديثنا عن الأندلس لا يشير إلى المدينة أشبيلية وحدها . على العكس من ذلك ، نجد أن مقاطعة قطالونية ومدينة برشلونة تكاد تذكر الواحدة منهما بدلا من الأخرى ؛ لأن المدينة العظيمة تكاد تتحدث باسم المقاطعة وتمثلها تمثيلا كاملا . فلا توجد مدن أخرى هامة داخل حدود قطالونية . ومع ذلك فقد كانت « طرقونة » — التي لا تبعد كثيراً عن برشلونة — أعظم حاضرة في إسبانيا أيام الرومان ، أما اليوم فإن طرقونة في سبات عميق .

وتعد برشلونة أهم المدن التجارية الإسبانية وأغناها . ومع ذلك فهي أقل المدن تمثيلا للشخصية الإسبانية ، لأن طابعها هو الطابع القطلوني . ويختلف القطلونيون عن الإسبان في نواح كثيرة ؛ إذ أنهم يفتقدون وقار أهل قشتالة وسحر الأندلس ذا المسحة الشرقية ، فبدت مدينتهم على شاكلة سكانها . ففي وسط ضجيج برشلونة وتحت ظل رخائها يثقل كاهل المرء بشعور العظمة المتداعية الذي ينتابه وهو في قشتالة كما أنه ينفض عن نفسه ذلك الحمول الحالم الذي يميز الأندلسيين ،

ويشعر أنه يعيش بكل جوارحه في الحاضر بين هؤلاء القطالونيين النشطاء الأثرياء الذين تفيض قلوبهم بالموودة والمحبة .

وبالرغم من مظاهر المعيشة الحديثة التي تبدو على برشلونة فإن لها ماضياً تفخر به يرجع إلى أيام الفينيقيين والقرطاجيين . فقد أسسها « أميلكار باركا » (Hamilcar Barca) القائد القرطاجي في القرن الثالث قبل الميلاد على موقع مدينة فينيقية قديمة ، وأطلق عليها « باركينا » لتقيم فيها أسرته . وقد ظلت مدينة عظيمة حتى بعد هزيمة قرطاجة على يد الرومان — وإن لم تكن في أهمية مدينة طرقونة القريبة منها . ولم يتغير الحى القوطى فى المدينة إلا قليلاً منذ القرن الخامس عشر ، ويمكنك أن تشاهد فى متحف برشلونة الآثار الرومانية والقوطية التى استخرجت من حفائر فى المدينة ذاتها وفى المناطق المحيطة بها . وتقع كاتدرائية برشلونة فى الحى القوطى فى مكان كانت تشغله كنيسة بناها القوط الغربيون ، ثم حل محلها مسجد شيده المسلمون . ومع أن الكاتدرائية تحتوى على زجاج ملون جميل وغير ذلك من النماذج إلا أنها أكثر إعتماداً من معظم الكنائس الإسبانية المظلمة الأخرى . وقد يفضل الزائر — بسبب هذا الظلام — أن يقضى وقتاً أطول خارج المبنى تحت أشجار البرتقال والمانوليا التى تنمو حول أروقتها . وتحيط بالكاتدرائية مبان أخرى عليها سماء الوقار ، فى حين تمر شوارع الحى الضيقة الملتوية بجوانيت أنيقة لافتة للأنظار ، وتتسع هذه الشوارع من مكان لآخر فتخرج بك إلى ميادين قديمة جذابة .

وفي برشلونة عدد من المباني التي تبدو خيالية كما لو كانت مأخوذة عن أحد أفلام « والت ديزني » ، وهي تختلف اختلافاً بيناً عن وقار المنازل القديمة . ومن أشهر تلك المباني الشاذة في تصميمها مبنى كنيسة الأسرة المقدسة الذي توقف العمل فيه نحو عشرين سنة بعد الحرب الأهلية . وإن الإنسان ليشك في أن يقوم مهندس معماري في وقتنا هذا بإتمام الكنيسة وفقاً لتصميم مهندسها الأصلي « أنطونيو جاودي » (Antonio Gaudi) ؛ إذ يحتوى المبنى على خليط مذهل من الأعلام وفروع الأشجار الرفيعة والأشجار والأزهار وغيرها من الأشياء التي تداخل بعضها في بعض كما لو كانت قد شكلت من إسفنج طرى لا من صخر .

ولم يكن « جاودي » سوى واحد من الكثيرين من فناني قطالونية في القرن العشرين الذين خرجوا على الأنماط المألوفة والتقليدية في الفن ليعبروا عن أنفسهم بطرق ثورية جديدة . وقد اشترك كثيرون غيره في هذه الثورة ، منهم ثلاثة ذاعت شهرتهم في أمريكا وهم : « بابلو بيكاسو » (Pablo Picasso) ، و « سلفادور دالي » (Salvador Dali) ، و « خوان ميرو » (Joan Miro) .

وإذا علمت أن « دالي » قطالوني النشأة (وعلى ذلك فهو ثائر) فإنك ستزداد فهماً لعلّة استخدامهم لبراعته في الأداء استخداماً جنونياً . ستجد في لوحاته أشكالاً غريبة ، وهياكل ، وأشجاراً ملتوية بطريقة غير طبيعية ، وساعات كأقراص العجين متناثرة هنا وهناك ، ستجد

كل ما قد يصوره لك حلم مزعج وقد رسمه « دالى » بنفس العناية والصقل التى يمكن أن يستخدمها أحد أساتذة المدرسة الهولندية فى رسم منظر واقعى . على أن بعض لوحات « دالى » أقل مدعاة للحيرة من غيرها ، ويمكن لمشاهدها أن يتقبلها بسهولة — كاللوحات الزاهية لمناظر تكاد تكون خالية على أحد الشواطئ بالقرب من برشلونة أو كالصورة المزدوجة الغريبة لزوجته . ومهما يكن من أمر ذلك فإنك إذا قدرت أعمال « دالى » فى جملة لحكت بأن الفنان قد حقق هدفه الذى جاهر به ، وهو أن يرسم كما يرسم المجانين .

ويجمع النقاد على اعتبار « بيكاسو » أحد فناني عصرنا المبرزين ، وهو فنان متعدد المواهب والأساليب ، مما يجعل التعرف عليه أكثر صعوبة من التعرف إلى دالى ؛ نشأ بيكاسو فى برشلونة ، وتأثر بالنهضة الفنية التى اكتسحت تلك المدينة فى العقد الأخير من القرن التاسع عشر احتجاجاً على ما كان يحكم الفن من تقاليد وقواعد جامدة . وأصبح بيكاسو فيما بعد أحد مؤسسى حركة الرسم التكعيبى التى عدت انقلاباً فى ذلك الوقت ولكنها ما لبثت أن أصبحت أسلوباً فنياً فى العقدين الثانى والثالث من هذا القرن .

أما فى لوحاته العادية التى لا يخرج بيكاسو فيها كثيراً عن المؤلف فإنه يميل إلى رسم الأشخاص رسماً كاريكاتورياً . فكثيراً ما يشوه جسم الإنسان إما بسحبه حتى يصبح طويلاً نحيفاً ، وإما بنفخه حتى يبدو كالبالون . ومن ذلك رسمه « للبهلوانات » ولاعبى السيرك على

هيئة أشكال مستطيلة زرقاء على أرضية غبشاء ذات لون رمادي أزرق . وتنتمي هذه اللوحات إلى ما يطلق عليه « عصر بيكاسو الأزرق » . ثم نجده في لوحات أخرى يستخدم ألواناً زاهية لكي يضفي حيوية وبهجة على مصارعى الثيران والراقصين والمهرجين والمضحكين .

أما الفنان القطالوني الثالث « خوان ميرو » فسواء اعترفنا به كفنان عظيم أم لم نعترف ، فإن في لوحاته تعبيراً عن الحرية والشباب والسعادة . فلوحته المسماة : « الطائر ذو النظرة الهادئة والأجنحة الملتهبة » لوحة ممتعة استخدم فيها اللون الأزرق الكهرلبي مع ألوان حمراء متألثة . أما رسمه لقريّة « مونترويج » (Montroig) - وهي مسقط رأسه - فيكاد يبدو كأحد الرسوم التي توضح مخطوطاً من مخطوطات العصور الوسطى بمنزله التي تزدحم على الأفق بألوان صفراء فاتحة وحقوله ذات الألوان الأرجوانية والوردية .

ويبغض القطالونيون التسلط المركزي في الحكم كما يبغضونه في الفن . وكثيراً ما قاموا بثورات ضد السلطات الحاكمة في القرون الماضية . وهم يحتقرون بوجه خاص ما يسمونه « بحكم قشتالة » . فيحدث إليك أهل قطالونية قائلين إنه ما دامت قشتالة تدعى أنها تمثل كل إسبانيا فإنهم قطالونيون وليسوا إسبانيين . وهم يتكلمون بلسان معظم سكان قطالونية الآخرين عندما يكررون التعبير عن رغبتهم في أن تصبح بلادهم دولة مستقلة ينتظمها نوع من أنواع

الاتحاد الفيدرالى الإسبانى . كما أنهم يؤكدون أن دولتهم كانت تضارع قشتالة فى حيويتها وأهميتها قبل أن تخضع لاستبدادها عقب زواج فيليب ملك أرغون من إيزابلا ، وكانت أكثر رخاء وأرفع ثقافة من قشتالة ، رغم أنها أصغر مساحة منها . ويشير القطالونيون إلى الفتوحات التى تمت على أيدي « كونتات » برشاونة (الذين كانوا ملوكاً لأرغون فى الوقت ذاته) — وهى تشمل جزر البليار وغيرها من جزر البحر المتوسط ، وفوق ذلك كانت لهم دوقية قطالونية فى أثينا ببلاد اليونان فى العصور الوسطى . ويشهد حنق القطالونيين عندما يتذكرون كيف منعهم إيزابلا وملوك الهابسبرج من الاشتراك فى كشف العالم الحديد فحرموهم بذلك من الأرباح التى عادت على غيرهم من الاستعمار والتجارة مع جزر الهند الغربية .

ومن الأدلة التى يسوقها القطالونيون ليبرهنوا على حقهم فى الانفصال عن قشتالة أن لهم لغة خاصة بهم ، فاللغة القطالونية ليست لهجة من الإسبانية ، بل هى لغة مشتقة من اللغة اللاتينية — لغة متكاملة كالإسبانية أو الفرنسية أو البرتغالية أو لغة البروفنسال — وهى اللغة القديمة لجنوب فرنسا — وهناك شبه كبير بينها وبين اللغة القطالونية وكان الأدب القطالونى فى العصور الوسطى يضارع آداب الدول الأوروبية الأخرى ، وكان يشمل روائع الشعر وقصص الفروسية والمؤلفات التاريخية الممتازة . ومن أشهر مؤرخى قطالونية « جيمس الفاتح » (James The Conqueror) الذى كان ملك أرغون . وكونت برشاونة . كان جيمس فارغ الطول ذكياً شجاعاً ، قام

بفتح جزر البليار ، كما ضم مقاطعة بلنسية إلى أملاكه . وإلى أوائل القرن الثامن عشر كان سكان الساحل الشرقي لإسبانيا وبعض جزر البحر المتوسط وأجزاء من جنوبي فرنسا يتكلمون اللغة القطلونية . ولكن قطلونيا أخطأت عندما أيدت الأرشدوق شارل في مطالبة بعرش إسبانيا ضد فيليب الخامس من أسرة البوربون . فما كان من فيليب بعد أن فاز بالتاج الإسباني إلا أن عاقب تلك المقاطعة الثائرة بمنع استخدام لغتها في المدارس والمحاكم أو أية مادة مطبوعة . وقد حاول القطلونيون الوطنيون أن يحيوا لغتهم في السنوات الأخيرة ولكنهم لم يصادفوا في ذلك نجاحاً كبيراً ، وخاصة أن حكومة فرانكو فرضت عليها بعض القيود من جديد .

ومن الطبيعي أن يوجه سكان برشلونة ما تفيض به مدينتهم من حياة وحماسة إلى إظهار شعورهم بالسخط والاستياء عندما يجدون أنفسهم أمام أوضاع لا يستسيغونها . وإذا تخلى المرح عن برشلونة وخيم الحزن والوجوم على القطلونيين فانهم يتجولون إلى أناس تغلى الكراهية في صدورهم وتدفعهم رغبة جامحة إلى التدمير . فلم يكد يخلو قرن من اضطرابات وثورات تعكر صفو هدوئه . وقد شهدت البلاد في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر إضرابات دامية صحبها نسف وقتل ، وتجددت اضطرابات مماثلة في السنوات الأولى من القرن العشرين . أما في الحرب الأهلية (١٩٣٦ - ١٩٣٩) فقد تحولت برشلونة إلى مركز من مراكز المقاومة العنيفة للجنرال فرانكو وقواته ، فتكرر ضرب المدينة بالقنابل ، وتحملت في نهاية

المعركة أربعة أيام من الهجوم الجوى المدمر الذى حول بعض أحيائها إلى خرائب . وقد حل الدمار بعدد كبير من قرى قATALونية الناصعة المجاورة لبرشلونة فى أثناء الحرب ، كما احترق عدد من الكنائس الجميلة إما بفعل الفوضويين وإما بقنابل الوطنيين . ومما يزيد مشكلة استقلال قATALونية تعقيداً انتشار الشيوعية فيها ، بحيث يصعب التكهن بما قد يحدث هناك مستقبلاً .

وفى إسبانيا مشكلات أخرى وليدة التدمير المحلى ؛ فهناك مثلاً مشكلة « الباسك » الذين يطالبون بالاستقلال ، وإن كانوا أقل إلحاحاً . فقد كان الباسك فى سالف الأيام يتمتعون بالإعفاء من ضرائب معينة ومن الخدمة العسكرية ، ولكنهم فقدوا هذه الامتيازات خلال القرن التاسع عشر . وللباسك أيضاً لغتهم الخاصة ، وهى من أغرب اللغات الأوروبية .

ولا يعلم أحد على وجه التحقيق إلى أى السلالات البشرية تنتمى جماعات الباسك ، أو من أى مصدر اشتقت لغتهم . فىرى بعض العلماء أن من المحتمل أنهم بقايا عنصر قديم أقام فى شبه الجزيرة فى زمن سابق حتى على قدوم الأيبيريين . أما بالنسبة إلى لغتهم فتذهب بعض النظريات إلى أنها التعبير الحى للغة الأيبيرية القديمة ؛ إذ يتفق معظم الثقاق على أنها تشبه ما هو معروف عن اللغة الأيبيرية بعض الشبه ، ولكنهم يؤكدون أن هناك استحالة فى إثبات هذه الصلة بين اللغتين لأن ما تبقى من السجلات المكتوبة باللغة الأيبيرية

قليل جداً لا يتعدى بضعة نقوش . وقد لاح ضوء في ظلمات هذا الماضي السحيق عندما استخرجت زهرية من حفائر بالقرب من بلنسية منذ سنوات قليلة ، وكان الأصيل « الزهرية » مزيناً برسم لمعركة بحرية كتبت في أسفله كلمتان أبييريتان . ولما استعين بلغة الباسك على تفسير هاتين الكلمتين قيل أنه يمكن ترجمتهما بـ « صيحة المعركة » . غير أن هذا كان مجرد شعاع في الظلام ما لبث أن خفت ضوءه . فمنذ ذلك الحين لم يسفر استخدام لغة الباسك لحل رموز تلك اللغة القديمة عن أى نجاح أكيد .

ويصرح الباسك بأن لغتهم من القدم بحيث كانت تستخدم في جنة عدن ، كما يروون أن الشيطان — عندما رغب في التحدث بلغتهم — أمضى سبع سنوات وهو يحاول أن يتعلمها ، ولكنه تخلى عن محاولته في النهاية عندما اكتشف أنه لم يتعلم سوى ثلاث كلمات فقط . ولعلك تشفق على الشيطان لما قام به من دراسة غير مثمرة إذا علمت أن هناك خمساً وعشرين لهجة للغة الباسك ، وأن قواعدها باللغة الصعوبة ، وأن هناك كلمات تبدو وكأن حروفها قد اختلط بعضها ببعض بطريقة عفوية — منها — على سبيل المثال — أسماء الأسر التالية :

« زومالكاريچوى » (Zumalcarregui) و « زوزاجويتيا » (Zuzagoitia) و « جويكوتشيا » (Goicoechea) و « أزيبالكوتا » (Azpilkoeta) .

ويتصف الباسك بالبساطة ، والقوة ، والجرأة . وقد احترفوا التهريب قروناً عدة ، فكانوا ينقلون البضائع الممنوعة عبر الجبال

التي تكون الحدود بين فرنسا وإسبانيا . وهم يتميزون أيضاً بالولاء الشديد للكنيسة الكاثوليكية في تعصب وصرامة ، كما أنهم غيورون جداً على استقلالهم . ففي الحرب الأهلية التي نشبت في القرن التاسع عشر حاربوا في صفوف « دون كارلوس » الضيق الأفق . أما في الحرب الأهلية الأخيرة فإنهم اتخذوا الجانب المعادي للكاثوليك رغم تعصبهم للكاثوليكية ، اعتقاداً منهم أن أملهم في الحصول على الحكم الذاتي من الأحرار أقوى من احتمال نياله فيما لو انتصر جانب الجنرال فرانكو من المحافظين . وفي عام ١٩٣٧ قام عدد من الطيارين الألمان الذين ادعوا أنهم يساعدون قوات الجنرال فرانكو بهجوم جوي مدمر على « جويرنيكا » (Guernica) وكادوا يمحونها من الوجود ، وهي تلك المدينة القديمة التي كان يجتمع فيها ممثلو الباسك في هيئة مجلس شوري تحت شجرة بلوط مقدسة طيلة عدة قرون . وكانت تلك الغارة الجوية في حينها عملاً وحشياً استنكره الرأي العام العالمي . أما اليوم فقد أعيد بناء « جويرنيكا » وأصبحت مدينة جذابة . ومع أن شجرة البلوط القديمة كانت قد حطمت حتى لم يبق سوى جزء من جذعها ، إلا أن شجرة أخرى — غرست من نحو مائة سنة — تظل مكان الاجتماع التقليدي في الوقت الحاضر .

وترمز الكنيسة الكاثوليكية ، وشجرة بلوط « جويرنيكا » ، والملاعب المسمى « فرونتون » (Fronton) إلى ثلاثة جوانب من حياة الباسك وهي تدينهم ، وحبهم للحرية ، وتعلقهم بلعبة البيلوتا . وتشبه البيلوتا التنس إلى حد ما وإن كانت أسرع منه . ويلعبها عادة أربعة

للاعبين : اثنان في كل جانب ، يثبت كل منهم في رسغه سلة طويلة مقوسة يلتقط بها الكرة ويقذفها في جوانب الفرونتون — وهو ملعب ذو أرضية من الأسمنت تحيط بثلاثة جوانب منه جدران مرتفعة من الأسمنت أيضاً . وإذا أنت شاهدت اللاعبين وهم ينحنون وينثنون ويلتوون ويندفعون عبر الملعب أو يقفزون إلى منتصف الحائط فسوف تصدق ما يقال من أن هذه اللعبة مرهقة إلى درجة أنه ينذر أن يعيش لاعبوها إلى سن متقدمة . ولكل قرية في إقليم الباسك ملعبها الخاص بها ، وكثيراً ما يكون مستنداً إلى حائط كنيسة . أما المدن فمن الطبيعي أن تشهد كثيراً من المباريات . والواقع أن لعبة البيلوتا قد أصبحت لعبة شعبية يمارسها المحترفون في جميع مدن إسبانيا الكبرى (وفي مدينة المكسيك وهافانا أيضاً) ، ويراهن الأهالي بتحمس على نتائج جميع المباريات .

وفي الشمال الغربي من شبه الجزيرة تقع مقاطعة « جليقية » (Galicia) التي تشبه مقاطعات الباسك وقطالونية في أن لها لغة محلية ، وإن كانت هذه اللغة مجرد لهجة من لهجات اللغة البرتغالية . وينحدر سكان « جليقية » انحذاراً مباشراً من السلتيين الذين وفدوا إلى إسبانيا منذ زمن بعيد . ويدل شكلهم على ذلك ، إذ يبدو كما لو كانوا اسكتلنديين أو أيرلنديين وهم يعزفون موسيقى القرب ويحملون عصياً ثقيلة تشبه الهراوات الأيرلندية ويدلفون في المطر والوحل في بلادهم المضيبة (الكثيرة الضباب) الرطبة منتعلين أحذية خشبية . ويعتقد أهالي جليقية في كثير من الخرافات ويروون كثيراً من الأساطير

الحميلة عن الجبال التي تكسوها الغابات ومساقط المياه وسفوح التلال المزروعة والأضربة المنتشرة على جوانب الطرق . فالخليقيون بطبيعتهم شعراء يسبحون في عالم الأحلام .

وكان مؤلفو المسرحيات الإسبانية فيما مضى يختارون شخصيات جليقية للأدوار الفكاهية التقليدية — كالخادم العنيد الجاهل الغبي — الماكر في الوقت ذاته . ولا تعطينا هذه الصورة الكاريكاتورية فكرة حتمية عن الجليقيين ، إذ بالرغم من أنهم يقبلون الأعمال الشاقة الوضيعة — كالحمالين في الموانئ ورجال الشرطة والحصادين في المزارع — فإنهم يتميزون بالخيال والذكاء والاجتهاد والمثابرة . وقد ارتفع شأن الكثيرين منهم في ميادين السياسة والأدب ومختلف المهن . وكثيراً ما يهاجر الجليقيون إلى أجزاء أخرى من أوروبا أو إلى أمريكا يحدوهم الأمل في تحقيق معيشة أكثر رخاء مما تدره عليهم مزارعهم الجبلية . ويمكنك أن تقدر العدد الكبير من الرجال الذين غادروا وطنهم عندما ترى أن عدد النساء اللاتي يعملن في الحقول يزيد على عدد الرجال ، أو عندما تلاحظ جو الكتابة الذي ينجم على النزهة المسائية في إحدى المدن الصغيرة ، حيث تشاهد جماعات عديدة من السيدات والبنات يسرن الهوينا حول الميدان ، ولا تقع عينك إلا على عدد قليل من الرجال والشبان .

الفصل الخامس عشر الإسباني القح

عرفنا مما تقدم أن كل إقليم في إسبانيا يختلف عن غيره من الأقاليم وأن لسكان كل إقليم منها مميزات الواضحة الخاصة بهم . وقد اتسمت كتابات أدباء إسبانيا في المائة السنة الأخيرة بهذا الطابع الفردي في مسرحياتهم وقصصهم ، وبخاصة في الأخيرة التي تثير الإعجاب بتصويرها للبيئات المحلية وما فيها من نماذج بشرية . وتكاد كل قصة إسبانية تصطبغ بصبغة إقليم معين بحيث لا يمكن أن تنسب إلى إقليم آخر . وعندما تقرأ هذه الأعمال الأدبية فإنك ستعيش في عالم ازدادت روعته لفرط واقعيته ، تشارك جماعة « الماراجاتوس » (Maragatos) حياتهم الموحشة . وهم قوم يشوبهم الغموض ، يعيشون في عزلة في شمال غرب إسبانيا ، ويظن أنهم من سلالة البربر الذين كانوا في صحبة طارق بن زياد . وستندمج بعواطفك في قصة غرام أندلسية حافلة بالخيالات والأوهام ، أو ربما يأخذك التحمس للمغامرات التي يقوم بها بحارة الباسك ، أو ترافق الصيادين إلى منازلهم العالية المتهدمة التي تتكدس حول ميناء «سانتندر» (Sanrander) أو تعتريك صدمة عندما يتكشف لك ما يعانيه سكان الشوارع الخلفية القذرة في مدريد من فقر وألم .

وقد ذاعت شهرة « فيسنته بلاسكو ايبانييز » (Vicente Blasco Ibanez) في الولايات المتحدة ، وهو من مؤلفي القصص الذين كتبوا فيما بين منتصف القرن التاسع عشر والحرب الأهلية الإسبانية . وترجع تلك الشهرة إلى ما ترجم من أعماله إلى اللغة الإنجليزية وبخاصة قصة « فرسان سفر الرؤيا الأربعة » (The Four Horsemen of the Apocalypse) وهي قصة مثيرة عن الحرب العالمية الأولى . ومع أن شهرة « بلاسكو ايبانييز » تعود إلى القصة ، إلا أنه كتب ما يفضلها كثيراً عن مقاطعة بلنسية التي نشأ فيها ، وصور بحرارة وتعاطف الرجال والنساء الذين يعملون في مزارع الفواكه والخضراوات التي تحيط بمدينة بلنسية وتعتمد في زراعتها على الري . وما زالت هذه القصص تحتفظ بسحرها المتجدد، في حين أن قصة الفرسان الأربعة تبدو الآن تاريخية فانت مناسبتها .

وفي نفس الفترة عرف الأمريكيون أيضاً اثنين من كتاب المسرحيات الإسبانين هما: «خاسنتو بينافنته» (Jacinto Benavente) و«جريجوريو مارتينيز سييرا» (Gregorio Martinez Sierra) ، وقد مثلت بعض مسرحيات « بينافنته » (بالنص الإنجليزي) في الولايات المتحدة ، وبخاصة بعد أن فاز بجائزة نوبل للأدب عام ١٩٢٢ . أما « مارتينيز سييرا » فهو جدير بما نال من شهرة عن مسرحيته « أنشودة المهد » (Cradle Song) ، وهي مسرحية رقيقة تروي قصة طفلة لقيطة تركها ذووها أمام باب أحد الأديرة ، فقامت الراهبات بتربيتها حتى كبرت الفتاة وبلغت سن الإحساس بالحب ،

وتزوجت بمن تحب وسط بكاء الراهبات وابتساماتهن المرتجفة .
وقد لاقت « أنشودة المهد » إقبالا كبيرا كقصة سينمائية أخرجت
في أمريكا، وما زال بعض فرق 'هواة' التمثيل يقومون بأدائها من آن لآخر.
ولا يسعنا أن نترك الكلام عن المسرح الإسباني دون ان نذكر
« أنطونيو جارسيا جوتييريز » (Antonio Garcia Gutierrez)
الذي عاش في القرن التاسع عشر قبل الذين أوردنا ذكرهم بزمان
قصير . وقد تأثر الموسيقار الإيطالي « فيردى » (Verdi) تأثرا كبيرا
بالمأساة التي كتبها « جارسيا جوتييريز » عام ١٨٥٣ بعنوان « التروفادور »
(El Trovador) فجعل « فيردى » من موضوعها أساسا لأوبرا
« التروفاتوري » (Il Trovatore) التي ألقت موسيقاها . كذلك
كتب « فيردى » أوبرا أخرى مقتبسة من مسرحية درامية لنفس
المؤلف اسمها « سيمون بوكانيجرو » (Simon Bocanegro) .

وبعد انتهاء الحرب الإسبانية الأمريكية التي نشبت في عام ١٨٩٨
قام نفر من المؤرخين والفلاسفة والصحفيين والنقاد الشبان وأطلقوا
على أنفسهم « جيل ١٨٩٨ » ، وأخذوا في تقصى أسباب هزيمة
إسبانيا وضعفها القومي . فتقدم كل منهم باقتراح ألوان من العلاج ،
وألّفوا في التاريخ والفلسفة ، وكتبوا مقالات متنوعة يعرضون فيها
نظرياتهم خلال السنوات التي تلت تكوين جماعتهم . ومما لاشك فيه
أن آراءهم مهدت لثورة ١٩٣١ ولقيام الجمهورية بطريقة سلمية
في نفس العام . كان هؤلاء المفكرون شديدي التحمس للجمهورية
الجديدة في بادئ الأمر . وشغلوا عدة مناصب حكومية ، ولكن

ما لبث كثيرون منهم أن أدركوا أنهم كانوا واهمين عندما اشتركت في الحكم عناصر طابعها العنف ، مما أفسد المثل الديموقراطية التي كافح من أجلها «جيل ١٨٩٨». فانسحب بعضهم من مناصبهم قبل اشتعال نار الحرب الأهلية أو في أثنائها، وقطعوا صلتهم نهائياً بالحكومة التي كانت قد تغيرت بطريقة تبعث على الأسف.

وعندما يتطرق تفكيرنا إلى الموسيقى الإسبانية فإن المقارنة بينها وبين روائع إسبانيا الزكية تفرض نفسها علينا . ويقول علماء النبات إنه من بين عشرة آلاف نوع من الأزهار التي تنمو في أوروبا تختص شبه الجزيرة وحدها بأكثر من النصف ، ولا يقتصر نموها على الحدائق التي تزخر بنباتاتها المدارية ، بل إن الأراضي الجرداء تحتوي على آلاف من النباتات الصغيرة ذات الأزهار التي تعطر الهواء بأريجها . ويقرر الملاحون أن عبير إسبانيا ينتشر إلى مسافات بعيدة في البحر حتى إنهم يشمون قبل أن يروا شواطئها — وهي رائحة لا يمكن وصفها أو نسيانها . وعندما يذهب بك التفكير إلى هذا الشذا الذي تتميز به إسبانيا فإنك ستذكر الأغاني الإسبانية والرقص الإسباني اللذين يشعان إحساساً بالاقتراب من إسبانيا يدور له الرأس كما لو كان عطراً ساطعاً .

ويكاد الإنسان يعجز عن التفرقة بين الموسيقى والرقص الإسباني لشدة تداخل أحدهما في الآخر . فمعظم الأغاني الشعبية الإسبانية ذات أنغام راقصة ، كما أن الراقصين غالباً ما يغنون وهم يرقصون . وتعتبر إسبانيا أغنى بلاد العالم بموسيقاها الشعبية . ويرجع هذا — إلى حد ما —

إلى تسجيل الإسبانيين للتقاليد مما جعلهم يعتزون بتلك الموسيقى ويحافظون عليها بحرص شديد . ففي احتفالات الإسبانيين وأعيادهم ما زلنا نرى الملابس المحلية الجميلة ونستمع إلى آلات موسيقية غريبة تصدر منها أصوات صفير أو رنين أو نواح ، تعبر عن الفرح ، أو الشعور بالوحدة . وكثيراً ما يرقص الأهالي رقصاتهم العنيفة المعبرة فتهتز لما حانة القرية التي امتلأت قاعاتها بالدخان ، أو تثير النشوة والحماسة في ميدان القرية ، أو في جانب من مرعى بالقرب من أحد جداول الماء . فيصل إلى شمعك صوت الجيتار والرق وموسيقى القرب والأوبوا والماندولين والصاجات ، بينما لا تسمع أحياناً سوى قرقة الأصابع أو التصفيق بالأيدي ، أو الدق بالأقدام في مصاحبة الرقصات الشعبية التقليدية الأصلية في إسبانيها . ومن الرقصات التي قد تسمعتها وتشاهدها : الخوتا ، والملاجونيا ، والباسو دو بل ، والفاندانجو ، والباراندا ، والرويدا ، والسفليانا ، والبيتينيرا ، والرودينيا ، والبوليريا ، والجرانادينا ، والبوليو ، والسيجويدىلا ، والتشارادا ، والحسيراردىلا ، والآريسكو ، والسورتسيكو ، والدانسابريما ، والمونيرا ، والفيروكا أو الاسباتا ، وذلك في الأندلس وأرغون ومقاطعات الباسك وغيرها من الأقاليم . وبعض هذه الرقصات بطيئة وعلى وتيرة واحدة ، وبعضها الآخر سريع قوى الإيقاع مليء بالمرح والعاطفة . وهناك رقصات أخرى عميقة في حزنها تكاد تصور لنا مأساة ، كما أن هناك رقصات تتعلق بالعبادة والغزل والفكاهة . ومن النادر أن يؤدي اللحن الواحد بنفس

الطريقة في المناطق المختلفة . فرقصة الخوتا في أرغون تختلف عن الخوتا كما يرقصها أهالي قشتالة أو مرسية ، كما أن الفاندانجو في الأندلس يختلف عنه في الجهات الأخرى .

وللمرء أن يتوقع أن يكون الأندلس متفوقاً على غيره من أنحاء إسبانيا في الموسيقى والرقص . ويرجع بعض الفضل في هذا التفوق إلى جماعات الغجر . فمع أنهم لم يبتكروا الكثير من الرقصات الأندلسية إلا أن توافقههم الرائع ، وحاستهم الإيقاعية ، ومشاعرهم الفياضة ، جعلت منهم راقصين لا يمكن محاراتهم . ويقترن اسم الغجر بصفة خاصة برقصة الفلامنجو وأغانيها . وكلمة « فلامنكو » تعنى في الأصل « فلمنكى » ، وقد جرى إطلاقها على كل ما هو مبتذل ومستهجن ، ثم امتد إطلاقها إلى جماعات الغجر الذين كانوا كثيراً ما ينفرون الإسبان منهم بسلوكهم . وتشبه ألحان الفلامنجو موسيقى الغجر المحجرين ؛ إذ تتابع فيها أنغام مرحة ومنتحبة وغامضة وغريبة ، كما أنها مليئة بالوقوفات الفجائية التي تشد الأعصاب شداً . ويؤدي راقصو الفلامنكو رقصتهم وسط دائرة من المتفرجين الذين يحافظون على الإيقاع بالتصفيق بأيديهم ، والدق بأقدامهم ، وبصيحات تشجيعية مثل : « أولى » — وهي اسم تعجب يدل على الاستحسان والرغبة في المزيد . وكثيراً ما يؤدي الرقص بمصاحبة هذه الأصوات فقط

بالإضافة إلى قرعة الراقصين لأصابعهم وهم يرقصون . وترتدى النساء مآزر « جونلات » متسعة ، أو ثياباً يتدلى منها عدد من الأشرطة القطنية الزاهية الألوان ، أو من نسيج أبيض مطرز ،

مع « كشكشة » في أعلى المنزر « الجونلة » وعند العنق والذراعين .
وتتدلى الأقراط الكبيرة من آذانهم وتوضع زهرة فوق إحدى
الأذنين . وتجيد نساء الأندلس الرقص ، حتى إذا كن بدينات أو تقدم
بهن العمر . وهن لا يرقصن بأقدامهن وسيقانهن فقط ، بل بكل
جزء من أجسامهن ، وبخاصة أيديهن وأذرعهن .

ويدعونا كاتب إنجليزى إلى حفل في أشيلية لنشاهد « باستورا
أمبيريو » (Pastora Imperio) راقصة الفلامنكو ، وهو يصف لنا
ما رآه عام ١٩٤٨ عندما كانت « باستورا » في الستين من عمرها :

« كانت باستورا تصفق إعجاباً بكل من قاموا بالغناء ، ولم تكشف
عن أية رغبة في الرقص في بادئ الأمر ، غير أنها في النهاية — ودون
أن يستحشها أحد — نهضت واقفة وتحدثت إلى عازف الجيتار وتلفتت
بشأها بطريقة لا تعوق حركة يديها وذراعيها . أخذ الجيتار في عزف
أولى أنغامه ، وبدأت باستورا مغمضة عينيها لحظة قصيرة كما لو كانت
تأمل . وتزيد سرعة الإيقاع ، فتفتح عينيها بما فيهما من نار خضراء
متوهجة ، وكانت قد أخذت تدق بقدميها ، فإذا الإيقاع — دقيقاً
خفياً حيناً ، أو رهيباً كهزيم الرعد — لا يصادفه الإنسان إلا إذا
استمع إلى الموسيقيين الهنود وهم يقرعون طبولهم أو يدقونها بأصابعهم
أوبأكفهم . وكان هذا أقوى دليل لمستى على الصلة بين الغجر والهنود .
ثم زحفت « باستورا » إلى الأمام كما تزحف الكوبرا على ذيلها وهي
رافعة رأسها ، في حركة يصحبها دق متواصل سريع بقدميها مع بقاء

جسمها جامداً ، وهى تصفق أو ترفرف بكلتا يديها ، وقد حنت رأسها كما لو كانت تستمع إلى رقية . وقد تكرر زحفها بهذه الطريقة أربع مرات إلى أركان المسرح الأربعة . ثم عادت بعد ذلك إلى وسط المسرح ودقت بقدميها إيقاعاً جديداً يختلف كل الاختلاف عن الإيقاع الأول ، يشبه قرع الطبله قرعاً سريعاً متتالياً ، ثم أطلقت صيحة الغناء الفجرية التى طال احتباسها . إن « باستورا امبيريو » هى أعظم مغنية سمعتها فى حياتى لما هذا التحكم فى أداء موسيقى الفلامنكو... » .

وإننا لمدينون لنفس الفنانة بمقطوعة الموسيقىار « مانويل دى فاييا » (Manuel De Falla) التى لاقت نجاحاً كبيراً ، وعنوانها « الحب الساحر » (El Amor Brujo) . فقد حملت « باستورا » الموسيقىار الإسبانى على تأليف مقطوعة « باليه » يمكنها أن تغنيها وترقص على ألحانها . وتصور الموسيقى قصة غجرية قديمة تدور حول فتاة لها عاشقان ، أحدهما شبح تحاول أن تطرده بالسحر . وقد أعاد « دى فاييا » فيما بعد كتابة موسيقى الباليه هذه إلى شكل متتابعة للأوركسترا ، وهى الصيغة التى غالباً ما نسمعها بها ، وبخاصة « رقصة النار » المثيرة .

وتحمل موسيقى « دى فاييا » الطابع الإشباني الذى لا يمكن للإنسان أن يخطئه . فقد ولد الفنان فى الأندلس ، وقضى معظم حياته بين ربوعه ، وتشبع بالألحان النابعة منه . ولم يقتبس « دى فاييا » ألحاناً شعبية إلا فيما ندر ، بل كان يؤلف أغانيه بنفسه ، غير أنها تحمل نفس الطابع الذى يميز الألحان الشعبية القديمة حتى تبدو كأنها

منها . وقد استخدم « دى فايا » بعض الألحان القديمة في الباليه الممتع الذى ألفه بعنوان « القبعة المثلثة » ، أخذ موضوعه عن قصة شائعة تحكى كيف استطاع بعض الفلاحين الأندلسيين أن يخاتلوا قاضى قرية كان قد تجاوز الحدود فى مغازلة الفتيات .

وهناك اثنان من الموسيقيين الحداثيين يعبران عن الروح الإسبانية تعبيراً ساحراً - وهما : « اسحق مانويل فرانسيسكو ألبينز » (Isaac Manuel Francisco Albeniz) و « انريكه جرانادوس » (Enrique Granados) . ومع أنهما قطالونيان إلا أن كثيراً مما ألفاه يوحى بأحاسيس أندلسية . وأحسن الأعمال التى تعرفها لـ « ألبينز » هى « ايبيريا » ، وهى مجموعة من اثنى عشر لحناً قصيدياً قصيراً تردد إيقاعات أندلسية . وأشهر مقطوعات هذه المجموعة هى « تريانا » (Triana) ذات الموسيقى المرحية التى تحتوى على رقصة « باسو دوبلى » (paso doble) - أى الخطوتين . أما أجمل المقطوعات الاثنتى عشرة فهى « البايثين » (Albaicin) التى اتخذت اسمها من حى الغجر فى غرناطة ، وتذكرنا ألحانها الحزينة بالموسيقى التى بعزفها الغجر فى ليالى الصيف .

أما « جرانادوس » فقد ألف بعض الرقصات التى استوحاها من الأندلس ، ولكنه لم يكن فى درجة اهتمام « ألبينز » و « دى فايا » بالموسيقى الشعبية . وتعتبر أوبرا « جويسكاس » (Goyescas) أهم أعماله التى أكسبته شهرة . وقد استمد موضوعها من بعض تصميمات الفنان « جويا » على الطنافس المطرزة . وعندما قدمت دار أوبرا متروبوليتان

« في نيويورك) العرض العالمى الأول لأوبرا « جويسكاس » تحدى مؤلفها أخطار البحر فى الحرب العالمية الأولى ليحضر حفلة الافتتاح . غير أن الباخرة التى استقلها فى طريق عودته إلى وطنه أصيبت بطوربيد ومات « جرانادوس » غريقاً . وقد دونت موسيقى « جويسكاس » كمتابعة للبيانو ، وهى غنية بصورها الصوتية الرائعة . ولا بد لأى باحث فى الفن الإسبانى أن يضمن بحثه مصارعة الثيران ، التى لا تعتبر رياضة فحسب ، بل هى فن تقليدى قديم يعكس ذوق الإسبان ومقدرتهم ، ويتطلب تحكماً عضلياً ومهارة فائقة . ويشبه مصارع الثيران الراقص فى كثير من أساليبه . فيجب أن يكون معصمه قوياً ومرناً ليضفى على حركاته البطيئة رشاقة وهو يلوح للثور بالراية (muleta) — وهى قطعة من الجوخ الأحمر ركبت فوق عصا . كما يجب أن يحرك قدميه بثقة وخفة ، وأن تعمل جميع أجزاء جسمه فى توافق تام ، لأن الجولة الأخيرة من المصارعة — التى يقف فيها الثور والمصارع وجهاً لوجه — إنما هى رقصة الموت . فالمصارع على حافة الهلاك فى كل ثانية تمر به وهو يواجه الثور . وكلما كان بارعاً زادت مجازفته وجرأته على السماح للثور بالاقتراب من جسمه إلى أقصى حد ممكن .

أما مصير الثور فهو معروف حتى قبل أن يندفع إلى حلبة المصارعة من البوابة التى يطلق عليها « باب الرعب » ؛ إذ فى حالة فشل المصارع فى الإجهاز عليه يعدم الثور فور انتهاء المصارعة . قد سن هذا القانون لحماية حياة الإنسان ؛ لأن الثور يتعلم فى

مصارعة واحدة ما فيه الكفاية لحماية نفسه ، فلا يمكن خداعه بعد ذلك ليهاجم الزاوية التي يلوح بها المصارع أمامه ، وبدلاً من أن يهجم على الوشاح الأصفر الوردى أو الراية الحمراء الزاهية فإنه يندفع نحو المصارع نفسه ويغرس قرونة الحادة القاتلة في حلقه الموشاة بالذهب والفضة .

وإذا كان لك أن تختار المكان الذي ستشهد فيه أول مصارعة للثيران في حياتك ، فليكن اختيارك لحلبة المصارعة في « روندا » التي يرجع إنشاؤها إلى أكثر من مائتي سنة مضت . وهي حلبة ذات مبنى رائع الجمال ، كما أن المجتمع المحلي في المدينة ينظر إلى مصارعة الثيران نظرة جدية . وكانت مدينة « روندا » مقراً لتدريب الرعيل الأول من كبار مصارعى الثيران المحترفين عندما تخلى الملوك والنبلاء عن هذه الرياضة — أو الفن — فاحترفها الغجر وغيرهم من فقراء القوم . وكان « بدرو روميرو » وهو من مواطني « روندا » من أعظم هؤلاء المحترفين الأوائل في القرن الثامن عشر . وما زالت أساليبه في المناورة بالراية وحركات قدميه تكون جزءاً من التدريب الفنى الذى يجب على المبتدئ أن يتقنه قبل أن يدخل حلبة المصارعة .

وأول مصارع ثيران ورد اسمه في المدونات الإسبانية هو « السيد » (Cid) ، بالرغم مما يقال من أن العرب هم الذين جلبوا هذه الرياضة معهم إلى إسبانيا في القرن الثامن الميلادى . وفى بعض لوحات « تاوروماكيا » (Tauromaquia) للفنان « جوييا » يظهر المصارعون في تلك الأزمنة القديمة ، إما على ظهور الحياض وإما مترجلين ،

وقد حولوا الميادين العامة إلى ساحات للمصارعة ، في كل ميدان منها مضماران (فتجرى مصارعتان في وقت واحد) أو في الحقول المكشوفة . وقد صور « جويا » جماعات من العرب وهم يلوحون بعباءاتهم العريضة أمام الثور بنفس الأسلوب الذي يستخدم به المصارع الحديث وشاحه . وكانت حفلات الزواج والميلاد الملكية ، وكذلك حفلات التتويج ، من المناسبات التي تقام فيها مصارعات كبرى للثيران . وقد قتل شارل الخامس ثوراً في حلبة « بلد الوليد » احتفالاً بميلاد ابنه فيليب الثاني . وكان المصارع من هؤلاء النبلاء يسمى « توريادور » (toreadore) ، في حين يطلق على المصارع المحترف اليوم « توريرو » (torero) ، وهذه تسمية عامة لا تقتصر على الـ « ماتادور » (matador) — وهو الذي يقتل الثور — بل تشمل مساعديه أيضاً وهم الـ « بيكادور » (picadore) الذين يركبون الجياد ويحملون رماحاً ينخسون بها الثور لتهيجه ، و « البانديرليرو » (banderillero) وهم الذين يرشقون رقبة الثور بسهام صغيرة .

ويبدأ موسم المصارعة الكبير بعد ظهر يوم عيد الفصح . وتسبق ذلك مصارعات يشترك فيها المبتدئون تستغرق بضعة أسابيع . وتستطيع من عيد الفصح حتى شهر نوفمبر أن تشاهد مصارعة كل يوم أحد في المدن الكبرى مثل مدريد وبرشلونة وبلنسية وأشبيلية ، كما أن هناك مصارعات في مناسبات خاصة ، كذلك التي تقام في أشبيلية بعد ظهر كل يوم في فترة احتفالاتها . أما المدن الصغيرة فتقام بها حفلات المصارعة في أيام أعيادها الدينية أو غيرها من أيام العطلات

الرسمية . وإذا كانت المدينة من الصغر بحيث لا توجد بها ساحات مخصصة لمصارعة الثيران فإن الأهالي يقيمونها في الميدان الرئيسي بعد إحاطته من جميع جوانبه بالعربات الثقيلة .

وتبدأ حفلات المصارعة عادة في الساعة الخامسة أو الخامسة والنصف بعد الظهر — وهي الشيء الوحيد الذي يبدأ في موعده في إسبانيا . فلا تدع بدء الحفل يفتك ، لأنه مشهد رائع يبهجته وحيويته . فعندما يدخل الموظف الرسمي (الذي يسمى رئيس الحفل) مقصورته يسمع صوت نفيير ويتقدم موظفان آخران عبر الحلبة على ظهور جيادهم لتحيته ، وهم يلبسون عباءاتهم وقبعاتهم المزدانة بالريش كما كان الزى في القرن السادس عشر . ثم يظهر بعد ذلك المصارعون الثلاثة الذين سيقدمون العرض الدرامي الرئيسي لذلك اليوم ، وهم يلبسون حلالا مذهلة في منظرها : سراويل ضيقة محلاة بالخرمات عند الركبة ، وسترات ضيقة ذات رمانات بالغة العرض فوق الكتف . والحلة التي يرتدونها ذات لون أبيض أو أسود أو أصفر أو أرجواني أو أحمر ، وهي موشاة بالذهب والفضة ومزدانة بعدد كبير من الترت . ويحمل كل مصارع عباءته (التي لن يستعملها في المصارعة) مطوية تحت ذراعه اليسرى في أثناء استعراض الافتتاح . وهذه العباءات رائعة في تطريزها ، وقد حيكت قطعة من عباءة « جوسيليتو » الحميلة في غطاء القطيفة الأحمر الذي كسيت به منصة قديسته المفضلة وهي « عذراء ما كارينا » في أشبيلية . وعندما يتقدم المصارعون الثلاثة جنباً لجنب نحو مقصورة الرئيس يسير خلف كل منهم فريق

مساعدية . ويتكون كل فريق من اثنين من الفرسان واثنين من حملة السهام . وينحى الجميع للرئيس الذى يلقى إليهم بمفتاح حظيرة الثيران . فيعودون أدراجهم إلى جوانب الحلبة وفقاً للأماكن المخصصة لكل منهم ، وتفتح الحظيرة ويخرج منها الثور الأول .

وقد شُبهت مصارعة الثيران بدراما من ثلاثة فصول ؛ يؤدي الفصل الأول منها « البيكادور » على خيولهم الهزيلة المسنة . فعندما ينسحب باقى المصارعين يأخذ « البيكادور » فى نخس الثور بحراهم الطويلة ويستفزونهم لمهاجمتهم المرة بعد المرة . وبعد أن يمزق الثور أحشاء عدد من الخيل ويكاد يصيب أحد الفرسان يعطى رئيس الحفل إشارة لإنهاء هذا الفصل . وعندئذ يأتى دور « البانديرليرو » الذين يأخذون فى مضايقة الحيوان الثائر برشق رقبتة « بالبانديرلا » — وهى عصى طولها نحو ثلاث أقدام تحمل رؤوساً من الصلب الحاد . ومن المفروض أن يرشق « البانديرليرو » رقبة الثور بأربعة أزواج من السهام ليثيروا غضبه ويخفضوا عضلات رقبتة . ويستمر هذا الفصل نحو خمس دقائق .

ثم يأتى الماتادور أو القاتل ، وأمامه خمس عشرة دقيقة ليجهز على خصمه . فإذا كان فناناً فإنه يؤدي بوشاحه حركات جميلة بارعة يداعب الموت فى أثنائها وهو يدعو الثور لمهاجمته من هذا الاتجاه أو ذاك . ويشدد تحمس الجمهور إذا احتك الثور بالرجل فيمزق سترته أو سرواله ذا الألوان الزاهية ، وعندما يتناول الماتادور سيفه ورايته الحمراء استعداداً للحظة الحاسمة القاتلة فى هذا الفصل

فعليه أن يتحرك بدقة بالغتة . فإذا هجم الثور على الراية الحمراء وهرأ أمامه عن قرب وهو منخفض الرأس فعليه أن يغمد السيف فى رقبة الحيوان فى موضع مرتفع بين كتفيه ، كما يجب أن تكون الطعنة الأولى قاتلة . ويطلق المتفرجون على عملية القتل هذه « لحظة الحق » . ويتوق معظم الصبية فى إسبانيا لأن يصبحوا مصارعى ثيران . فتراهم يتدربون على حركات الوشاح فى كل مكان - بعضهم على بعض ، أو على بعض الأبقار الوديدة فى الحقول . ويروى الأهالى كيف كان « خوان بلمونته » (Juan Belmonte) عندما كان صبياً يعيش فى ضاحية « تريانا » العجرية - يعبر نهر الوادى الكبير ليلا مع اثنين من رفاقه وهم يدفعون أمامهم عائمة خشبية وضعوا فوقها وشاحاً وسيفاً ومصباحاً لكيلا تبتل بالماء . وعند وصولهم إلى الشاطئ الآخر المقابل لأشبيلية كانوا يتسللون إلى حظيرة للثيران فيوقظون من بينها ثوراً شرساً ، ويأخذ « بلمونته » فى التلويح للثور بالوشاح بينما يقف صديقه حاملين المصباح المضى . ويحدث أحياناً أن يقبل بعض الصبية فى الثانية عشرة من عمرهم كمصارعين محترفين ، بالرغم من أن المبتدئ يقضى عادة ما بين ست وسبع سنوات فى التدريب وتكون سنه أكبر من ذلك كثيراً قبل أن يعترف به كفنان مصقول . إن هؤلاء المبتدئين يعدون أنفسهم لأشق أنواع الحياة ، وهى حياة صعبة حتى بغض النظر عن الأخطار الحقيقية التى يواجهونها . حلبة المصارعة . وفى موسم هذه الرياضة يكون المصارع دائماً التنقل بين مدن إسبانيا المختلفة ، وعادة ما يصل إلى المكان الذى

يقصده قبل الاشتراك في المعركة بوقت قصير . فإذا انتهى من القضاء على الثور الأول والشمس ساطعة فإنه يكون مبتلا بعرقه ، ولا يلبث أن يشعر بقشعريرة عندما تهب عليه الرياح القوية وهو ينظر في الظل حتى يجيء دوره لقتل ثاني ثور له في نفس الحفلة ، أو عندما تدعو الضرورة إلى تدخله ليجهز على حيوان يهدد أحد زملائه أو أصابه فعلا . وعادة ما يشترك في كل حفلة ثلاثة من المصارعين يقتلون ستة من الثيران . فإذا كان أحد المصارعين قليل الخبرة أو مجهداً أو عصبياً أو مريضاً مما يجعله يرتجف في حركاته أو يخطئ في تصويب سيفه ، فإن المتفرجين يقابلونه بصفير السخرية ويقذفون بالزجاجات الفارغة ووسائد القش التي يجلسون عليها وبكل شيء تصل إليه أيديهم . أما إذا كان المصارع فناناً وقدم عرضاً ممتعاً وأشبع المتفرجين إثارة قبل أن يصوب سيفه برشاقة ودقة إلى المكان الذي يجب أن يغرس فيه في عنق الثور ، فإنه عندئذ يصبح معبود الجماهير ، كما تصبح المباراة العظيمة التي أداها موضوع حديث الناس في المقاهي لعدة سنوات ويضحى صاحبها جزءاً من الأساطير الإسبانية .

الفصل السادس عشر

الإسبانيون

كثيراً ما نسمع ونقرأ عن مدى اختلاف الإسبانيين من مكان إلى آخر في بلادهم من حيث مميزاتهم وعاداتهم ، لأن الملاحظين عادة ما يميلون إلى استكشاف المميزات البهجة أو الطريفة والتحدث عنها . فالإسبانيون يختلفون بعضهم عن بعض فعلاً ، ولكنهم في الوقت ذاته يشتركون في كثير من الصفات القومية . وسيدرك كل من يتجول في أنحاء إسبانيا أن الإسبانيين متشابهون أساساً بالرغم من وجود فروق محلية .

ومن المحتمل أن يكون رأيك بالنسبة إلى معظم الإسبانيين أنهم حسان الوجوه ؛ إذ يعتبرهم بعض النقاد أجمل شعوب أوروبا . ومما لاشك فيه أنهم أحسن تلك الشعوب هنداماً ، فهم شديدو العناية بمظهرهم ، يضحون بالكثير في سبيل اقتناء الملابس الجيدة والظهور بمظهر أنيق جذاب . والإسبانيون متوسطو الطول عادة ، ملامحهم واضحة وبشرتهم رائقة زهراء اللون لا سمراء ، يندر أن يصيبها الفمش أو الحروق في شمس بلادهم المحرقة أو رياحها القارسة . أما عيونهم فجميلة معبرة ، عسلية اللون عادة ، وإن كانت أحياناً رمادية أو خضراء ، ويعتبر اللون الأخير من سمات الجمال . وكلما

زاد بريق العيون كان هذا دليلاً أكيداً على أثر الامتزاج بدماء عربية .
ولون شعرهم الغالب هو الأسود ، وإن كنت ترى بينهم أحياناً ذوى
الشعور الكستائية أو الذهبية أو الحمراء . والنساء أجمل من الرجال ،
وربما كان مرجع ذلك أن الحرب قد قضت على عدد كبير من أحسن
الرجال بنية . وتكاد كل فتاة إسبانية تستحوذ عليك بسحرها وجاذبيتها
إذا شاهدت عينيها الحميتين ، وبشرتها الخلابة ، وحيويتها ، واعتدال
قوامها ، ورشاقة حركاتها . ومن الطبيعى أن يختلف الإسبانيون
بعضهم عن بعض فى ملامحهم وبنية أجسامهم من إقليم إلى آخر :
ولعلك تذكر « الباسك » ذوى الأنوف الكبيرة ، والجليقيين الذين
شبهون الأيرلنديين . أما القشتاليون فتميل أجسامهم إلى النحافة ،
فى حين نلاحظ أن أهالى قطالونية وبلنسية أطول قامة وأقوى عظاماً
وأثقل وزناً ، وربما كان السبب فى ذلك أن غذاءهم أوفر من غذاء
مساكن الهضبة الوسطى فى قشتالة حيث الأرض فقيرة قليلة الإنتاج .
وللطعام فى إسبانيا طابع قومى لا ينسى . فبالرغم من وفرة
المأكولات وتعدد ألوان الطعام الخاصة التى تشتهر بها الأقاليم المختلفة ،
فإن طريقة طهوها تكاد تكون واحدة ، وهى أن يغمر الطعام بزيت
الزيتون . وفى أثناء النهار تفوح رائحة الزيت المغلى الذى يعد به طعام
اليوم ، أو رائحته الزنخة من بقايا وجبة الأمس ، حتى إنه يصعب
على المرء أحياناً أن يفرق بين هذه الروائح الكريهة وبين منظر بساتين
الزيتون الحميلة التى تلون صفحة الطبيعة بألوانها الرمادية الخضراء .
ويقدم فلاحو الأندلس طبق « الجاسباتشو » (gaspacho) الذى أصبح

من الأطباق المستحبة في جميع أنحاء البلاد ، وهو عبارة عن سلطة يدخل فيها الطماطم والفلفل والخيار والحل ، وبالطبع زيت الزيتون ، وطبق « الباييلا » (paella) الذي تتخصص فيه مقاطعة بلنسية هو الرز مطهواً بزيت الزيتون ، يضاف إليه الزعفران ليكسبه اللون الأصفر ، ويحتوى على ثوم وفلفل ولحم خنزير مملح ليعطيه نكهته الخاصة ، ويملاً بقطع من الدجاج والمحار والسجق والبسلة الخضراء . ويقدم الحليقيون الذين اشتهروا بأنهم طهاة ممتازون طبق الكرشة الذي أعد بزيت الزيتون والطماطم والثوم والفلفل الحلو . أما الباسك فيجهزون القواقع بنفس الطريقة تقريباً . ومن الأطباق الشهية التي يقابلها الإنسان على طول الساحل الشمالى ثعابين السمك الصغيرة التي سويت لفن بزيت الزيتون أيضاً :

وحتى « التشورو » (churro) - وهو نوع من « لقمة القاضي » يقبل عليه جميع الإسبانيين - يقلى في زيت الزيتون . وإذا أردت أن تجرب « التشورو » فاطلب معه فنجاناً من الكاكاو ، لأن طريقة أكل الأهالى له هى أن يغمسوه في الكاكاو . ويروى عن الملك ألفونسو الثالث عشر أنه كان يتبع هذه الطريقة الإسبانية القديمة في تناوله « للتشورو » مما أثار استمزاز الملكة الإنجليزية الأصل التي انفجرت فيه يوماً قائلة : « إن العامل اليومى الأجير في إنجلترا لا يمكن أن يشاهد وهو يغمس خبزه في فنجان من الكاكاو ! » فجاء رد الملك : « تصورى أن هذا يحدث في إنجلترا بينما هنا في إسبانيا يسلك الملك هذا المسلك ؟ »

فإذا كنت ترغب في أن تأكل وجبة إسبانية حقيقية فلا بد أن تكون على استعداد لتناولها بزيت الزيتون . ومع ذلك فإذا فضلت الاقتصاد على تناول ثمار الزيتون الصغيرة الشهية الناضجة التي تباع في كل مكان — دون زيتها — فعليك بارتداد الفنادق والمطاعم السياحية التي لا تستخدم طرق الطهو القومية إلا في نطاق محدود جداً .

وهناك ثلاث كلمات أساسية في وصف الحياة اليومية في إسبانيا ، وهي الـ « سيستا » (siesta) ، والـ « ترتوليا » (tertulia) والـ « باسيو » (paseo) : أما السيستا فهي ذلك السكون الشامل الذي ينجم على أكثر المدن الإسبانية نشاطاً لمدة ثلاث ساعات أو أكثر بعد وجبة الغداء ، فتبدو المدينة مهجورة كأصغر قرية نائية . فالنحاس يلحق بالمدينة والقرية على السواء عندما يذهب سكانها إلى منازلهم لإغفاءة بعد الظهر ، فقد يقع نظرك على فلاح أو عابر سبيل وقد أغنى تحت ظل شجرة أو شجيرة أو في ظل صخرة أو حائط ، أو في أي مأوى يجد فيه حماية من أشعة الشمس القاسية .

وأما « الترتوليا » فتطلق على اجتماع الأصدقاء في المساء ، وعادة ما يكون ذلك في مقهى لأن الإسبانين لا يميلون إلى استقبال أحد في منازلهم . « والترتوليا » بالنسبة إلى الإسباني فرصة يمارس فيها ملكته في التحدث ، فيتبادل هو ورفاقه الآراء في جميع الموضوعات من مصارعة الثيران إلى الشعر إلى السياسة . أما الأغنياء والوجهاء فهم وحدهم الذين يفتحون قصورهم لاستقبال ضيوفهم و يقيمون بها الحفلات . ويكرم الإسباني ضيفه الأجنبي عادة في فندق أو مطعم

أو مقهى ، ما لم تكن بينهما روابط عائلية أو أواصر شخصية وثيقة ،
ففي هذه الحالة يفتح للضيف أبواب منزله .

وأما « الباسيو » فهي الزهرة المسائية في المدن الصغيرة ،
فعندما تخرج السيدات والفتيات « للتمشية » في جماعات من اثنتين
أو ثلاث حول الميدان الرئيسي في اتجاه معين ، في حين يسير الرجال
والشبان في جماعات مماثلة في الاتجاه المضاد . وحين يلتقى الشبان
والفتيات المرة بعد الأخرى فإنهم يتبادلون النظرات أو الابتسامات
الخفيفة التي تحمل معانى الإعجاب والتودد دون حاجة إلى تبادل
كلمة واحدة . وبعد انتهاء فترة « الباسيو » المسائية تستمر الأضواء
والحياة الليلية المرحية في بعض شوارع المدينة حيث المقاهى والمحلات
التجارية . أما المدن الصغيرة فيطبق عليها السكون والظلام بسرعة
بعد انتهاء « الباسيو » .

وتلقى إشارات الغزل الخفية التي يتبادلها الشبان والفتيات في
« الباسيو » ضوءاً على وضع الفتاة في المجتمع الإسباني . ففي جميع
أنحاء إسبانيا تقريباً تفرض حراسة على الفتيات ولا يسمح لهن بشيء
من الحرية التي تتمتع بها البنات في أمريكا . وقد حدث أخيراً أن
رست سفينة تدريب أمريكية تابعة لإحدى المدارس الحكومية في ميناء
« سانتاندر » على الساحل الشمالى لإسبانيا . فنظم الطلاب الضباط حفلة
راقصة دعوا إليها عدداً من بنات الأسر المحلية وأخذوا في اعتبارهم
من سيصبحون من مرافقات . فوصل الضيوف عند منتصف الليل .

— بعد الميعاد المحدد بساعتين ونصف ساعة فقط — وكانت الفتيات مصحوبات بآبائهن أو إخوتهن الذين لم توجه إليهم دعوة . ولكن بالرغم من زيادة عدد الرجال وتأخر الوقت فقد نجح الحفل نجاحاً كبيراً .

أما إذا كانت السفينة قد رست في أحد الموانئ الجنوبية في إسبانيا ، فمن المحتمل أن هذا الحفل الراقص لم يكن ل يتم على الإطلاق ، لأن الآباء لا يسمحون لبناتهم — مهما كن في حراسة مرافقات — بحضور حفل يدعو إليه شبان لا يعرفهم الآباء معرفة وثيقة . وما زالت الفتيات في أشبيلية وغيرها من مدن الجنوب يعشن في ظل حراسة شديدة ولا يخرجن في الشوارع إلا في صحبة شخص يكبرهن سناً . أما في المدن الكبرى مثل مدريد وبرشلونة فإن هذه التقاليد الصارمة القديمة في طريقها إلى الزوال في محيط النساء العاملات أو طالبات الجامعات ، حيث نشاهد أن الكلفة قد قلت ، وأن الصداقة والزمالة أكثر وضوحاً بين الشبان والفتيات . ومع ذلك فإن الفتاة الإسبانية بوجه عام لا يمكنها أن تضرب موعداً لشاب ، أو أن تصحبه بمفردها إلى مطعم أو إلى دار للسينما . أما إذا كانت مصحوبة بأحد أفراد أسرتها فإنها تستطيع أن تقابل الشبان في حفلات الشاي أو الرقص أو غيرها من المناسبات ، أو أن تذهب إلى مسرح أو سينما بدعوة من أحد الرجال .

على أن هناك من الدلائل ما يشير إلى أن هذه العادات الإسبانية القديمة آخذة في التغير ، وأن التشدد والتكلف يذوبان ببطء من الحياة

العائلية . ومن أمثلة ذلك أنه من جيل مضى كان الآباء الإسبانيون يستعملون ضمير المفرد « أنت » (tu) عند مخاطبتهم لأولادهم ، في حين كان هؤلاء يشبون على استعمال كلمة « أوستد » (usted) التي تحمل معنى التبجيل والاحترام وتعادل كلمة « حصرتك » بالعربية . أما اليوم — وفي نفس تلك الأسر — فإن الأحفاد يستعملون ضمير المفرد ، لا في مخاطبة آبائهم وأمهاتهم فحسب ، بل مع أجدادهم الذين ما زالوا ينتظرون من أبنائهم الكبار أن يخاطبوهم بكلمة « أوستد » .

لقد تعرضت العادات والتقاليد الإسبانية إلى عدد كبير من المؤثرات الخارجية لم يكن لها به عهد من قبل ؛ إذ لم تشهد البلاد مثلما تشهده الآن من أفواج السائحين الأمريكيين والأوروبيين الذين تزدحم بهم فنادق إسبانيا الجميلة واستراحاتها الحكومية . ويستخدم هؤلاء السياح الطرق الرئيسية الجيدة — بل وبعض الطرق الفرعية الشنيعة — للتوغل في البلاد والوصول إلى الأماكن النائية التي لم يطرأ على الحياة فيها تغيير يذكر من قرون مضت ، والتي يثير فيها منظر الغريب تعجب الأهالي وفضولهم إلى الحد الذي يرى الزائر نفسه فيه محاطاً بأفواج من أطفال القرية يتبعونه أينما ذهب . وبالإضافة إلى أثر السياح وتصرفاتهم فإن القواعد البحرية والجوية الأمريكية في الأراضي الإسبانية لا بد وأن تؤثر في حياة السكان . فإن إنشاء هذه القواعد وصيانتها يتطلب استخدام أعداد كبيرة من الأيدي العاملة الإسبانية ، كما أن مسلك الأمريكيين الذين يعملون في هذه القواعد يعكس

محاسن الحضارة الأمريكية ومساوئها . ثم أضف إلى جميع هذه المؤثرات الخارجية حالة القلق المتفشية في الشعب الإسباني نفسه ، والتي ترجع إلى آثار الحرب الأهلية . فكثير من الإسبانين يهجرون مزارعهم وبلدانهم الصغيرة وينزحون إلى المدن الكبيرة أملاً في الحصول على عمل مستقر وأجر أعلى .

على أن سكان المدن سرعان ما يفقدون السجايا الفردية الجذابة التي تميز أهل الريف . ولذلك فإن التحول الذي يقوى الفلاح الإسباني يعد خسارة للمجتمع ، لأنه يعتبر في الوقت الحاضر « المحتلّمان » أو الشريف الحقيقي في أوروبا . ويستخدم الفلاح الإسباني طرقاً بدائية جداً في زراعته ، فقد استبد به الفقر إلى الحد الذي يحول بينه وبين امتلاك محراث أو بغل . وتعمل زوجته معه جنباً إلى جنب في الحقل ، كما تقوم النساء بغسل ملابس الأسرة في أقرب جدول مائي مستعينات بحجر مسطح بدلاً من اللوح الخشبي الذي يستخدم عادة في المنازل . وبالرغم من أن بعض الفلاحين أميون فإنهم يتميزون بموهبة طبيعية للتحدث ، وكذلك بالوقار والمجاملة ، ومعرفتهم الدقيقة بالمنطقة التي يعيشون فيها ، وفوق كل هذا — بالأمانة الشخصية . وكثيراً ما يكون الإسباني فناناً مطبوعاً ، ففي الأندلس يرتجل الفلاح والراعي وسائق البغال أغاني وأشعاراً بنفس السهولة التي يتحدثون بها ، كما أن كل أندلسي يجيد العزف على « الجيتار » . وتوصف إسبانيا أحياناً بأنها أكثر بلاد أوروبا ديموقراطية ، ففيها يستطيع الدوق والفلاح ورجل السياسة والتاجر والميكانيكي أن

يجدوا موضوعات تهمهم جميعاً وتصبح مادة لحديثهم — سواء التقوا في حفل مصارعة أو في قطار أو سوق أو مقهى . ومما يجعل هذا الاختلاط ميسوراً وممكناً أن كل فرد منهم لا ينسى وضعه في المجتمع ولا يشعر بأدنى عار من مهنته . فالميكانيكى فخور بأنه ميكانيكى كفخر الدوق بألقابه . ولا يحول بخاطر أحدهما أن يتبادل مركزه مع الآخر .

إن هذه العصبية وهذا الشعور بأهمية الفرد متأصلان في طبيعة الإسبانيين إلى درجة أنها تظهر في ألقاب الأسر . فالإسباني يحتفظ بلقب أمه إلى جانب لقب أبيه لكى يميز نفسه قدر استطاعته عن كل شخص آخر . وقد يبدو هذا الإجراء لأول وهلة معقداً في نظر الغرباء ، ولكن من الممكن إيضاحه بسهولة . فالاسم الكامل للفنان « جويا » — على سبيل المثال — هو « فرانسيسكو جويا اى لوسينتس » (Francisco Goya y Lucientes) ، وهو يدلنا على أن لقب والد الفنان هو « جويا » ، ولقب والدته هو « لوسينتس » (ويرد لقب الأم دائماً في نهاية الاسم) . ولو شاء « جويا » أن يعرف بلقب أمه لفعل ذلك — كما فعل ذلك الفنان الآخر الكبير « بيلاثكت » الذى اسمه الكامل « ديجو رودريجس دى سيلفا اى بيلاثكت » (Diego Rodriguez de Silva y Velasquez) وكان أبوه نبيلاً برتغالياً وأمّه من أسرة « بيلاثكت » التى كانت تقيم بمدينة أشبيلية . وربما كان سبب اختيار الابن للقب أمه هو أنه اسم مشهور فى أشبيلية . وكذلك أيضاً بالنسبة إلى الشاعر « لوركا » واسمه

الكامل « فرديريكو جارسيا لوركا » (Federico Garcia Lorca) الذى فضل — لسبب ما — أن يعرف بلقب أمه لا بلقب أبيه .

ويربط الشخص أحياناً لقبى والديه ربطاً لا ينفصم . مثال ذلك الكاتب القصصى « فيسنته بلاسكو ايوانييز » (Vicente Blasco Ibanez) الذى أصر على أن يعرف باللقبين معاً : « بلاسكو ايوانييز » .

ولنأخذ مثلاً آخر . حدث أن تزوج مصارع الثيران الشهير « اجناسيو سانتشس ميخياس » (Ignacio Sanchez Mejias) من شقيقة مصارع آخر اسمه « خوسيه جوميس اى أورتيخا » (Jose Gomez y Ortega) — الذين كان هواة المصارعة يسمونه « خوسيليتو » (Joselito) . فإذا فرضنا أن اسم العروس كان « ماريا » (Maria) ، فيكون اسمها الكامل قبل الزواج « ماريا جوميس اى أورتيخا » ، ويصبح بعد زواجها « ماريا جوميس دى سانتشس » فإذا ما أنجبت طفلاً وأعطته الاسم الأول لوالده فإن اسمه يصبح « اجناسيو سانتشس جوميس » أو « اجناسيو سانتشس اى جوميس » إذ أن كلمة « أى » تعادل حرف العطف « و » ويمكن الإبقاء عليها أو حذفها . وبهذه الطريقة لا يمكن أن يحدث لبس بين اسم الوالد واسم ابنه .

ومن الكلمات التى يلقى استخدامها ضوئاً على تفكير الإسبانين كلمتا « دون » (don) و « دونيا » (dona) . ففي القرون الماضية كان استعمال هذه الألقاب مقصوراً على مخاطبة أفراد الأسرة المالكة

وكبار النبلاء . ولكن ما جبل عليه الإسبانيون من حب المجاملة ورغبة كل فرد منهم في أن يعامل باحترام هبطت باستخدام هذه الألقاب إلى المستوى الشعبي . فيمكنك الآن أن تفهم أى شخص محترم بأن تسميه « دون » إذا كان رجلاً أو « دونيا » إذا كانت سيدة . ولكن هذه الألقاب لا تستعمل بتاتاً ما لم تكن مصحوبة بالاسم الأول للشخص الذى تخاطبه ، ولك أن تضيف لقب الأسرة إذا شئت ، ولكن لا تحذف الاسم الأول . فالشاعر « لوركا » مثلاً يمكن أن تخاطبه « سنيور لوركا » أو « دون فريديريكو » أو « دون فريديريكو لوركا » .

و « ايدالجو » (Hidalgo) اصطلاح آخر ينبض معناه بالكبرياء ويعكس موقف الإسبانيين من الحياة . وهذه الكلمة مختصرة من « اينخو دى آلجو » (hijo de algo) — وهى تعادل بالعربية « ابن ناس » ، ويفهم منها أن الـ « ايدالجو » ابن شخص هام أو مشهور وإن لم يكن بالضرورة من النبلاء . وقد جعل « سرفانتس » من بطله « دون كيخوته » ايدالجو تفخيماً له ، مع أن دخله المادى والوسط الذى نشأ فيه اضطراره أن يعيش معيشة ريفية فقيرة . وكان الملوك إسبانيا حق الإنعام على أى فرد من رعاياهم بلقب « ايدالجو » الذى كان يعتبر تكريماً يسعى الجميع للحصول عليه ، وكان يمنح غالباً كتقدير بشجاعة نادرة أو عمل بارز . ولقد قال فيلسوف إسباني حديث إننا يجب أن ننظر إلى الـ « ايدالجو » ، لا على أنه وريث ثروة دنيوية ، بل وريث تلك الحلال التى يسميها الفضيحة .

وينعكس هذا التفكير وهذا الاحترام الذاتى فى سلوك الإسبانين . فكم من سائح عابر فى إسبانيا اليوم عاد إلى بلاده بقصة عن صاحب متجر أو سائق تاكسى أو خادم فى فندق حمل نفسه مشقة لبسدى مساعدة إلى أحد الغرباء أو ليبرهن على أمانته المطلقة .

ومهما يكن الإسبانى فقيراً أو وضعياً فإنه يتسم — كقاعدة عامة — بالدماثة ورقة الجانب ، ترباً به كرامته أن يغتم من غيره مغنماً غير شريف . ويكاد الإحساس البالغ بالعزة والكرامة — أو ما يسميه الإسبان « بندونور » (pundonor) يتغلغل فى نفوس جميع السكان وعددهم نحو الثلاثين مليوناً . وتعبّر هذه الكلمة عن كنه الفضيلة لدى الإسبانين . وإذا حاولنا أن نترجم « بندونور » فهى تعنى غيرة الفرد الشديدة على احترام الغير له ، ذلك الاحترام الذى يفرضه سلوكه القويم ، كما تعنى شرفه وسمعته الطيبة اللذين ينبغى عليه أن يصونهما حتى ولو كلفه ذلك بذل حياته .

إن « بندونور » كلمة تحمل كثيراً من معانى الكبرياء والغرور بما تتطلبه من احترام الآخرين ، كما أنها كلمة درامية كانت محوراً لأكثر من مأساة إسبانية على المسرح وفى الحياة العادية . فإذا توصلت إلى فهم أناس جد حريصين على التمسك بأهداب الشرف فيحيون به ويموتون من أجله فإنك سوف تعجب بإسبانيا والإسبانين .

صدر من هذه السلسلة

اندونيسيا	شعبها وأرضها	ترجمة حسن محمود
اليونان	شعبها وأرضها	ترجمة محمد أمين رستم
ايطاليا	شعبها وأرضها	ترجمة الدكتور محمد نظيف
سويسرا	شعبها وأرضها	ترجمة كمال الملاح
الهند	شعبها وأرضها	ترجمة عماد محمد عبد الفتاح ابراهيم
انجلترا	شعبها وأرضها	ترجمة زينب محمود حوهر

1

 **Bibliotheca Alexandrina**
 **0259078**